سعدي يوسف

يوميات الأذى

نينوى

٥

يوميات الأذى

سعدي يوسف

يوميات الأخى

اسم الكتاب: يوميات الأذى
اسم الكاتب: سعدي يوسف

حقوق الطبع محفوظة
٢٠٠٥

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع
سورية ـــ دمشق ـــ ص ب ٧٩١٧
تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣+
E-mail: ninawa@scs-net.org

لا يجوز نقل، أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

العمليات الفنية في التنضيد والإخراج والطباعة
دار نينوى – دمشق

لوحة الغلاف: عمل للفنان أحمد معلا

سعدي يوسف

يوميات الأذى

جان دمّو ... إلى أين؟

الخبر مؤكّدٌ: جان دمّو فارقَ الحياة، في منفاه (مَنْساه؟) الأستراليّ، بـ'سيدني'، أمسِ، الخميس ٨ / ٥ / ٢٠٠٣ – إذاً، بدأت القصة ...

❖ ❖ ❖

لأقلْ إنني أريد البدء من ذلك النهار الذي أردنا فيه (جليل حيدر وأنا) أن ننصب خيمةً لجان في حديقة منزل اليرموك، حيث كان جليل وهاديا يسكنان.

كان جان دمّو _ كما أخبرَنا _ عبئاً ثقيلاً على قريبٍ له أو قريبةٍ، في ضواحي بغداد القصيّة، وقد هدداه

بالطرد (لا معنى هنا لإلقاء حقائبه في الشارع فهو بلا حقائب دوماً).

لكن جان لم يأخذ هذا الأمرَ، شأنَه مع الأمور الأخرى، مأخذَ التنفيذ ... هكذا خسرنا جميعاً أطروحةً جميلةً بحقٍّ!

❖ ❖ ❖

في عمّان، مَطالعَ التسعينيات، كان يزورني يومياً تقريباً، ومن يعرفون جان لهم درايةٌ بما تعنيه زيارتُه!

قال لي في زيارته الأولى: **هذا البيت ليس بيتك ...إنه لنا!**

- أنت تأمرني، يا جان ...
- أقول لك هذا البيت ليس بيتك!

كان يأتي صباحاً. نجلس في حجرة المكتبة. نتحدث حديثاً مشتتاً. منتقلين كالصواريخ العابرة، من قارة إلى أخرى. لم يكن الحديث ذا نفعٍ، لكنه كان مادةً منشطةً للخيال أو الخبَل. **اتعرف يا سعدي أنني كابتن فريق في كرة القدم؟**

أخذوني إلى الجبهة، وألبسوني بدلة الجيش الشعبي، لأنني كابتن فريق في كرة القدم، وكانوا يطعمونني دجاجاً!

لكني لا أحبّ الجبهة والخنادق، فأهرب، بلا إجازة، وأذهب لأشرب في اتحاد الأدباء. أسكرُ فأشتم سامي مهدي، أقول له إن سعدي يوسف هو الشاعر. يضحك سامي مهدي، لكني في اليوم التالي، أستفيق، لأرى أنني في مستشفىً للأمراض العصبية، قريبٍ من اتحاد الأدباء ...

أقول مبتسماً لحالي: هذا المكان خيرٌ من خنادق الجبهة!

لكنهم لا يبقونني في هذه النعمة طويلاً.

❖ ❖ ❖

ويغيب عني جان أياماً (نحن لا نزال في عمّان)، وأنا لا أعرف ممّن أستقصي أخباره، فأنا أعيش شبه متوحّدٍ في العاصمة الأردنية، ولا أكاد أغادر منعزَلي.

وفي صباحٍ ما، مبكّرٍ، أفتح الباب المؤدي إلى الحديقة، وإذا بي إزاء جسمٍ طريحٍ شبهِ هامد ...

إنه جان. أمضى ليلته مع أصدقاء أو معارفَ، وفي الصباح لم يعرفوا أين يمضون به. لقد فعلوا خيراً إذ جاؤوا به

إليّ، فأنا امرؤٌ صبورٌ، محبٌّ لجان دمّو.

المصيبة ليست هنا. إنها حين يفيق جان من سكرته !

عيناه الضيّقتان الماكرتان (مكرَهما الخاصّ) لا تنفتحان رأساً. إنهما مترددتان، تكادان وترتدّان، كأنهما ترفضان أن تنفتحا على عالمٍ بكل هذا القبح المركّز. لا أظنّ أحداً تملّى عيني جان: إنهما جميلتان زرقاوان بالرغم من ضيقهما وطول إطباقهما بسبب نعاس المَخْمَرةِ المقيم أبداً.

أستعين بصوتي لإيقاظه، ثم بيدي، ثم بكلتا يديّ ...

هل أرشّه بقليلٍ من الماء؟

أخيراً، يتململ جان، متمهلاً، مدمدماً، لاعناً، يلتقط من جديدٍ أطرافه المتناثرة، ليعود جسماً على شاكلة أجسام البشر الفانين.

أمضي به إلى المغتسَل، وهو راغمٌ، أساعده في انتزاع أسماله الملتصقة بجسمه، وآتيه بمنشفة. أفتحُ الماء الساخن، وأنتظره في حجرة المكتبة المجاورة، حيث سيقضي وقتاً. حجرة المكتبة، بالمناسبة، كانت مقامي ومنامي في منزلي الأردنيّ.

عادةً، وفي حالاتٍ كهذه، يقيم جان لديّ، بين يومين إلى ثلاثة، ثم أضطرّ إلى إعادته، لأنني أريد أن أعود إلى المألوف من عادات القراءة والكتابة والمنام.

لكن السؤال العجيب يظل عجيباً: إلى أين سآخذ جان؟

هو: من لامكان، إلى لامكان.

تقول له زوجتي بعد أن أفلحتْ في إدخاله السيارة، سيّارتها: إلى أين نأخذك يا جان؟

يأتي الجواب دمدمةً، وإشارةَ يدٍ غامضةً كأنها تلوّحُ للجهات كلِّها ...

أخيراً، نمضي به إلى وسط عمّان حيث المقاهي.

وتأتي المعضلة الجديدة: كيف ينزل جان من السيارة؟

هو لايستطيع أن ينزل لأنه متعتعٌ، وهو لايريد أن ينزل لأنه لا يعرف تحديداً إلى أين يذهب، بالرغم من أنه يسكن في نُزُلٍ ما بالمنطقة الشعبية من وسط المدينة.

وبين زحمة السيارات وأبواقها الزاعقة، أنزلُ وأُخرجُ جان من السيارة بالتقسيط. كان حذاؤه ينحشر أوّلاً، ثم يستحيل، هو، إلى شبه هُلامٍ ...

السيارات تزعق، وشرطيّ المرور في عمّان مهيبٌ، وأنت في خضمِّ عمليةٍ كبرى.

يأتي الشرطيّ، فتعتذر. الشرطيّ يقبل عذرك. لكنّ جان يفيق فجأةً ليشتم ... وتحبس أنفاسك حذراً.

يخرج جان من السيارة، تراقبه وهو يقطع الشارع إلى الرصيف الآخر، حيث المقهى والشبان العراقيون المعتزّون به دائماً، والذين يكنّون له احتراماً ووداً أثيرَين.

❖ ❖ ❖

ظلّت ذاكرة جان مشتتةً.

وفي داخل هذا التشتت كان الزمن حُرَّ التداخل.

تفاجأ حين يتذكر جان نصّاً كاملاً قرأه قبل ثلاثين عاماً، مثل ما تفاجأ بأنه لايتذكر أين أمضى ليلة البارحة.

غير أني لحظتُ أن ذاكرته تحوم دائماً حول ما فيه جمالٌ وخيرٌ ومعرفةٌ وإبداعٌ.

العلاقة الأسترالية قد تبدو غريبةً، لكنها ليست كهذا، فللرجل أخٌ مقيمٌ هناك منذ وقتٍ طويل، وكان جان ينتظر عوناً من أخيه.

في أحد الأيام اتصلتُ هاتفياً بالرجل (وكان من سكنة سيدني)، وقد أخبرتُه بقصة أخيه، وظروف إقامته بعمّان،

وما إلى ذلك، لكن الرجل ردّ عليّ بكل ودٍّ قائلاً: إنني أشتغل عاملاً في عملٍ صعبٍ من الصباح إلى المساء، وأساعد عائلتي، وأرسل مالاً إلى أخٍ لي سَكّيرٍ باليونان. أنا لاأتحمل عبءَ جان الذي تعرفه. لكن جان دمّو يريد الوصول إلى هناك ...

جاءني مرةً في الصباح الباكر. قال إنه يجمع تبرعاتٍ، بادئاً بي.

حسناً، يا جان ... لِمَ التبرعُ؟

- لأذهب إلى أندونيسيا.

- وماذا تفعل هناك؟

- أعبرُ إلى أستراليا في زورق صيّادين .

قدّم أوراقه إلى الأمم المتحدة، مرفقةً بشهادةٍ مني تفيد أنه معارضٌ ... إلخ (يبدو أن شهادتي معترفٌ بها لدى مكتب الأمم المتحدة بعمّان).

وهكذا سافر جان دمّو على نفقة الأمم المتحدة إلى أستراليا، حيث سيلقي شقيقُه بحقيبته (صارت لديه أخيراً حقيبةٌ) إلى الشارع، وحيث سوف يستقبله ' غيلان ' في منزله خير استقبال.

على أي حالٍ !

وأنا في لندن، ربما قبل عامٍ ونصف عامٍ، أو عامين، هاتَفَني غيلانُ قائلاً إنه اضطرّ إلى إدخال جان في عيادة بمنطقة ' الجبال الزرق ' الجميلة لكن النائية، مختصّةٍ بمعالجة مدمني الكحول من الشعراء والفنانين.

قال غيلان أيضاً إن جان كان يشرب قنينة ويسكي كاملة كل يوم، وربما زاد على القنينة ...

آخر ما بلغني عن جان، كان في أواخر شهر شباط ٢٠٠٣، حين قال في شبه مقابلة صحافية **إن العراق بحتاج إلى رجّة**. وقد أشرت إلى قوله في مادةٍ نشرتها ' السفير '.

❖ ❖ ❖

الأثر الشعري المطبوع الوحيد الذي خلّفه جان دمّو كان كرّاس ' أسمال ' الذي تبرّع بطبعه الصديق فاضل جواد، المقيم حاليّاً في الولايات المتحدة، كما أعتقد. ومن الممكن أن لدى فاضل نصوصاً أخرى ممّا كتب جان دمّو.

هل كان جان شاعراً؟

أتذكرُ ما قاله عبد القادر الجنابي عنه:

شاعرٌ بلا نصٍ. نصٌ بلا شاعر!

لندن ٩ / ٥ / ٢٠٠٣

كم هو موجِعٌ هذا الوقت، يا أمل!

في الذكرى العشرين لرحيل أمل دنقل

أيامٌ كهذه، لم أكن لأنتظرها، يا أمل دنقل ...

وإذ أحدّثك اليوم، فلأنك صديقٌ، ولأنك تقدّر وجعَ الصديقِ قدْرَه. لا شيء يفرّق بيننا، لا طبقاتِ ثرى، ولا سماواتٍ طباقاً.

أردتُ أن أُسِرّكَ بأنني متعبٌ، حدّ أنني وددتُ لو استطعتُ منك قرباً، عسانا نقرأ ما يَحْدث الآن قراءةَ أخَوينِ ...

غير أنني لا أريد أن أزيدك من أمري رَهَقاً. يكفيك ما أنت فيه، يكفيك ما تحمله من أثقال هذا التراب.

فلننتقلْ إلى زمنك، آنَ الحنانُ والحنين.

أتذكر كيف التقينا ببيروت للمرة الأولى؟

كان شتاءً قارساً، لكنه مهرجان الشقيف الشعري بكل دفئه (١٩٨٠؟)، وفي منزل محمد أبو ميزر وميّ صايغ ذات مساء، التقينا. أتذكر كيف رحّبتَ بي، أعني: أتذكر كلماتك؟ إنها كلماتك الأليفة التي ما كنتُ ألفتُها.

قلتَ لي بصوتك الأجشّ قليلاً: يا ابن الكلب! أأنت سعدي يوسف؟ أكلّما فكّرتُ أنا بقصيدة وجدتُكَ كتبتَها ونشرتَها؟

أستعيدُ الآن تلك اللحظة التي بدتْ لي مربِكةً وقتَها، والتي سعدتُ بها، في ما بعدُ، متأملاً.

وذهبنا معاً إلى دمشق الشام، وكان الثلج يكاد يغلق ممرات 'ضهر البيدر'، كنتَ ترتجف قليلاً من القرّ، بالرغم

من 'الفيلد' العسكري الثخين. ربما كان ذلك ثلجك الأول!

كان لائقاً بك كلُّ ذلك الترحاب الذي لقيتَه أنّى حللتَ.

ومع قصيدة ' لا تصالِحْ ' ... ظلّ الهتاف باسمك يتعالى.

لكن قصيدتك (فنّك الشعريّ) أعقدُ من ' لا تصالحْ ' وأعمقُ.

أنت كتبتَ القصيدة المصرية، مبتدئاً بما توصّل إليه صلاح عبد الصبور عبر جهده الصبور الدؤوب، دافعاً بالقيم

الفنية، وتطبيقاتها التي أرهقت صلاح عبد الصبور، نحو مسارٍ ذي مرونةٍ فائقة، حتى ليوهم باليُسْرِ، وما كان يُسراً.

أشياءُ الحياة واليوم والشارع (وأنت وفيٌّ له)، كانت تُجتلى، في النصّ، عناصرَ فنّيةً موضوعةً تحت مجهرٍ فائقِ الدقّة والقدرة والحساسية.

ومع الأيام، وتواتر النصوص وتوتّرِها، بدأ منحاك الجماليّ يتّخذ صعوبتَه وصفاءه في آن.

' أملُ ' الشّعر المصريّ، إذاً !

لندن ٥ / ٥ / ٢٠٠٣

قلتُ: أعودُ إلى الألوانِ المائيّـةِ

أمسِ، في الأول من أيار (مايس، ماي، مايو)، سمعتُ مُشاهداً، خطبةَ الظفَرِ التي حيّا بها مقاتليه، على ظَهر حاملة الطائرات الجبّارة ' ابراهام لنكولن '، السيدُ جورج بوش (الإبن)، رئيسُ الولايات المتحدة، ومن ضمنها (أي الولايات)، الولايةُ الثانية والخمسون (أعني العراق)، وقد كنتُ أُمازحُ سيدةً إنجليزيةً ذاتَ يومٍ قريب، إذ قلت لها إننا الولاية الواحدة والخمسون، فردّتْ عليّ السيدةُ ضاحكةً: كيفَ أخطأتَ الحسابَ؟

نحن الولاية الحادية والخمسون، أمّا أنتم فتأتون بعدنا في القائمة المفتوحة ...

على أي حالٍ!

قال السيد الرئيس جورج بوش إن الإنتقال من الدكتاتورية إلى الديموقراطية سيأخذ وقتاً، وهنالك البحث في أكثر من ألف موقعٍ عن أسلحة الدمار الشامل، وكذلك استتباب الأمن، وإعادة الخدمات ... إلخ.

والأنباءُ تتوالى. من بينها، أن السيد الرئيس، عيّنَ حاكماً مدنيّاً على الولاية الثانية والخمسين، وهذا حقٌّ دستوريٌّ له، كما قيل إن الجنرال المتقاعد غارنر سوف يخضع لتراتبيةِ أن الحاكمَ المدنيّ أرفعُ منه سلطةً وتسلّطاً.

ومن هذه الأنباء، أيضاً: امرؤٌ من الدانيمارك (دانيمارقة)، سيكون حاكماً على البصرة! ما المُشْكِلُ في هذا؟ الرجلُ مسلمٌ (كأن ليس في العراق مسلمون!)، والرجلُ ناطقٌ بالعربية (كأن أهل العراق أعاجمُ!)، كما أنه كان سفيراً لبلده في دمشق الشام ...

على أي حالٍ، قلتُ إن الدانيماركيّ قد يأتينا بخير. مثلاً، قد يصطحبُ منعم الفقير معه إلى البصرة، وهو شابٌّ يعرف البصرةَ حتماً، أو يتذكرها في الأقلّ، مع

أنه صار مواطناً من دانيمارقة، وشاعراً دانيمارقياً بالترجمة، وممثلاً لكتّاب دانيمارقة في المحافل ...

قلتُ أيضاً إن منعم الفقير، فقيرٌ حقاً، ولا سبيل إلى مقارنته مع وَبْشٍ مثل كنعان مكّية.

أردتُ أن أقول إن منعم الفقير لن يمرّ بالبصرة مثل ما مرّ كنعان مكية بالناصرية، حين قال في تفاهةٍ نشرتها صحيفة **الجمهورية الجديدة** **The New Republic** إنه كان يحمل معه، في السيارة الأميركية المصفحة SEAL، أموالاً وأرزاقاً إلى مرتزقة أحمد الجلبي المسلّحين ...

الحبلُ على الجرّار ...

وقيل أيضاً إن ضابطاً مرموقاً في الجيش الإسباني سيتولّى المسؤولية الأساسَ في تأسيس جيشٍ عراقيٍّ جديد.

الحبل على الجرّار ...

وقيل إن مشعان الجبوري سوف يُجيِّرُ النسوةَ من بيت صدّام، لئلاّ يمسين سبايا!

الحبل على الجرّار ...

وفي لندن ولاهاي ومشيغن وبرلين وسواها، يقدِّمُ كتّابٌ وصحافيّون وشعراء، أنفسَهم، بضاعةً، لكنْ ... لا أحدَ يشتريهم..

أن تكون عميلاً هذه الأيام، مسألةٌ غيرُ مُجْزِية، فالجنودُ الأميركيون ببغداد (منطقة مثلّث الفنادق) يطلقون الرصاص أحياناً في الهواء كي يبعدوا المئاتِ من العراقيين الذين يريدون العمل معهم (بسببٍ من جوعٍ وخوفٍ)، والكثيرُ من هؤلاء أقدرُ وأحقُّ، من متطوِّعي لندنَ وسواها، الذين حلّوا بها ذاتَ يومٍ، ملتجئين، باعتبارهم شيوعيين أمَضَّ بهم الأذى.

❖ ❖ ❖

أخرجتُ ورقَ الرسمِ، وإحدى عشرةَ فرشاةً، وعلبة الألوان المائية، وقلمَ رصاصٍ مرهفاً، وممحاةً. جئتُ بكأسين، فيهما ماءٌ صافٍ، كأسٍ لاغتسال الفرشاة من ألوانها، وكأسٍ لِمَتْحِ الماء، وبدأتُ أرسمُ. كنتُ أستعملُ الحبرَ الصينيّ في ما سلَفَ من أسطورة المنفى.

اليومَ سأغرقُ في الألوان المائية.
أسلحتي في مغالبة المنفى أستعيدُها الآن.
ولسوف يطول منفاي إلى الأبد ...
لن أعود إلى عراقٍ هو الولاية الثانية والخمسون.

لندن ٢ / ٥ / ٢٠٠٣

الخوَنةُ، خدمُ الجنرال المتقاعد غارنر
مسؤولون عن مذبحة الفلّوجة

أمس، في الثامن والعشرين من نيسان، وفي قاعة مؤتمرات باذخة، استدعى الجنرالُ المتقاعد غارنر (حاكم العراق العام)، عدداً من الخونة، فالاشا ومحليين، ليبصموا على إعلان الإستسلام، الإعلان الذي لم يجرؤ عسكريٌّ على توقيعه، بعد أن اختفى صدّام، الآمرُ الأول بالإستسلام في حرب الخليج ١٩٩١- ١٩٩٢.

والحقُّ أن أولئك المستدعَين، هم أمشاجٌ عجبٌ: قتلةٌ بعثيون، رجال دين فاسقون، متدربون قدامى لدى وكالة المخابرات المركزية، مجنّدون جددٌ من سارقي المصارف والمتاحف، تائهون باحثون عن مشترٍ، مغامرو سياسة قليلو التجربة...إلخ.

لكن أمراً استرعى انتباهي في "لَملوم" غارنر. قيل إن حزب الباجحي، حزب (المستقلين الديمقراطيين!)، لن يبصم مع غارنر، لكنّ الواشنطني (نسبةً إلى واشنطن!) أيهم السامرائي، الذي ترأسَ جلسة الحزب في فندق نوفوتيل اللندني، وكان في منتهى عدم اللياقة، حضر استدعاءَ غارنر، وبصمَ مع الخونة الآخرين على وثيقة الإستسلام التي منحت الأميركيين السلطةَ الأمنية الكاملة على كامل التراب العراقي، ومهّدت السبيل لإقامة مكاتبَ محليةٍ لمأمورين ينفذون إرادة جيش الاحتلال، تحت تسمية مضللة للدجاج، هي: **الحكومة المؤقتة**.

لقد هرِم الجلاّدُ الأول، صدام حسين، بعد أن قتل حرباً وإعداماً، مليونين من أبناء الشعب العراقي، والآن يأتي الجلادون الجدد، من أمثال أيهم السامرائي، ووفيق السامرائي، ومشعان الجبوري، وسعد البزاز، وسائر الحثالة، ليواصلوا مسيرة القتل والخيانة ...

هؤلاء الذين وقّعوا وثائق غارنر، هم المسؤولون أولاً عن مذبحة الفلوجة، التي قضى فيها العشراتُ من أبناء شعبنا، بالرصاص الأميركي.

مسؤولون لأنهم نفّذوا الأمرَ بأن يكون **الأمن** بيد جيش الاحتلال.
ولسوف يحاسَبُ هؤلاء الخونة.
وإنه لَيومُ حسابٍ قريبٌ، بل أقربُ ممّا يُظَنُّ.
الدم العراقي ليس رخيصاً إلى هذا الحدّ ...

لندن ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٣

آيةُ الله ... كنعان مكّية

... وفي العام الثالث بعد الألفَين من ميلاد السيد المسيح، هبطَ على الديار العراقية، من سمتيّة أميركانيّة، آيةٌ من آيات الله، ينتسب إلى مكّةَ، كانتساب أبي رُغالٍ إليها، لكنه لم يُطِل المكثَ، إذ سرعانَ ما رفعته السمتيةُ التي جاء بها، ليعود إلى دياره، خائباً خاملاً، حاملاً أوراقه التي اهترأتْ من طول تداوُلٍ وتناوُلٍ.

والحقّ أن آية الله كنعان مكية، كان ينتظر في الناصرية مَن يعرفه فلم يجد أحداً. ولَربّما كان مَرَدُّ ذلك أن الناس في الناصرية ناطقون بالعربية دارجةً، وليس بالإنجليزية / الأميركانية رطانةً، بينما المأثورُ عن آية الله هذا قوله إن العراق ليس عربياً. قولٌ حقٌّ أُريدَ به باطلٌ، أو قولٌ باطلٌ أُريدَ له أن يُجرى مُجرى الحقّ. والأمرُ في الحالَين واحدٌ، كما يرى المَناطقةُ.

المصيبة التي أصابت آيةَ الله كنعان مكية أن الناس في الناصرية لم يستجيبوا إلى دعوته نحو إنصاف اللوطيين، تلك الدعوة التي خرجَ بها في خان الهيلتون متروبوليتان اللندني، وأعتقدُ أن سبب ذلك عائدٌ إلى أن النساء في الديار العراقية أكثرُ عدداً من الرجال، بعد كل الحروب التي قضتْ على أجيالٍ وأجيالٍ، لكن آيةَ الله ما كان ليعرف هذا فهو في حلٍّ ومرتحلٍ دائبين بين واشنطن وتل أبيب، فكيف له أن يعرف ما حلّ بالبنية الإجتماعية من جديد؟

الرجلُ معذورٌ، فربما تصوّرَ الناصريةَ قريبةً من حيّ سوهو!

وممّا فاقَمَ من خيبة الرجل أن المحتلين لم يسلّموه مفاتيح غرفته في الأقل (أعني حثالته 'الديموقراطية ')، وهي الغرفة التي تُؤوي سارقي مصارفَ ومهربينَ ومشعلي حرائقَ وناهبي متاحفَ ومكتباتٍ. آية الله كنعان مكية هدّدَ بأن يرفع الأمرَ إلى السيد الأعلى: جورج بوش الإبن؛ فكيف يجرؤ الجنرال المتقاعد غارنر على إبعاد آية الله عن تصريف شؤون البلاد والعباد؟

كيف يجرؤ الجنرال المتقاعدُ على هذا؟

ألم يقرأ ما كتبه آيةُ الله؟

على أي حالٍ، بلَغني أن مستشاراً لبنانياً في دائرة غارنر، حاكم العراق العام، أشار إلى رئيسه بذلك، متذرعاً بذرائع شتى، من بينها أن ما كتبه آيةُ الله ليس بشيءٍ.

هذا المستشار قال مثلاً إن كتاب "**جمهورية الخوف**" ليس كتاباً، فهو يضمّ نثيراً ضئيلاً ممّا يتداولُه العراقيون عن تسلّط البعثيين. كلُ ما في الأمر أن الكتاب كان باللغة الإنجليزية، وإن كان هذا يعني شيئاً خارج العراق، فإن الكتاب غير ذي معنى في العراق.

وقال المستشار أيضاً إن كتاب **النُصُب Monuments** ليس كتاباً ينمّ عن تخصّصٍ عالٍ وتدقيق.

أمّا كتاب "**الصخرة**" فإن المستشار يراه ضارّاً، في الوقت الراهن، من الناحية السياسية العملية، ما دام الكتاب مبنيّاً على فكرة أن المسجد الأقصى يعود تاريخيّاً إلى بني إسرائيل لا إلى العرب المسلمين.

"**القسوة والصمت**" في رأي المستشار اللبناني، هو متابعةٌ لمسعى المؤلف في إبعاد العراق عن محيطه، وهو أمرٌ ضارٌّ في الوقت الراهن، ولا ينسجم مع الجهود الأميركية الآنيّة.

مصيرٌ مؤلمٌ لآية الله كنعان مكية ... بعد كل المشوار الذي قطعه ابتداءً بتروتسكي، وانتهاءً بتل أبيب!

الجمعة اليتيمة

الجمعة هو اليوم السادس من الأسبوع المتعارف عليه، وفي روما القديمة كان هذا اليوم مكرّساً لفينوس. تَعتبر الأقوامُ النورديّة (أقوامُ شماليّ أوربا) الجمعةَ، اليومَ الأكثر مجلبةً للحظّ بين أيام الأسبوع، لكن المسيحيين عموماً يعتبرونه أكثر الأيام مَشأمةً إذ صُلِبَ فيه المسيحُ. المسلمون يعتقدون أن آدم خُلِقَ الجمعةَ، وأن آدم وحواء أكلا الفاكهةَ المحرمة فيه، وتُوُفِّيا أيضاً في يوم جمعة. ويوم الجمعة هو يوم القيامة. وورد في 'لسان العرب':

إنما سُمِّيت الجمعة في الإسلام وذلك لاجتماعهم في المسجد. وقال ثعلب: إنما سُمِّيَ يوم الجمعة لأن قريشاً كانت تجتمع إلى قُصيّ في دار الندوة. وفي الحديث: أول جمعة جُمِّعَتْ بالمدينة.

البوذيون والبراهمة لا يعتبرونه يومَ سعد. وفي بريطانيا يقول الناس مَن يضحك الجمعةَ فسوف يبكي الأحدَ: He who laughs on Friday will weep on Sunday.

كما لا يُنصَحُ (في بريطانيا أيضاً) بتقليم الأظافر يوم الجمعة إذ يرون أن من يفعل ذلك سوف يقرض أظافره ندماً. والأقوام السكسونية تسمي الجمعةَ اليتيمةَ، الجمعةَ الطويلةَ كذلك، وقد يكون مَردُّ الأمرِ إلى الصيام.

❖ ❖ ❖

رُبَّ قائلٍ يقول: وما شأننا بهذا كله؟

والحقُّ أنني مع التساؤلِ وصاحبه، فالأيام عجلى، والأحداثُ كبرى، والناسُ يعانون ممّا يرون ويسمعون

رهَقاً، حتى أمسى التثبّتُ والتأني عصيّينِ، دعْ عنك خرافاتِ الأممِ وعوائدَها...

لكنني أرى أن لأمّتي في العراق حقاً عليّ، وأن من واجبي أن أؤرّخَ لأيّامها، ومن هذه الأيام، الجمعةُ اليتيمةُ

في الثامن عشر من نيسان ٢٠٠٣.

ففي تلك الجمعة خرج عشراتُ الآلافِ من أبناء وطني، في بغداد وكربلاء، مثالاً لا حصراً، يهتفون ضد الجيش السوفييتي الذي احتلّ بغداد في التاسع من نيسان ٢٠٠٣، ونهب متاحفها ومصارفها ومكتباتها، وأحرقَ الأخضرَ

واليابسَ، وقتلَ الآلافَ من المدنيين، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، ونصّبَ المارشال المتقاعدَ زوكوف حاكماً

على العراق ...

ولأن الجنود السوفييت مَلاحدةٌ زنادقةٌ، وجّهوا مدافعَ دباباتهم إلى المساجد والجوامع، ومن بينها جامع الإمام الأعظم، كما رفعوا في الموصل رايتهم الحمراء ذات المطرقة والمنجل ...

والسوفييت هم الذين وضعوا يدهم على نفط العراق، وتولّوا إدارته وتسويقه، معتبرين النفطَ بين غنائم الحرب، مثل ما يفعل أي جيش استعماريّ.

السوفييت هم من قالوا: إن الشعب العراقي مصابٌ بمرضٍ مستعصٍ، وعلينا أن نتولّى علاجه لفترةٍ طويلة.

محنةٌ ليست كالمحن ...

لندن ١٩ / ٤ / ٢٠٠٣

التخويضُ في دم العراقيين

مثل ما كان متوقَّعاً، أسرعَ البعثيون القدامى، المنضوون تحت البيرق الأميركي الآن، في عودتهم إلى العراق مع دبابات المحتلين وطائرات الأباشي، تنفيذاً لأوامر سادتهم الجدد، وطمعاً في الغنيمة من سلْبٍ ومنصبٍ .

الأسماء كثيرة: حسن العلوي، سعد البزاز، ابراهيم الزبيدي، مشعان الجبوري... إلخ.

في خيمة الناصرية، أمس، الخامس عشر من نيسان هذا، عيَّنَ الجنرال المتقاعدُ غارنر، عدداً منهم وكلاءَ له، مثل ابراهيم الزبيدي ومشعان الجبوري.

في ١٩٩٢، دخل الضباط العراقيون، خيمة سفوان، بأمرٍ من صدام حسين، ليجلسوا قبالة الجنرال شوارتزكوف ليوقِّعوا وثيقة وقف إطلاق النار التي هي في حقيقتها وطبيعة شروطها استسلامٌ مؤجلٌ .

أمّا خيمة سفوان الناصرية (الخيمة الكبيرة بتعبير غارنر)، التي رُفعتْ وسط سوافي الرياح والتظاهرات المضادّة، فقد دخلها أنفارٌ، بأمرٍ من غارنر، ليستمعوا إلى ما يقوله غارنر وينفِّذوه . وقد عيّنَ غارنر وكلاءه وجلاّديه.

أحمد الجلبي الذي كان تعرّضَ لمحاولة اغتيالٍ لم يجرؤْ على الحضور، خشية أن يلقى ما لقيه عبدالمجيد الخوئي، ونزار الخزرجي، قبل أيامٍ .

من بين هؤلاء الجلادين، مشعان الجبوري، الذي جابهته جماهيرُ الموصل بانتفاضة أغرقها الجنود الأميركيون بالدم،

حمايةً لجلاّدهم، وبأمرٍ منه، بعد أن أحرقَ المتظاهرون سيارته.. أمس لقد قُتل وجُرح العشراتُ من المتظاهرين في الموصل الكريمة.

مشعان الجبوري هذا، الذي عينه غارنر حاكماً بالوكالة على الموصل، كان مرافقاً لصدام حسين من راكبي الدراجات النارية، وكان له دورٌ بشعٌ في قمع الأكراد، حتى قال يوماً: **لقد وصل دمُ الأكراد إلى ركبتيّ** ٠

مشعان الجبوري، وهو الحكمُ الأميركي مشخّصاً وواضحاً، خوّضَ في دم الأكراد أيامَ صدام حسين، وهاهوذا الآن يخوِّضُ في دم العرب من أبناء الموصل ٠

التخويض في دم العراقيين، يريده غارنر، وينفّذه مشعان.

لندن ١٦ / ٤ / ٢٠٠٣

ابتدأت معركة التحرير

طارق علي في العدد الأخير من مجلة اليسار الجديد New Left Review، وروبرت فيسك الذي يكتب من العراق المحتل في العدد الأخير من صحيفة 'الإندبندنت' اليومية، (عدد اليوم ١٧ نيسان ٢٠٠٣)، اتّفقا على أمرٍ واحدٍ، هو أن معركة تحرير الوطن من المحتلين قد بدأتْ فعلاً ٠

يقول طارق علي في افتتاحية 'مجلة اليسار الجديد': **غيرُ مُجْدٍ التطلّعُ إلى الأمم المتحدة أو يورولاند، دعْ عنك روسيا أو الصين، كعقبةٍ أمام المخططات الأميركية في الشرق الأوسط؛ إذاً، من أين ينبغي للمقاومة أن تبدأ؟ أولاً، وكما هو طبيعي، من المنطقة ذاتها. لهذا يؤمَلُ في أن يُطرَدَ محتلّو العراق سريعاً بفعل المواجهة الوطنية المتنامية لنظام الاحتلال الذي أقامه المحتلون، كما أن عملاءهم سيلقون مصير نوري السعيد قبلهم.**'

أمّا روبرت فيسك، فيقول في مقدمة تحقيقٍ من داخل العراق استغرقَ صفحتين من 'الإندبندنت'، الآتي:

'الأمور لم تستقمْ، أسرعَ ممّا كان أحدٌ يتخيّلُ٠ لقد تحوّل جيش 'التحرير' بالفعل إلى جيش احتلال٠ والشيعةُ يهددون بأنهم سوف يقاتلون الأميركيين، ويبدأون حرب 'التحرير' الخاصة بهم ٠ وفي الليل، عند أي متراسٍ شيعيّ بمدينة الصدر يقف أربعة عشر رجلاً مسلّحين ببنادق أوتوماتيكية '٠

❖ ❖ ❖

اليوم، أجرتْ معي إحدى محطات الإذاعة الأميركية، حديثاً بالهاتف، وسألتني الإذاعة في ما سألتْ عن رأيي في الحالة الراهنة. قلتُ: تَحَقّقَ نصرٌ عسكريّ، وكارثةٌ سياسيةٌ وإنسانيةٌ ٠ قلتُ أيضاً: لقد فرضتم علينا عميلكم، صدام حسين، في ظروف الحرب الباردة، والآن تفرضون علينا عميلكم أحمد الجلبي. هذا الأمر لن يستقيم. الشعب العراقي يتطلّع إلى مصيرٍ أفضل.

الآن، وقد أطبقَ ليلُ الاحتلال على العراق، وخُتِمَتْ حدوده بالشمع الأميركي، وانطلقَ مشعلو الحرائق ولصوصُ المصارف والمناصب والمتاحف يعيثون فساداً في حاضر الوطن وماضيه ومستقبله، في هذا الوقت، علينا

أن نصارح أنفسنا، ونصرِّحَ بالحقيقة عاريةً شجاعةً. علينا أن نواجه الخيانةَ، ونسَمِّي الخونةَ بأسمائهم المنكرة ... علينا أن نقول بملء أفواهنا "لا" الكبرى هذه التي تحدّثَ عنها كافافي شاعرُ الإغريق العظيم.

لندن ١٧ / ٤ / ٢٠٠٣

الجنرال الأصلع و طابورُه

بسحرِ ساحرٍ، وكما في الألاعيب البهلوانية، أو قصص ألف ليلة وليلة، مُسِخَ سارقُ المصارفِ المطلوبُ من الشرطة الدولية، جنرالاً أصلعَ، يتوسّطُ (لا يتقدمُ) طابوراً عجيباً، أفرادُهُ إسرائيليون يجيدون اللهجةَ العراقية

وبقايا من جيش أنطوان لحد المسؤول عن مجزرة صبرا وشاتيلا، وفالاشا عراقيو الأصل ممّن درّبهم الأميركيون

في هنغاريا على أعمال السلب والنهب وإشعال الحرائق والإغتيال وإثارة الفتَن.

هذا الجنرال، يبدو ضاحكاً مضحكاً، وهو يستعرضُ أفرادَه، غير بعيدٍ عن الجنود الأميركيين، الذين يراقبون ما يجري، من موقع المحترِفِ، بنوعٍ من السخرية الصامتة.

منذ أمد بعيد، ظلَّ سارق المصارف يحاول إقناعَ سادته الأميركيين بجدواه ومكانته وثقله السياسي بل العسكري، لكن هؤلاء، بعد أن أتموا احتلالهم بمنتهى اليُسْرِ، معتمدين على أنفسهم وجبروتهم العسكري، تأكدوا من أن سارق المصارفِ ليس غيرَ كاذبٍ بائسٍ، لا حولَ له ولا قوّة، فصرفوا النظر عنه، وظلوا يماطلون في عقد الإجتماع العاجل الذي كان يلحُّ عليه استباقاً للأحداث، وقبل أن يفيق الناسُ من ذهول الصدمة الأولى. لقد أثبتت التطوراتُ في النجف، جسامةَ العقباتِ والعواقب، المتصلة بفرض حكمٍ ما للعملاء من أمثال سارق المصارف. كما أن البوادر الأولية للحراك الوطني الشعبي (التظاهرات – إعادة افتتاح مقرات أحزابٍ وطنية...إلخ)

جعلتْ هذه الجسامةَ ملموسةً تماماً.

إذاً، لماذا يستعرض الجنرالُ الأصلعُ طابورَه البائس؟

أعتقدُ أنه يريد بهذا أمرَين:

الأول: جلْب اهتمام المحتلين إلى إمكان الإستفادة من خدماته (في النهب والسلب وإثارة الفتن).

الثاني: محاولة تخويف الناس والأحزاب والحركات الوطنية.

لكن الأميركيين _ كما يبدو _ متجهون إلى حكمٍ مباشرٍ يتولونه هم، بمساعدةٍ من خبرائهم هم، وحتى لو عقدوا الإجتماع المزمع أو غير المزمع، في الناصرية أو بغداد، فإن هذا لن يكون سوى تغطيةٍ أخرى للإحتلال، مثل ما تمَّ في فندقَي الهيلتون ميتروبوليتان ونوفوتيل، بالعاصمة البريطانية.

لقد جاء استعراضُ الطابور متأخراً، متأخراً جداً.

والشعب العراقي أفاقَ من ذهول الصدمة.

لندن ١٤ / ٤ / ٢٠٠٣

أنا العراقيّ، كيف أستعينُ بنفسي ...

هذه الأيام عسيرةٌ، لفرْط تناوُبِ التوهُّج والتوجس فيها.

أنا أعرف المعادلات كلَّها، أعني ما اتّصلَ منها بترحيل صدّام حسين، ومَن يتولّى الترحيلَ، والأسبابَ والنتائج؛ أعرفُ - حتى أسراراً أحياناً - عن المعارضة الوطنية في الداخل، والمعارضة غير العميلة في الخارج، وتلك العميلة (أقصدُ المعارضة التي تتخذ الأشكال ذات الطابع المافيوي- نسبةً إلى المافيا - ، كما أهتمُّ بمتابعة أنباء أشخاص المافيا من تنقّلٍ وزيارات وتقافزٍ بين العواصم (مراكز القرار) مثل واشنطن وتل أبيب ولندن وأنقرة وطهران، بل الرياض أيضاً ...

وبين الحين والآخر تبْلغني أخبارٌ قد تكون غير دقيقة عن المبالغ التي تلقّاها هذا المافيوزو أو ذاك، وعن تصفية حسابات...إلخ. لكني امرؤٌ فقيرٌ، مثل سائر أبناء شعبي، ولهذا لم أكن شغوفاً بمتابعة هذا الجانب من نشاط المعارضة العميلة (أقصدُ المافيا)، إلاّ أنني أرى من واجبي متابعةَ الخرابِ السياسي المتصلِ بأنشطة المافيوزويين (هذا شذوذٌ في الجمع، فالمفروض أن أقول المافيوزويات، فالقاعدة تقول إن الأعجمي يُجمَعُ مؤنثاً سالماً، لكن المافيوزويين ليسوا مع حرية المرأة بإطلاق، وبعضهم يرى في المرأة أكثرَ من عورةٍ ينبغي أن تحجَب، ولهذا فضّلتُ هذا الشذوذَ في الجمع).

المافيوزو من هؤلاء، ليس من حزبٍ أو جماعة، ولربما كان في أحد الأيام في حزبٍ أو جماعة، لكنه الآن يعمل مثل ذئبٍ وحيد، جامعاً حوله عدداً من الخراف، يباهي بهم الأممَ، ويدّعيهم حزباً، ويصدر لهم وريقةً يسمّيها صحيفةً: (المؤتمر)- (بغداد) - (الوفاق) ... إلخ

ولأنّ المافيوزو ذئبٌ وحيدٌ، نراه يمضي إلى مقاصده وحشيّاً، غير مبالٍ حتى بخرافه الذين شكّلوا هيأته العامة، وهكذا سوف يغلق ' الشلبيّ' صحيفته، ويلقي

بخرافه الكتَبة إلى رصيف الخيبة، بينما يتنقل هو في هليكوبترات الاحتلال، ساعياً مثل أي ذئبٍ إلى غنيمته: سرقة الشعب الفقير.

والمافيوزو الآخر والآخر (همُ كُثُرٌ) موظفٌ في وزارة الخارجية الأميركية، ويحمل الجنسية الأميركية، لكنه يعقد في العاصمة البريطانية ' مؤتمر الديمقراطيين المستقلين '. ما علاقته بالعراق؟ ما علاقته بالديمقراطية؟ ما علاقته باستقلالية الموقف؟ لقد جمع، كأي ذئبٍ وحيد، خرافه، ولسوف يلقي بهم إلى رصيف الفضيحة، حتى قبل أن يهيّيء لهم وريقةً صفراء.

ليس شرطاً أن يرتدي مافيوزو المعارضةِ العميلةِ زيّاً أوربياً، إذ قد تقتضي المهنة ارتداء الجبّة والعمامة، والطقطقةَ بالمسبحة، لكنّ القاعدة تظل القاعدةَ ذاتها: أن تجمع عدداً من الخراف حولك، وتحظى بالغنيمة وحدك حتى لو كانت أرضك مسجداً.

يَحْدثُ أن المافيوزو الحاليّ، كان ذا مسؤولية عالية، سياسية، أو عسكرية، أو إعلامية، في أجهزة صدّام الحسّاسة، لكن هذا الأمر لن يجعل عضلةً تختلج في وجهه. إنه الذئب الوحيد، وهو قد عارضَ صدّاماً ويعارضه أكثر منك ... أعوامك الثلاثون في المعارضة والمنفى لن تعني شيئاً، وهاهوذا يذهب إلى العراق قبلك مع مظليي الاحتلال. ومن يدري، ربما اعتقلك، أو أصدر أمراً باعتقالك وقتَ تعود!

أنا العراقي، كيف أستعينُ بنفسي؟

لقد مضى صدّام إلى جحيمه، قريرَ العين، بعد أن حقق أقصى ما يستطيع تحقيقه ضد الشعب الذي لم يرضخ له يوماً، أعني تسليمَ العراق إلى الاحتلال.

الآن، عليّ، أنا العراقي، أن أستعين بنفسي:

أرفضُ الاحتلال، ومافيا الفالاشا.

لندن ٩ / ٤ / ٢٠٠٣

الفالاشا العراقية ودرس الخوئي

الصديق هاني فحص، قدّم في عدد " السفير " الصادر في الحادي عشر من نيسان ٢٠٠٣ هذا، موجزَ سيرةٍ في منتهى الفطنة، للسيد عبد المجيد الخوئي، القتيل في مقام الإمام عليّ " ليكون ثاني نجلٍ من أنجال المراجع الذين يُقتلون في النجف".

يقدم هاني فحص إشارةً في غاية الأهمية عن ظروف مقتل الرجل، حين يقول " دخل النجف من بوابة التحالف من دون أن يكون شريكاً حقيقياً لهذا التحالف بحيث يؤمّن له وضعاً أمنياً يحميه " ٠ حقاً، لقد " أطلّ السيد عبد المجيد على أهل الحكم في لندن، وانتهى به الأمر إلى حد مشاركة طوني بلير في أحد اجتماعات المؤسسة وإلقائه كلمةً في الإجتماع قبل سنة تقريباً تحدث فيها عن العراق ومستقبله "، إلاّ أن الشراكة الحقيقية، كما يبدو، هي أكثرُ غوراً في جبل الثلج من خطبة في مؤسسة خيرية، مما لم يكن السيد الخوئي معَدّاً له وإن بدا مستعداً.

في إحدى القنوات التلفزيونية البريطانية ألمحَ أحد الذين يطلّون على أوساط مافيا الفالاشا العراقية إلى أن الأجهزة السرية لنظام البعث (بقاياها في الأقل) قد تكون وراء مقتل السيد الخوئي، لكن التفاصيل التي توالتْ متلاحقةً وضعت الأمر كله في صورةٍ مختلفةٍ تماماً عن ذلك التلميح ٠

الواقع أن الشعب العراقي، في النجف، أو البصرة، أو الناصرية، أو بغداد، لن يرحّب بعملاء جدد، بعد أن أذاقه العملاءُ القدامى (زمرة صدام حسين) الأمرّين.

إلتباسُ وضعِ السيد الخوئي كان السبب الرئيسَ في مقتله، حتى قبل أن يتبين جيداً موطيء قدميه في الأرض التي غادرها قبل أحد عشر عاماً تقريباً ٠ لقد كانت مرونته و فتوّته كفيلتين بأن تجعلاه يوائمُ حاله مع حقائق نشأتْ وتجذّرت، بينما

هو غائبٌ تحت غيوم لندن الرصاصية. كان بمقدوره آنذاك أن يضع حدّاً للإلتباس، فيصون تقاليدَ المرجعية وشبابَه أيضاً.

لم يجد السيد الخوئي ' وضعاً أمنياً يحميه '، لكننا، على شاشات التلفزيون، لا نرى أحمد الجلبي إلاّ بين حرسه الشخصي، محاطاً بجنود الاحتلال، أيضاً، زيادةً في الحيطة والحذر ... ممَّ؟ وممّن؟

إنه درسُ السيد الخوئي، البليغُ والأخير، والفاجع حدَّ البكاء.

لندن ١٢ / ٤ / ٢٠٠٣

بغداد ON / OFF

في مساءٍ رائق، يوم العشرين من آذار (مارس) ٢٠٠٣، بمدينة أمستردام، افتتحت منظمة العفو الدولية مهرجانها السينمائي الخامس، بفيلم سعد سلمان (سعد داود) بغدادON/OFF كانت القاعة الكبيرة ملأى بينما تتخاطف في رؤوس الحاضرين الصورُ الأولى للهجوم على العراق • المسرحُ مهيّأٌ تماماً لاستقبال الفيلم.

هذا الفيلم الطويل (ست وثمانون دقيقة) يُعتبرُ علامةً كبرى في مسيرة سعد سلمان الفنية، ليس فقط بسبب الطول، وإنما لأن المخرج تجاوزَ، بشكلٍ مؤكد، حدودَ الفيلم التسجيلي. كانت محاولاته المبكرة في التجاوز ذات تحقّقٍ متواضع: أفلامه عن بيروت وشبام ورامبو وعمر المغربي، وتُمّكنُ الإشارةُ هنا إلى فيلمه عن شبام•

بغدادON/OFF، ذو عقدة فنية قديمة (الطريق)، لكنها عقدة قابلة للإستعمال، ما دامت في الدنيا طرقٌ، وما دام البشر يستخدمون هذه الطرق • ومن يسلكون الطريق يريدون أن يصلوا، هذا هو المنطق السائد، سواءٌ في هذا الطريق إلى قندهار أو الطريق إلى بغداد. لكن الوصول إلى بغداد مستحيلٌ. إذاً نحن في وضعٍ مثل (موت معلن). سعد سلمان يعرف أنه لن يصل حتماً، ونحن معه نعرف ذلك، لكننا سنظل مشدودين إلى رحلة العبث الطويلة ذات التضاريس الموجِعة.

ثلاثة عناصر كان لها الدور الحاسم في إنجاح العمل: البشر، الطبيعة، صوت السائق.

الناس في الفيلم، بالرغم من عنادهم، مكبّلون بدائرة المأساة التي لا مثيل لها: المخيمات وفجائع الذاكرة، حيث أغنيةُ الفرح ذاتها تنضح مرارةً ودمعاً ومفارقةً (الفتاة التي غنّتْ أغنية حب مصرية).

والطبيعة كان لها دورها في جلاء استحالة الوصول: جبالٌ تتلوها جبالٌ...

السائق ذو الصوت العميق حقاً، يشير إلى معالم الطريق، وفي الوقت ذاته يشير إلى معالم الحالة المستعصية والتاريخ والسياسة، في نبرةٍ من سخريةٍ مريرة. إنه فيلسوف وراء مِقْوَدِ السيارة.

في الفيلم لَقطاتٌ أعتبرُها شبه درسٍ في السينما الذكية، منها نحلُ العسل في أغلفة القنابل، والأطفالُ الذين يأكلون من صحن البنت الضاحكة، والرجلُ الذي صُلِمَتْ إحدى أذنيه.

إنه لَفيلمٌ قاسٍ، شديدُ الوطأةِ، لكن ما يحمله صوتُ السائق من رنّةِ دعابةٍ مستسرّةٍ، عالجَ هذه القسوةَ بنجاحٍ مرموق.

لندن ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٣

أوراقُ التينِ اليابسةُ

الصيارفة المطلوبون من الشرطة الدولية، هؤلاء الذين قال الجواهري عن واحدهم " وتَوَقَّ ذاكَ الصيرفيَّ الحاسبا "، ومُدّعو الدين الذين قال أبو العلاء عنهم إنهم " يُسَبِّحونَ وباتوا في الخَنا سُبُحا "، والقَتَلةُ البعثيون المستعدون للخيانة منذ نعومة أظفارهم (هل كانت ناعمةً يوماً ما؟) ... هؤلاء جميعاً قدّموا أوراقَ التين، وإنْ كانت يابسةً، كي يتستّر بها الاحتلال الماثلُ. والفاجعُ في الأمر أن طِماحهم الأدنى هو في ادّعاء أنهم، هم، مَن يُضادّونَ النظامَ، وبالتالي يكونون، هم، المؤهلين لإدارة البلد، غداةَ ينتهي الاحتلال من عمليات " التهدئة ". حُكمُ الأتباعِ هو طِماحُهمُ الأعلى.

لكن حُكمَ بلدٍ مثل العراق ليس بالأمر الهيِّن، أعني أنه لا يمتُّ بصلةٍ إلى إدارة مصرف، أو إلقاءِ موعظة، أو بناء غرفةِ تعذيب؛ لقد تعلّمَ صدام حسينٌ الأسماءَ كلَّها، القريبةَ من هذا، ولم يُفلِحْ في أن يسوسَ البلد سياسةً، وهاهوذا الضحيةُ الأولى للمنطقِ الخطأِ الذي كلّفَ العراقَ استقلالَه.

جاء صدام حسين إلى الحكم، كما يحلو للصيارفة ومدّعي الدين والقتلة البعثيين أن يجيئوا الآن: بالقطار الأميركي ذاته. لقد قفز العِلْجُ من جدار السفارة الأميركية ببغداد مع ثُلّةِ متآمريه، واعتقل رئيسَ الجمهورية آنذاك عبد الرحمن عارف، مفتتحاً أشدَّ العهودِ حُلكةً في تاريخ العراق، بإطلاقٍ. لكن تلك الأيام كانت أيامَ الحرب الباردة، حين كان الأميركيون محتاجين إلى جلادٍ ينفذ أوامرهم، ويحكم إنابةً.

الآن اختلفَ الأمرُ:

الأميركيون يحتلّون البلدَ احتلالاً مباشراً، وهكذا فهم بغير حاجةٍ إلى عميلٍ يحكم بالإنابةِ . سوف يقيمون إدارتهم، ويفتحون فروعاً لمصارفهم، وجامعاتهم،

وبعثاتهم التبشيرية، مستخدمين وسطاءَ في هيأةِ أدلاّء ومترجمين وقُفاةِ أثرٍ ٠٠٠ سوف يطوِّرون الإدارةَ القائمةَ لتكون على صورةٍ ما من إدارتهم، ويمضون بالأمر قُدُماً معتمدين على سلاحهم أولاً، وعلى الله الموفِّقِ ثانياً، وعلى صبر العراقيين الفريدِ ثالثاً ٠

المحتلّ لا يتعامل مع العميل٠

المحتلّ يأمرُ العميلَ ويستخدمه ٠

لكن على المحتل، باعتباره سلطةً، أن يتعامل مع من يحتلّهم، أي أن يتعامل مع الناس، مباشرةً ٠ هكذا تنتهي موضوعة العميل وظيفياً؛ وفي هذا جانبٌ إيجابيّ، فالعميلُ أشدُّ قسوةً على الناس من الأصيل (وقد أثبتَ صدام حسين هذا)، ثم أن على الأصيل أن يقدم حسابه – بعد أن يستتبَّ له الأمرُ – إلى هيئات بلده التمثيلية، وإلى هيئاتٍ دوليةٍ معينة، ولهذا لايُعتبَرُ حكمُه مطلَقاً، بينما يمضي الوهمُ بالعميل حتى أبخرةِ الألوهيةِ ٠

سوف تكون المعادلةُ مُحْكَمةً:

الناسُ من جانبٍ ٠ و **المحتلّ** من جانبٍ ٠

أليس هذا بدءَ التحريرِ؟

لندن ٢٥ / ٣ / ٢٠٠٣

عن العراق الذي لم يكنْ

في ما يتعلّق بي، أنا المدعوّ باسمي، المثابرِ على حِرفتي (كتابة الشعر)، عرفتُ العراقَ على صورتين لا ثالثةَ لهما:

الأولى تتألّقُ بألوان الطفولة، وبما تمنحه الطفولةُ من سماواتٍ حرّةٍ، ومَشاهدَ لن تضاهى بالرغم من مَرِّ السنين ومرارتها ٠٠٠

البصرة والنخل والأنهار والجداول والحيوان والطير والناس ٠

لقد ظلَّ العراقُ مسمّىً بهذه الأسماءِ؛ ولأنّ هذه الأسماءَ لا تمّحي بطبيعتها، ظلَّ ذلك العراق قائماً في تكويني الجسديّ والروحيّ، مثل كنزٍ لا يفنى ٠

تنقّلتُ كثيراً وطويلاً، وحاولتُ الإقامةَ في الأرَضينَ، هنا وهناك وهنالك، إلاّ أنّ إقامتي الأثيرةَ العميقةَ كانت في مَشاهدِ الطفولة تلك ٠

الثانية هي صورةُ العراق شعراً، العراق الذي أحاوره وأحاولُهُ في النَّصّ الشعريّ ٠ في التوصيف الأول والأوليّ أنتفعُ كثيراً من الصورة الأولى، وأضعُها أساساً تتبنى عليه الإشكالاتُ والتناقضاتُ اللاحقةُ، أي أن الصورة الأولى تمهِّدُ السبيلَ أمام الصورة الثانية، وتقدمُ مشروعيةَ البناءِ اللاحقِ ٠

العراقُ الشعريّ، لديّ، ليس عراقاً شاعرياً، أعني أنه ليس في منتهى الجمال، لكنه عراقٌ حيٌّ يضجُّ بالحركة والتناقض والمرارة والإحتمالات ٠ وقد انتفعتُ، فنيّاً، من هذا العراق، في رحلتي المديدة نسبيّاً ٠إذْ تعلمتُ من دُرْبَتي في معالجة أمرِهِ كيف أعالجُ الظواهرَ والموضوعاتِ في أماكنَ وبلدانٍ أخرى ٠

إذاً، العراقُ لديّ، في نهاية الأمرِ، هو عراقٌ فنّيٌّ .

إنه عراقٌ لم يكنْ إلاّ مجسَّداً في العمل الفني (القصيدة) .

العراق الحاليّ زائلٌ، أو في حُكْمِ الزوال ...

تُرى، هل يَهِلُّ عراقٌ آخرُ؟

وهل تمتدُّ أمامي فُسحةُ العمرِ لأحاورَ ذلك العراقَ الآخرَ وأحاولَه؟

لندن ١٦ / ٣ / ٢٠٠٣

صواريخُ القيامة

قد يكون ما أكتبه الآن، غيرَ ذي معنىً، بعد حينٍ أقلّ من لمح البصر (نسبيةُ الزمانِ مقلقةٌ هذه الأيام)، لكن الرأي يظلّ قائمَ الضرورة، حتى وإن كان غيرَ مُجْدٍ، مقايسةً بسواه من وسائل التعبير عن السياسة.

وممّا يزيدُ من وهَن الرأي (رأيي) أنه لا يدّعي تعبيراً عن غير قائله؛ فهجراتُ نصف القرن التي بدأتْ أواخرَ الخمسينيات، وتعاظمت أوائلَ الستينيات، وتفاقمتْ أواخرَ السبعينيات، جعلت الشتات يحمل معنىً ليس ديموغرافياً حصراً، معنىً يتصل بمفاهيمية ملتبسة، بل مبتذلةٍ أحياناً.

من هنا تتأتّى صعوبةُ ما كُلِّفتُه.

أهي مساحةٌ للتأمل، إذاً؟

❖ ❖ ❖

لا أريد المرور حتى سريعاً على العَمْد والابتسار اللذين رُسمتْ بموجبهما خريطة الشرق الأوسط بين نهايتي الحربين العالميتين، الأولى والثانية، اريد فقط أن أقول إننا نضرس الآن، لأن آباءنا أكلوا الحصرم؛ لكن المرارة المحنظلة ليست في أننا نضرس، بل في أننا لا نعترف بأننا نضرس؛ وإلاّ فكيف نفسر أن كياناً مثل العراق، غير قوميّ، تاريخاً وتركيبةً، يُحشَر حشراً في قالبٍ ليس من الفولاذية حتى يستعصي على التفكك؟

المهزوم الذي حُرِم نفطَ كركوك وبابا كركر في الحرب العالمية الأولى ينبش اليومَ خرائطه ومواثيقه ووثائقه العتيقة كي يُرَدَّ إليه ما حُرِمَه.

سوى هذا كثيرٌ، حدَّ اللعنة...

❖ ❖ ❖

سفينةٌ حربية بريطانية راسية في مياه شط العرب، أوائلَ العشرينيات (العراق تحت الاحتلال البريطاني)، تدعو المسّ بيل، السيدَ طالب النقيب مرشحَ العراقيين للمنصب الأول، إلى حفل استقبال على ظهر السفينة،يلبي النقيب الدعوة، يصعد إلى السفينة بكامل مهابته، ليفاجأ باعتقاله، ونفيه في ما بعدُ، بأمرٍ من المسّ بيل، التي ستأتي بأحد أعوان لورنس (العرب)، وتنصِّبه ملكاً، بعد أن قُمعتْ ثورة العشرين، وأُعدمَ قادتها واغتيلوا وسُجنوا

وأبعدوا إلى المنافي والمَعازل ٠

قُصفت القرى، وشُرِّدَ أهلها، ثمَّ شكّل البريطانيون جيشاً محليّاً مَهَمّتُه الأولى:**القَمع** ٠

❖ ❖ ❖

في أوائل شباط ٢٠٠٣. تكتب الـ ' ريفيو ' التي تصدر ملحقاً من مَلاحق صحيفة ' الغارديان ' البريطانية، كل سبت، مقالاً تذكر فيه بالنصّ:

المخابرات المركزية الأميركية هي التي ساعدت في ١٩٦٣ حزب البعث العراقي في تدبير الإنقلاب على الجنرال الوطني عبد الكريم قاسم، الذي أمَّمَ شركة نفط العراق المملوكة من الغرب، وأخرجَ البلاد من حلف بغداد المعادي للسوفييت ٠ وقد تلت ذلك مجازرُ شنيعةٌ ٠

❖ ❖ ❖

جان دمّو الشاعر، ذو كراس ' أسمال ' الوحيد، أقرأ له في أحد مواقع الإنترنت العربية، ' تصريحاً ' يقول فيه إن العراق يحتاج إلى **رجّة** ٠

جان دمّو، الذي لا يكاد يفيق، يشعر في مَنْساه الأسترالي، بأنه والعراق يحتاجان إلى رجّة ٠

متفقٌ معه، أنا، تماماً ٠

لكنّ **صاروخ القيامة** ليس ساعةً منبِّهةً ٠

❖ ❖ ❖

سوف ينطلق صاروخُ القيامةِ وشيكاً، إنْ لم يكن انطلقَ، بالفعل، الآن ٠

وسوف يكمل **بعثُ العراق** المختطَفُ أو الأصيلُ، مسيرته (ثلاثين عاماً من الهول)، ليسلِّمَ البلاد، إلى المستعمِرِ الذي جاء به، وليكون في منتهى السعادة لأنّ ثلاثةً أو أربعةً من ضباطه ظلوا في السلطة يعِينون الاحتلال، وييسِّرون مساعيه ٠

نحن، العراقيين، سنظل أوفياء إلى حلمنا الأثير ٠
إلى حقِّنا، مثل أي شعبٍ، في وطنٍ حرٍّ سيِّدٍ ٠
لن نستقبل صاروخَ القيامةِ بالزهور ٠
هذه ليست من عاداتنا ٠ نحن نستقبل ما نحبّ بالملبَّس والحلوى والحنطة النابتة وشموع الصواني٠
وما أبعدَ هذه، كلَّها، عن الصاروخ!

❖ ❖ ❖

الاحتلالُ آت، لا ريبَ فيه ٠
لكننا، مثل كلِّ شعوب الأرض، سنقاوم الاحتلال.
حركة تحررٍ وطنيَ عراقية
إنها أفقنا المفتوح ٠٠٠

لندن ٢٣ / ٢ / ٢٠٠٣

مثقفو الـ C.I.A العراقيون

منذ حرب الخليج الثانية (غزو الكويت)، بدأ الإنخراطُ الأول لمثقفين عراقيين، في الجهد الإعلامي الأميركي المتمثلِ في صحيفةٍ كـ' المؤتمر ' اللندنية، أو في إذاعةٍ كتلك التي يتولى بعضَ شأنها ابراهيم الزبيدي، وتبثّ برامجها من شبه الجزيرة العربية، والأخرى التي يضطلع كامران قرداغي بمسؤولية فيها، وتبثّ برامجها من وسط أوربا (الحرة)، من العاصمة التشيكية براغ تحديداً؛ إضافةً إلى عدد من مراكز ' البحث ' وجمع المعلومات، والجمعيات، والتجمعات السياسية والدينية، بل الأدبية (مجلة المسلّة مثلاً)٠

والحقّ يقال إن معظم المثقفين العراقيين المنخرطين في أنشطة الـC.I.A ليسوا ذوي أهميةٍ في الجسم الثقافي الوطني العراقي، حتى من نصّبَ نفسه أميراً على العراق وآمراً مثل كنعان مكية يظلُّ كاتباً غير ذي شأنٍ في البانوراما العريضة للثقافة العراقية٠ كما أن العاملين العراقيين في صحافة المخابرات المركزية الأميركية يصنَّفون متقاعدين أو فاشلين إبداعياً على العموم، وربما كان الحصول على الأجر دافعاً أساساً لهم في العمل، وهو أمرٌ مفهوم ٠

لكن على المرء ألاّ ينسى أن عدداً من هؤلاء باعوا أنفسهم إلى الشيطان حقاً، وحصلوا على مغانمَ أعلى بكثيرٍ مما يحصل عليه المُياومون البؤساء.

في التاريخ الإجتماعي/ السياسي للثقافة العراقية، منذ الاحتلال البريطاني للعراق، برزت ظاهرة المثقف المتعاون، أعني المتعاون مع المحتلين، لكن معظم هؤلاء المتعاونين جاؤوا مع الهاشميين وقوات الاحتلال من بلاد الشام، ولم يكونوا عراقيين، باستثناء جميل صدقي الزهاوي الذي وضع نفسه إزاء الرصافي؛ لكن الشعب العراقي اختار الرصافي شاعراً.

إن ما نشهده الآن من تعاون مثقفين عراقيين مع أجهزة المخابرات الأميركية، لا يختلف في جوهره عن تلك الأيام:

المتعاونون الآن، فقدوا، مع الزمن، الإحساسَ بالأرض الأولى، واكتسبوا جنسياتٍ أخرى، فلم يعودوا قانونياً مواطنين عراقيين، ممّا سهّلَ عليهم الإنسلاخَ، مع أن اكتساب جنسيةٍ أخرى ليس مشروطاً بالإنسلاخ، وفي المهجر من العراقيين ملايينُ لم يفكروا يوماً في التعاون مع المخابرات المركزية الأميركية، وإن كانوا يحملون أوراق جنسيةٍ أخرى.

لست أدري كيفَ سيتصرف هؤلاء حين يعودون إلى العراق (إنْ عادوا)، فالإحتلالُ، أي احتلال، ليس أبدياً البتة، وليس من مصلحتهم الشخصية أن ينظر إليهم الناسُ باعتبارهم أدواتٍ للاحتلال.

لندن ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٣

يومٌ في منتهى الغرابة

أمس، وهو الثلاثون من آذار (مارس)، كان يوماً في منتهى الغرابة، ليس لأنه اليوم العاشر من الحرب، بل لأني استقبلتُ فيه، بمنزلي الريفي، قوماً عجيبين حدّ التوهم أنهم جاؤوا من كوكبٍ آخر:

كانوا فريقاً فنياً متكاملاً، مكلّفين من ' بيت الشعر ' الأميركي في نيويورك، بتصوير نهارٍ من حياتي في منتبَذي بالريف الإنجليزي ·

قرأت قصائد بالعربية والإنجليزية (الإنجليزية أكثر)، وتوجهتُ برسالةٍ إلى زملائي الشعراء الأميركيين الذين يواصلون حملةً، **أكثر من الشعراء العراقيين،** ضد الحرب ·

هؤلاء الشعراء الأميركيون يفتتحون اجتماعاتهم وتجمعاتهم وتظاهراتهم بقصيدتي America , America، مرتّلةً أو مغنّاةً مع القيثار، بينما ينهال عليّ، هنا، كتَبةُ الـ C.I.A العراقيون بالشتائم· مفارقةٌ للتاريخ!

اكتملَ العملُ الفني، ولسوف يرسَل إلى ' بيت الشعر ' في نيويورك، ليعرَضَ في التظاهرة الشعرية هناك بين العاشر والرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) الجاري· **تظاهرة ضد الحرب.**

أردتُ أن أقول تلك القولةَ البدَهيّةَ أكثر من اللازم، وهي أن الشعراء ينبغي أن يسمعوا صوت الشعر، ليؤسسوا عليه.

منذ والت ويتمان انفصلَ الشاعرُ الأميركي عن الإدارة وأولوياتها·

إن أميركا قارةٌ، لا إدارةٌ.

المُشْكِلُ في كتبة الـ C.I.A من أصحابنا أنهم اختاروا الإدارةَ، لا القارةَ؛ الجنرال لا الشاعر!

هنيئاً لهم إذاً ···

لندن ٣١ / ٣ / ٢٠٠٣

" طـريق الشـعب" ... أسبوعيّةً

منـذ تسـارُعِ الأحـداث، مـع بدايات عامنـا هـذا، رأيتُ أن علـى ' طريـق الشـعب ' واجباً لا يدانيـه واجبٌ: أن تصدر أسبوعيةً، بنصف عدد صفحاتها؛ وقـد أوصلتُ رأيي هذا إلى من قد يأخذ به أو لا يأخذ، فالمعنيون بإعلام

الحزب الشيوعي العراقي أدرى بشعابهم مني، تأكيداً.

صباح يومي هذا، أشعر بالسعادة:

تلقّيت رسالةً من منظمة الحزب هنا في لندن، تقول بأن الجريدة سوف تصدر أسبوعيةً، وبأن علينا أن نعِين ونستعين.

إن ' طريـق الشـعب ' ليسـت صحيفـةً (بمعنـى الدخـول في سـياق التسـويق والتسويغ)، لكنها مؤشِّـرُ ضميرٍ وطنيٍّ؛ وهي تظلُّ مطلوبةً، حتى لو صدرتْ مرةً كل ثلاثة شهور.

وأنـا الـذي عبرتُ إلـى ' طريـق الشـعب' قادمـاً من ' اتحـاد الشـعب ' الأولـى، في الشيخ عمر، أشعر بمسؤولية خاصّة، بل فرديّـة، إزاء الجريدة ...

وحين أعود إلى بلدي (المحتلّ) قريباً، سوف أطلُّ على الجريـدة، كعهدي على الدوام، ولسوف أكتب فيها أسبوعياً، ثم يومياً ...

سيكون الشأن الثقافي، المتّصل بالإبداع، اهتمامي الأول.

السياسة معقدة، لكن الفن أكثر تعقيداً، وماذا في ذلك؟

ألم يكن طريق ' طريق الشعب' في منتهى الوعورة؟

بلى ... لكنه كان في منتهى الجمال أيضاً!

لندن ١٥ / ٧ / ٢٠٠٣

مائة عامٍ من الاستعمار

لم يتمتع العراقيون طويلاً بنشوة زوال الطاغوت الذي أثخنَ أجسادَهم وأرواحَهم بالجراح، وأثخنَ أرضَ العراق بالمقابر والسموم، في الأعوام الثلاثين المدوّنة عنواناً عريضاً للجريمة على امتداد تاريخ البلاد بإطلاقٍ.

أقول: لم يتمتع العراقيون طويلاً حتى بالوهم؛ إذ بعد التاسع من نيسان بشهرٍ واحد تقريباً، أعلنَ مجلس الأمن الدولي أن العراق بلدٌ محتلٌّ تتولّى المسؤوليةَ فيه القوّاتُ الأميركية والبريطانية.

لقد شُطِبَ البلد، Deleted، بلغة الكومبيوتر، ولم يعد عضواً في الأمم المتحدة أو جامعة الدول العربية أو أي هيئة سواء كانت دولية أو إقليمية أو عربية؛ أمّا الحديث عن المستقبل السياسي المنظور فلا يزال يدور في حدود توليفةٍ محليةٍ تسدي النصح إلى المحتلين.

وعلى غير المعهود بعد انتهاء الحروب، لم يبدأ التخفيفُ من عديد القوّات المحتلة، وإنما جرى تدعيمُ هذه القوات بوحداتٍ جديدةٍ، وكان استتبابُ الأمن والنظام هو المبرر المعلَن لهذا التدعيم.

وفي هذه الظروف ظلت مسألة النفط وعودته إلى الأسواق الهاجسَ الأكثر إلحاحاً من سواها، والأمرُ مفهومٌ.

❖ ❖ ❖

من حقّ المرء أن يشعر بنوعٍ من الإحباط إزاء الأداء السياسي / الثقافي للنخبة العراقية الطافية على السطح، فهذه ' النخبة ' في توصيفها الأكثر اعتدالاً، هي وهميّةٌ حقّاً: باحثٌ بلا كتاب. ناقدٌ بلا كتاب. شاعرٌ تجاوزَ السبعين ولم ينشر من المَتْن الشعري ما يتجاوز سبعين صفحةً. ' قائد' حزبٍ بلا حزب. منظمة حقوق إنسان ظلّتْ تقدم تقاريرها إلى أجهزة صدام حسين. ' يساريّ' تعتمده أجهزةُ البلد المضيف عيناً لها ... إلخ.

ولأنّ الاحتلال يعرف ما يريد

ولتوهّمه أننا نجهل ما يريد

استقبلَ، لكنْ (بحفاوةٍ متحفِّظة)، متطوِّعي تقديمِ الخدماتِ، من هؤلاء، وفضّلَ عليهم عملاءه الذين أعدّهم منذ زمانٍ في بلد ' المتروبول'.

جوني أبو زيد، إذاً، لا وفيق السامرائي.

وإياد علاّوي، لا فالح عبد الجبار أو مهدي الحافظ.

❖ ❖ ❖

الحضارة الغربية (أوربا و أميركا) الآن، قائمةٌ على استهلاك الطاقة، طاقة أمِّنا الأرض: البترول.

ولأنّ البترول آيلٌ إلى الزوال، بعد مائة عامٍ، فإن إدامة الحضارة المتسيدة تقتضي السيطرة على الموارد البترولية سيطرةً كاملةً، حتى التوصّل إلى الطاقة البديلة.

من هنا، سيدوم استعمار العراق، تحت واجهاتٍ شتى، قرناً كاملاً، ينتهي بنضوب آخر قطرةٍ من هذا السائل المعتصَر من كائناتٍ منقرضةٍ، آخرُها نحن...

❖ ❖ ❖

هل الصورة كالحةٌ إلى هذا الحدّ؟

هي كذلك.

إلاّ أن كل شيء قابلٌ للحراك ...

أقول هذا، وأنا مستاءٌ من الضيق الذي يشعر به متطوعون معينون إزاء ظواهرَ أوّليّةٍ، تؤشِّرُ إلى مقاومة

هذا المصير المغلق.

ترى، هل استتبابُ الأمرِ للمحتلّ، هو الهدف الآنيّ؟

إنه الهدف الآنيّ للمستعمِر طبعاً.

لكنه ليس الهدفَ الآنيَّ للعراقيّ المستعمَر.

وللذين ضعفتْ ذاكرتُهم لأسبابٍ يعرفونها هم خيراً مني، أقولُ:

ألم يكنِ الحالُ هكذا في ثورة العشرين؟

لندن ٤ /٦/ ٢٠٠٣

مجلس المحكومين

ملك العراق الأميركي، بريمر الثالث (هاشميّونا لم يتجاوزوا في العدّ الرقم 2)، نثَرَ كنانته، لا ليختار الأصلبَ مكسِراً (كما فعل الحجّاجُ)، وإنما ليختار الأوهى عوداً، والأهونَ مكسِراً، من أولئك الذين لم يجرؤ واحدٌ منهم على الخروج من غرفته المحصّنة إلى الشارع ولو أمتاراً إلاّ تحت حراسةٍ أميركية، ولم يتنقل أحدهم إلاّ بمركبةٍ أميركية مصفّحةٍ أو غير مصفّحة، ولم يستعمل أحدهم إلاّ جهاز الهاتف الأميركي النقّال، أسوةً بالمارينز، سادتهم، وأولياء نعمتهم، وحماتهم من غضب الشعب العراقي.

مجلس الحكم قال بريمر الثالث.

الحكومة قال عدنان الباججي المعيّن في هذا المنصب التافه منذ عشر سنين (كما يشاع).

مجلس المحكومين أقول أنا.

تُرى، من يعيِّنُ ذا الثمانين في محنته؟

من يقول له إن ' نادي العلوية ' هو مكانه اللائق؟

سوف يجلس في النادي، وهو ينهل، متمهلاً، كأس الويسكي، ويمسح عن جبهته عرقاً خفيفاً، ولسوف يرى النهر، قبالته، هادئاً أو دافقاً، شأنه منذ قرون ... يحمل الشجر والسمك والبشر، ماضياً بهم إلى النسيان العظيم.

لماذا يريد عدنان الباججي أن يُذْكَر؟

أعني: لماذا يريد أن يُذكَرَ مقروناً إلى هذا المستنقع السياسي؟

يقول الشاعر القديم: إن الثمانين، وبُلِّغْتَها قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمانْ

ألم يسمع شيخُنا هديرَ الشارع؟

يقال إن الجلبي كان الطائرَ الطُّعْمَ.

أهذه، إذاً، اللعبةُ؟

مجلسٌ يقدم **النصحَ والمشورةَ ... لمن؟**

كأن بريمر الثالث محتاجٌ إلى نصيحة، كأنه لايعرف القتل والقتال ...

أنت ومجلسك من صنع الاحتلال. والمقدمةُ الغلطُ تبنى عليها نتائجُ أشدُّ غلطاً. أنت ومجلسك لن تتقدما خطوةً في الديمقراطية لأنّ بريمر الثالث لا يعترف بحقّ الشعب العراقي في الإنتخاب، أمّا الهيئات المجردة من الصلاحية التي فُرِضتْ هنا وهنالك، وسُمّيَ أعضاؤها تسميةً، فهي العنوان البارز للممارسة الديمقراطية البريمريّة.

اتركْ، ايها الشيخ، هذه المهزلة المريرة.

اتركْها للضباع !

لندن ٩ / ٧ / ٢٠٠٣

تحية إلى عصام الخفاجي

الاستقالة المدوية التي أعلنها عصام الخفاجي، وغادرَ بعدها، نهائياً، جمْعَ المتعاونين مع إدارة الاحتلال، ستظل مؤشراً مبكراً، ودائماً، على إمكان مراجعة القرار والذات، في ظروفٍ تجمع بين التعقيد وبساطة القراءة في آنٍ.

كثيراً ما يشار هنا وهناك، في أوساط المتعاونين بخاصة، إلى أن الظروف التي يمرّ بها بلدنا هي ظروفٌ جديدةٌ تماماً، تستدعي طرائقَ في العمل والتعامل، جديدةً.

قد يصحّ هذا الرأي إنْ كان صادراً عن غير العارفين، ممّن لم يقرأوا تاريخ العراق القريب، ولا أقول تاريخ العالم بدءاً من القرن الثامن عشر.

أريد القول إننا في ظرفٍ كلاسيكيٍّ تماماً، جديد تماماً.

هو كلاسيكيّ بمعنى أنه استعمارٌ تقليديّ: جيوشٌ تحتلّ بلداً، لتديره مباشرةً، وتسيطر على ثرواته.

وهو جديدٌ، بمعنى أنه إعادةُ استعمارٍ، في عصرٍ لم يعد فيه الاستعمار التقليدي قائماً، أو مقبولاً، نظرياً في الأقل حتى من جانب المستعمِرين أنفسهم (تصريحات بوش وضباطه عن التحرير والحرية).

أمّا تنحية الوحش صدام حسين وطغمته التي لا يقلّ أفرادها وحشيةً عنه، فهي نتيجةٌ جانبية، لا بدّ منها، لاستكمال الاحتلال وتوطيده. أنت، على سبيل المثال، لا يمكن أن تجمع، في الهند المستعمرة،بين الحاكم العام البريطاني والمهراجا. وكان لا بدّ للبريطانيين من طرد الوالي العثماني ببغداد حين احتلوا العراق في الحرب العالمية الأولى.

وإذ يأتي حديثُ المجالس (الحاكمة _ المحكومة) فلسوف نتذكر معه، دائماً، قصص المَضابطِ والمجالس أيامَ الاحتلال البريطاني القديم، ونتذكر أيضاً العمائم واللحى وشيوخَ العشائر، والأفندية الذين جاؤوا مع جيش الاحتلال البريطاني،

ليبصموا على القوانين الجديدة، والدستور والعَلم الجديدَين (كلٌّ عن المعنى الصحيح مُحَرَّفٌ).

عصام الخفاجي، العالِم، المؤهّل لاختراقاتٍ في العلم، مرموقةٍ، وجد المحتلين يكلِّفونه شططاً:

أن يكون مترجمَهم، ودليلَهم إلى البعثيين في هذه الإدارة أو تلك. وحين رفض هذه المَهانةَ ظلَّ أسيرَ

غرفته، يسامرُ الإيميل (وهو ترفٌ في بغداد كما يبدو).

فلْتَعُدْ يا عصام إلى طلبتك وعِلْمك ...

عد إلى ضحكتك، وإلى أصدقائك في كل مكانٍ، وهم كُثُرٌ كما تعرف.

وتحيةً لك، ثانيةً!

لندن ٢٣ / ٧ / ٢٠٠٣

كيف تبدأ الأشياءُ، كيف لا تنتهي ...

في 1992، وفي باريس، و تحديداً في إحدى ضواحي ' الحزام الأحمر'، أوبرفيلييه Aubervilliers، قد كنتُ حظيتُ، فعلاً، بمسكنٍ من مساكن البلدية، وهو أمرٌ ذو شأنٍ، بعد تشرّدٍ رأيت فيه نجوم الظهر، ابتداءً من ساحة الجمهورية، وانتهاءً بالسماء السابعة في جزيرة سان لويس (المقصود بالسماء السابعة هنا غرفة الخدم المحدودب سقفها التي تبلغها بعد أن ترتقي مائةً وأربعين درَجةً – لا مصعد في المبنى –، لتكون في الطابق السابع حيث الغرفة).

جاك راليتJack Rallite عمدة أوبرفيلييه، وزير الصحة الشيوعي يوماً ما، حامي حمى الفن والفنانين، هو المبادر إلى تيسير حصولي على المسكن البلديّ.

في هذا المسكن، تلقّيت مكالمتين هاتفيتين ذواتَي شأنٍ:

الأولى، من الشارقة تبشرني، بشارةَ صباحٍ، بأنني نلتُ جائزة سلطان العويس.

الثانية، من دمشق، يدعوني فيها فخري كريم إلى أن نعمل معاً على تأسيس ' دار المدى '.

هكذا تركتُ باريس.

في دمشق كان كل شيءٍ في طراوته الأولى. تبدأ الأشياء من البداية. لكني الآن أستطيع القول إن البدايات لم تكن مربكةً. نحن قومٌ ذوو تجاريب. وهكذا مضينا في خطواتنا الأولى الأساسِ: نشر الكتب، وإصدار ' المدى ' مجلةً للثقافة الحرة.

وباعتباري رئيسَ تحريرٍ، حرصت على أن تنهج المجلة نهجاً متفتحاً، منفتحاً، غير سجاليّ. أردتُ أن تكون المجلةُ موئلاً، لا مشتبَكاً؛ فأنا ما زلت أرى أن ثقافتنا هي في مرحلة التأسيس، وأن مسؤوليتنا ستظلّ في هذه المرحلة إلى أمدٍ يطول. نحن لسنا في ترفِ السجال، بالرغم من ضرورته.

تحمّلتُ مسؤولية إصدار المجلة، حتى اضطراري إلى الإقامة في المملكة المتحدة، لأسبابٍ متّصلةٍ بوضعي الشخصيّ.

أمّا الآن، وقد زلزلت الأرضُ زلزالَها ...

وأمكَنَ لـ " المدى " أن تكون في الأرض العراقية، فإنني ما زلتُ أرى أن الفعل الثقافي، الأجدى، والأمثل،

هو الجهد المتصل بالتأسيس.

الشعب العراقي يطالبنا بخدماتٍ ثقافيةٍ.

وعلينا أن نمتثل لأمره.

لندن ٢٤ / ٧ / ٢٠٠٣

المجلس' الأعلى' لثقافة الاحتلال

بريمر الثالث، ملك العراق، الفاشل، إلاّ في قتل العراقيين، أصدرَ أمره، إلى أتباعه أساساً، من بعثيين سابقين، وشيوعيين مرتدّين، و فالاشا، وأميركيين ذوي أصولٍ، بتشكيل ' المجلس الأعلى للثقافة '؛ ربما كان دافعُ بريمر الثالث أن يُظهر أنّ له اهتماماتٍ أخرى غير قتل العراقيين، لكنّ حيثيات مجلسه الأعلى و ' شخصياته ' تؤدي بنا إلىً الإعتقاد بأن هذا المخلوق يواصل عملية القتل، قتل العراقيين، ثقافياً هذه المرّة.

بريمر الثالث لم يكتفِ باختيار أعضاء المجلس من بين المقيمين في فنادق المارينز البغدادية، غير القادرين ثقافياً، بل غير القادرين حتى على مغادرة غرف الفندق خوفاً من الناس، بل مضى إلى أن يضع على رؤوس هؤلاء الخانعين أساساً، ذوي العشرة آلاف دولارٍ شهرياً (سأذكر أسماءهم لاحقاً)، شخصاً معروفاً بجذوره في العالم السفليّ،

أميركيّ الجنسية، بعثياً سابقاً ...

والحقّ يقال إن هذا المجلس ' الأعلى ' خيّبَ، منذ اللحظة الأولى، آمالَ السيد بريمر في التضليل الثقافي، إذ أن أعضاء المجلس، وهم أساساً لصوصٌ محترفون من خريجي الجهات الأمنية في الشرق والغرب، أعلنوا أن من مهماتهم الأولى، والأشد إلحاحاً، الإتصال بالجهات الدولية المانحة، بُغْيةَ تمويلٍ ما لإعادة المثقفين العراقيين إلى بلدهم بعد طول تغرُّبٍ!

عجباً ...

تُرى، هل تأكدَ هؤلاء من أن المثقفين العراقيين يرفضون العودة إلى بلادهم، بالطائرات الحربية الأميركية، كما فعلوا هم؟ (سأذكر لاحقاً أسماء من حملتهم طائرات الحرب الأميركية إلى العراق) ...

أيّ استهانة بالموقف الشجاع، التاريخي، للمثقفين العراقيين ضد الدكتاتورية، حين يُحَجّمُ إلى تذكرة طائرة؟

وأيّ إهانة توجّهُ إلى هؤلاء المثقفين، آنَ ترتبط العودةُ إلى الوطن المحتلّ بموافقة عملاء الاحتلال، أعضاءِ

' المجلس الأعلى للثقافة '!

❖ ❖ ❖

الاحتلال، يريد، عن طريق عملائه، فرضَ مقتضياته؛ سياسياً، في الإجراءات المعلومة التي لا تتعدى التغطية المحلية.

وثقافياً، في إجراءاتِ طمسٍ للثقافة الوطنية، وتغييبٍ لتاريخها الحيّ النابض المستمرّ.

وفي مواجهة ' المجلس الأعلى' لثقافة الاحتلال، بمقدور مثقفي العراق، دفاعاً عن شرف الثقافة والتاريخ الوطني،

أن يؤسسوا، اليومَ، وبالصوت العالي، ' المجلس الأعلى للثقافة الوطنية '.

لندن ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٣

ألا مِن مِرآةٍ!

بريطانيون (ذوو أصلٍ عراقيّ)، يحبون الكتابة باللغة العربية، ربما لأنهم لا يحسنون الكتابة بالإنجليزية، لغة بلادهم، المملكة المتحدة، التي أقسموا لها، ولجلالة ملكتها إليزابث الثانية، يمين الولاء؛ الأمرُ ليس معيباً إلى هذا الحدّ، فالأميركيون، مثلاً، يكتبون باللغة الإنجليزية، لا بإحدى لغات الهنود الحمر، كما أن بين الأميركيين من يكتبون بالإسبانية أو الصينية ··· إلخ.

أقول هذا، مع أني لو لم أستطع أن أقرأ وأكتب بلغة بلادي، لسمّاني الناسُ، عن حقٍّ، أمّيّاً.

لكنّ ثمّت من يردد: **أمّيٌّ مخلصٌ خيرٌ من مثقفٍ هدّام**، وأنا أحمدُ لهؤلاء البريطانيين ذوي الأصل العراقي إخلاصهم، وإنْ لم أحمد لهم أمّيّتَهم، شأني في هذا شأن الناس.

لنتجاوزْ، أمرَ اللغة، فهي قدرةٌ ومهارةٌ وتكوين، ولْندخلْ باباً آخر:

لِمَ لا يكتب هؤلاء عن بلادهم، المملكة المتحدة، إيجاباً أو سلباً؟

لِم لايتحدثون عن مفاخرها وثقافتها وجيوشها وتاريخها العريق العريض وحاضرها الزاهي؟

لِمَ لا يقولون فيها، ولو باللغة العربية، كلمةَ حقٍّ، بينما لايكلّون ولا يملّون، في الحديث عن بلدٍ آخرَ ··· ناءٍ، مشتومٍ، هو العراق؟

يا لَفتنة اللغة!

إنها طاغيةٌ إلى حدٍّ تُنسي فيه المرءَ بلاده ···

لكنّ للناس حقّ التعبير المطلق عن آرائهم، سواءٌ ما اتصلَ منها بهذا البلد أم لم يتّصلْ، والناسُ – كما يقال – سواسيةٌ (كأسنان المشط أو سمك القرش)؛ لا

أدري لذِكر سمك القرش هنا سبباً، إلاّ أني أحبّ أن أستطرد قليلاً هنا، لأقول إن سمك القرش يثيره الدمُ المسفوحُ ويجذبه، حتى لو استافه عن بُعد ···

الغريب في الأمر أن مَن عنيتهم تدفقوا مقالةً وبلاغةً (بغير لغة بلادهم) حين تشمموا الروائح البعيدة لحرب الخليج الثالثة، حتى قبل أن تندلع!

وبعد أن أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش انتهاء العمليات الحربية، أسرعَ هؤلاء بالطائرات الأميركية إلى العراق·

لكنهم لم يلتحقوا بجيش بلادهم، الجيش البريطاني، بل تعاقدوا مع الجيش الأميركي بصفة متعاونين مترجمين·

ربما لأن البصرة (حيث الجيش البريطاني) مدينةٌ موبوءةٌ، رطبةٌ، شديدة القيظ ···

وقد يكون السبب أن الجيش البريطاني لا يدفع كالأميركيين ·

لقد فضّلَ هؤلاء أن يكونوا مرتزقةً ·

لا أدري ما حُكْمُ القوانين البريطانية في مسألة المرتزقة، وأعتقدُ أن أصحابنا لا يدرون أيضاً، فهم يجهلون لغة بلادهم ···

لندن ٢٥ / ٨ / ٢٠٠٣

الطريق إلى الخراب العجيب

تحمل إحدى رواياتِ جراهام غرين المبكِّرة عنوانَ Brighton Rock، وللوهلة الأولى يتراءى للمرء أن العنوان باللغة العربية هو ' صخرة برايتن '، لكنك ستعرف بعد أن تُمَضي شوطاً في القراءة أن صخرة برايتن هي نوعٌ من الحلوى اليابسة التي عليك أن تقضمها حتى النهاية إن بدأتَ، وهكذا كان على ' بطل ' الرواية الذي ارتكب جريمةً أولى أن يمضي في سلسلةٍ من الجرائم لن تتوقفَ إلاّ بعد أن ينتهي هو فعليّاً ٠

معروفٌ أن برايتن منتجعٌ بحريٌّ شهير في المملكة المتحدة، ومعروفٌ أيضاً أن لكل منتجعٍ فنادقه ومقاصفه٠

أتذكَّرُ، هنا، أصحابنا ' الفندقيِّينَ '، الذين نظّموا، ممَوَّلِينَ، مأمورينَ، اجتماعينِ في فندقين لندنيينِ، هما: الهيلتون متروبوليتان، ونوفوتيل، قُبَيلَ احتلال العراق، بُغْيةَ تلفيق غطاءٍ محليٍّ لعملية الاحتلال الوشيكة آنذاك، وإنْ لم تكن لهذا التلفيق حتى قيمةُ ورقةِ التين، بالمعايير السياسية الحقيقية ٠

تُرى، كيف يرى أصحابُنا ' الفندقيّون' الأمورَ الآن؟

ألم يقتنعوا حتى اليوم بأن مسار الأمور لن تقتنع بجدواه دجاجةٌ؟

ألا يشعرون بفداحة ما ارتكبوه حتى بحقّ أنفسهم في الأقلّ؟

أمْ أنهم سيمضون ماضغين صخرةَ برايتن حتى النهاية المرة؟

أتساءلُ هكذا، لأنّ المحتلين ذواتهم صاروا يتساءلون عن إمكان ما لمعالجة الورطة التاريخية التي سُمِّروا إلى خشبتها، بعد أن سمعوا نصيحةً ' الفندقيينَ ' القائلة بأن الشعب العراقي سوف يستقبل جيوش الاحتلال بالورود٠

مؤلمٌ أن تنتفع حفنةٌ من ' الفندقيينَ ' بحفنةٍ من الدولارات، بينما يُسحَقُ الشعبُ بالجزمة والفاقة ٠

مؤلم أن تنهار البنية الإجتماعية /الاقتصادية/ السياسية، هذا الإنهيارَ الشنيعَ، بينما يتسلّى ' الفندقيون'، ويريدون أن يتسلّى الناس أيضاً، بألاعيب بريمر الثالث، ملك العراق، ألاعيب: **مجلس المحكومين**، وأخيراً،

مجلس المُعيْنيْنَ (سُمِّيَ مجلس وزراء)٠

ما معنى مجلس وزراء بلا دولة؟

ما معنى وزير خارجية آنَ لا كيان؟

وماذا تُرى بحر العلوم الإبن فاعلاً بوزارة النفط؟ الحقول تحت سيطرة قوات الاحتلال منذ الأيام الأولى، والأميركيون يتولّون بيع النفط في الأسواق العالمية، والعائدات تُوْدَعُ في مصرف أميركيّ ٠٠٠

ولْيُقَسْ ما لم يُقَلْ كما يقول النُّحاة ٠

سيأتينا جنودٌ جددٌ، من دولٍ جديدة٠

ستدفع الدولُ الجديدة نفقاتِ جنودها الذين يحتلّون أرضنا ٠

أمّا نحن، فقد بدأنا ندفع من دمنا ٠٠٠

وسنظلّ ندفع، مرغمينَ، ماضينَ في الطريق إلى الخراب العجيب؛

ماضغينَ ' صخرة برايتن ' حتى النهاية ٠

لندن ٦/٩ /٢٠٠٣

جلال الطالباني وقّعَ وثيقة الإستسلام

يوم دخل الجنرال تومي فرانكس بغداد، التاسع من نيسان هذا العام ٢٠٠٣، لم يجد عراقياً واحداً، عسكرياً كان أم مدنياً، مستعداً لتوقيع وثيقة استسلام بغداد؛ ربما كان الأمر مصادفةً محضاً، وربما لم يمنح بوش الإبنُ، صدام حسين، ما مُنِحَه الطاغيةُ من لدن بوش الأب، وإلاّ كان أرسل أحد ضباطه، أو جاء هو بنفسه، إلى خيمة مثل ' خيمة سفوان '، ليوقّع الوثيقة، بيدٍ ثابتة، مدربة على قتل العراقيين أوّلاً.

المثير في الأمر، أن تومي فرانكس لم يدخل بغداد، على صهوة جواد أبلقَ، شأن الفاتحين قبله، لكنه أرسل دبابةً ورافعةً، وأجهزة تلفزيون، ليهدم تمثالاً هو مهدومٌ أساساً في الوعي العراقي.

حدث ذلك بعد يومين من السابع من نيسان، اليوم العالمي للعميان في مفكرة الأمم المتحدة.

الآن، وبعد سبعة شهور من اجتياح بغداد (مهلة الخديج من المواليد)، يوقع جلال الطالباني وثيقة الإستسلام التي لا تشبهها وثيقةٌ على مدى التاريخ الإستعماري منذ القرن الثامن عشر.

واقع، الحال أنها ليست وثيقةً بالعُرف السائد، أي أنها بدون ملموسية مرجعية. كلّ ما فيها غائمٌ مؤجل، باستثناء البقاء الأبدي للإحتلال، باعتباره ضيفاً مقيماً إلى أبد الآبدين، متعهداً أمننا، ومتعهدين أمنه وأمانه، ومَطعمَه ومشربه.

المضحك في الأمر – شرّ البلية ما يضحك – ذلك الحديث عن الإنتخاب والحكومة وعودة السيادة. لقد صاغ بريمر الثالث وثيقته التي وقّعها جلال الطالباني، صياغةً دقيقةً، ربما أكثر من اللازم، ليقول لنا، صراحةً، إنه هو، والوبش الذي سيخلفه يوماً، لن يتيح لنا حتى الحصول على وعدٍ بانتخابات مزورة: هيئة الناخبين وعموم المنتخَبين في وثيقة بريمر الثالث، ملك العراق، هي بالتعيين الدقيق

المدقق. أمّا الحكومة الموهومة التي ستخلف ' مجلس المحكومين ' الذي تلقّى ركلةً يستحقّها، فليست سوى مجموعةٍ من العملاء ارتضت أن تكون درعاً محلياً للاحتلال.

الآن أعود إلى سؤالٍ مؤرِّق:

أي حقّ لجلال الطالباني في توقيع وثيقة الإستسلام هذه؟

إنه ليس امبراطور اليابان، ولا المارشال بيتان (في الأقل).

يقول إنه رئيس مجلس المحكومين ...

لكن هذا المجلس دائرةٌ من دوائر الاحتلال، ليس أكثر.

إذاً، أهي بصمةٌ _ فحسب _ على توقيع بريمر الثالث؟

ألا يعتقد جلال الطالباني أن هذه الوثيقة ستكون الإعلانَ الأساسَ لحربٍ أهليةٍ؟

الإحتلال يريد أن يضع العراقيين بمواجهة بعضهم:

ينصِّب مجموعة محليين مأمورين إزاء الشعب، بينما ينعم هو بأمن قواعده ومعسكراته في طول البلاد وعرضها.

السؤال الآخر:

أي حقٍّ لجلال الطالباني في العراق العربي؟

إنه _ على أي حال _ ليس شيخَ العراقيِّين ...

هل يُدفَعُ العراقُ بأكمله ثمناً للإحتفاظ بـ ' كويسنجق'؟

لندن ٢٠/١١/ ٢٠٠٣

مفـاتيح الحرب الأهلية

قد كنت أشرت في مادة سابقة إلى المخاطر الواضحة في خطة بريمر الثالث، ملك العراق، التي وقّعَ عليها جلال الطالباني باسم 'مجلس المحكومين'، ومن بين هذه المخاطر تمهيدُ السبيل إلى الحرب الأهلية.

خطة بريمر تُشْرِعُ الباب على متوازيين:

البقاء شبه الأبدي لجيوش المحتلين، وضرب العراقيين ببعضهم.

في ما يتصل بالأمر الأول (بقاء الاحتلال)، يدور الحديث عن اعتبار التواجد العسكري الراهن أمراً واقعاً، وعن احتمال تَمَوضعٍ ما في وقتٍ غير منظورٍ يتخذ شكل قواعد كبرى ثابتةٍ (خمس قواعد في الأقل)؛ وممّا يعزز هذا الرأيَ ما نشهده من تعزيزٍ متواصلٍ للقوات الأجنبية يبلغ الآلاف في كل دفعة. كل هذا يتمُّ في أجواء الحديث عن الإلغاء الكامل لفكرة الإنتخابات ذاتها، بدعاوى فارغة معروفة، من قبيل أن العراقيين غير مؤهّلين حتى الآن لممارسةٍ من هذا النوع، أو أن الإنتخابات ستأتي بنتائجَ غير مرضيّة: صعود الوطنيين والإسلاميين...

وهكذا تنَصَّبُ مجموعة من العملاء تحكم العراق وتتحكم بشعبه، نيابةً عن المحتل المباشر، وبحمايةٍ من دباباته وطائراته.

سوف تكون هذه المجموعة، الدرعَ البشري للمحتلين، الآمنينَ في قواعدهم المنتشرة على امتداد البلاد.

المتوازي الثاني الذي تنفتح عليه خطة بريمر الثالث هو وضعُ البلاد في ظروف حربٍ أهلية، ساخنة، أو غيرِ ساخنةٍ (حسب الحاجة)، ومن مستلزمات هذه الظروف إذكاءُ التمايزِ والفُرقةِ، التقريب والإبعاد، استغلال النعرات المذهبية والدينية والقومية... وصولاً إلى تمزيق النسيج الوطني للشعب العراقي باعتباره شعباً ذا خصائصَ ومصالحَ مشتركةٍ وكيانٍ متبلورٍ؛ هذا المتوازي الثاني يجعل المحتل

يحظى بمقام الضرورة، أي أنه سيكون الضمانة العليا للأمن والأمانِ وسط أناسٍ محليين متوحشين مستعدين لِحَزِّ رقاب بعضهم في أول فرصةٍ.

في رأيي أن المتوازي الثاني شرعَ يدخل مرحلة التطبيق:

عبد العزيز الحكيم هو الذي أعلن هذا، بتشكيل " القوة الضاربة "، التي ستتولّى الإغارةَ على مكامن " الخطر"، حفاظاً على سلامة أرواح المحتلين.

أوباشُ إياد علاوي والجلبي، وبقايا فيلق بدر المنحل، وعناصر خاصة من مسلّحي البارزاني والطالباني...

أعتقدُ أن قوماً كثيرين يشعرون مثلي بفداحة الخطأ، ويتمنون من أعماقهم أن يراجع الأشخاصُ الأكثرُ شعوراً بالمسؤولية

هذه الخطوةَ، قبل فوات الأوانِ.

لندن ٢٠٠٣/١٢/٤

صدام حسين في قبضة أسياده

في ذلك القبو الضيّق، ببلدة ضيقة أساساً، هي تكريت، اعتقلَ الأميركيون أحدَ أبنائهم البررة، بعد أن أباحوا له البلادَ والعبادَ، عقوداً، يميتُ من يشاء، ويحيي من يشاء، يُعزّ ويُذِلُّ، يصول ويجول في حروبٍ لم تنته إلاّ بقرار سادته إلغاءَ مهمّته، وإسنادَها إلى أبناء جددٍ من أمثال علاّوي والجلبي والباججي ...إلخ.

أنا أشعر بتوازنٍ ما الآن.

صدام حسين مسؤولٌ عن موت ولدي الوحيد، حيدر، غريباً في الفلبين.

لقد انقشعت الغيمةُ السوداءُ / الخيمةُ، التي ظلّت مرجعيةَ الممالأةِ والمناهَضة.

صار موقفُ الفرد العراقي ذا مساحةٍ لا يحددها الموقفُ من صدام حسين.

إنه لَموقفٌ ذو خيارات.

الآن صار بمقدور العراقي أن يقول: ' لا للإحتلال '، وبالصوت العالي.

صار بمقدور العراقي، الآن، أن يقول: ' لا لتنصيب عملاء جددٍ بعد صدام حسين.

العملاء (من أمثال صدام) يؤتى بهم من المجهول لينتهوا إلى المجهول: نتذكر نورييجا ...(من يتذكره؟)

وحالُنا، هذه الأيام، ليست بعيدةً عن السيناريو الأول المستمرّ.

ربما صار الطاغية، اليوم، في قاعدة باغرام بأفغانستان، أو غوانتانامو ... للاستنطاق.

قال الأميركيون إنه كان جدّ متعاونٍ معهم في التحقيق الأولي. الأمر ليس عجيباً، فالأبُ يستردّ ابنَه الضالّ.

كنت أتمنى أن يحاكم قضاةٌ عراقيون أحرارٌ، في عراقٍ حرٍّ، صدام حسين. وإلى أن يأتي ذلك اليوم سيظل الشعب العراقي، دهراً، في قبضة المحتلين، وعملائهم الذين جيءَ بهم مثل ما جيءَ بسلفهم غيرِ الصالح.

لندن ٢٠٠٣/١٢/١٤

علينا أن نتفادى الحربَ الأهلية

كنتُ أشرتُ في مادة سابقة، إلى ما أسميتُهُ مفاتيحَ الحربِ الأهليةِ، المتمثلة في تجَحْفُلِ مسلّحي الأحزابِ معَ قواتِ الاحتلال، وقيامِ هؤلاء المسلحين بعمليات اقتحامٍ ودهْمٍ واعتقالٍ، تنفيذاً لأوامر المحتلينَ الذين أخضعوا ميليشياتِ الأحزابِ المعينة إلى قيادتهم العسكرية، وكلّفوها ما عجزوا هم عنه: إخضاع الشعب العراقي إلى مشيئتهم.

لم أكنْ أعني في ما عنيتُ، أوباشَ علاّوي والجلبي الذين جيءَ بهم من وراء الحدود، إذ أنهم يُعتبَرون جزءاً من القوات الغازية، لكنني كنتُ أعني العناصرَ المسلّحةَ لأحزابٍ وتنظيماتٍ كانت ذات دورٍ بارزٍ في المقاومة المسلحة ضد نظام صدام حسين.

من المؤلم إخراجُ هذه العناصر من محيطها وتاريخها، ووضعها إزاء مهماتٍ غير لائقة بها، ولا تنسجم مع صفتها الكفاحية وامتداداتها في تاريخ العراق الوطني.

علينا أن نتفادى الحربَ الأهلية التي شرعنا نشهد بوادرَها:

القتلَ والتفجيرَ المتبادلَينِ، وإعلاءَ العصبية الطائفية والعرقية، والإحتكامَ إلى السلاح بين أبناء البلاد.

التصريحُ الأخير للسيد مسعود البارزاني، والذي يؤخَذُ في سياقه الواقعي، هو تصريحٌ في غاية الأهمية، لأنه يبيّن، واضحاً، وللمرة الأولى، بعد الاحتلال، موقفاً متشائماً حيالَ الأهداف الأميركية في ما يخصّ العراقَ بعامّةٍ، وكردستان بخاصةٍ ...

آملُ في أن يكون هذا التصريحُ مفتتَحاً لإعادةِ نظرٍ.

لندن ٢٠٠٣/١٢/١٩

خطوةٌ في الإتجاه الصحيح !

في العام ١٩٥٤، أي قبل نصف قرنٍ من هذا اليوم المعتم، في الشتاء الإنجليزي الرطب، كنت أمثِّل، على صندوق الإنتخاب، مرشحَ الجبهة الوطنية في البصرة، الدكتور فيصل السامر، أستاذي الذي صار في وزارة ١٤ تموز، وزيراً للإرشاد.

أذكرُ من بين مرشحي الجبهة، المحامي إدكار سركيس وجعفر البدر أيضاً.

في تلك الإنتخابات المباشرة، فاز عددٌ من مرشحي الجبهة الوطنية، ليكوِّنوا للمرة الأولى في تاريخ البرلمان العراقي، كتلةً برلمانيةً.

تلك الذكرى أثيرةٌ لديّ ...

كنت في المركز الإنتخابي، أمثل المرشح الدكتور فيصل السامر، وكان لكل مرشحٍ ممثلٌ يقف وراء الصندوق،

كما كان في المركز الإنتخابي حاكم تحقيق، وشرطيّ أو اثنان.

أراقبُ الناخبين يدخلون، واحداً واحداً ... يلقون بأوراقهم في الصندوق، وينصرفون، في هدوء عجيب.

لم يفُزْ من مثّلتُه.

كان الفلاحون، الفقراء، يصوتون لصالح مرشح حزب صالح جبر (حزب الأمّة الإشتراكي)، الذي صار في قاموسهم يسمى (حزب الأئمّة) ...

كأنهم لم يعرفوا أن فيصل السامر هو المدافع الحقيقي عن مصالحهم، وأكيداً أنهم لم يعرفوه مؤلفاً لأهمّ كتابٍ عن ثورة أسلافهم من أرقّاء الأرض في البصرة، أعني ' ثورة الزنج '.

أردت أن أقول إننا عرفنا الإنتخابات المباشرة، ومارسناها، بجدارةٍ عالية، قبل نصف قرنٍ من الزمان ...قبل نصف قرنٍ من هذا النهار المعتم، المثقل برطوبة الشتاء.

اليومَ، **يتكرم** علينا بريمر الثالث، ملك العراق، بأبشع عملية لتزوير الإرادة الشعبية، عملية ليس فيها من مبدأ الإنتخاب شيءٌ. الكلُّ معيَّنٌ: الهيأةُ الإنتخابيةُ، ومن سوف تختارهم. صيغة بريمر هذه أسوأ حتى من الإنتخابات غير المباشرة التي كانت الصيغة المفضلة في العهد الملكي.

السؤالُ:

أما كان ينبغي التريّثُ والتفكُّرُ قبل أن توصفَ عملية التزوير البريمرية بأنها **خطوةٌ في الإتجاه الصحيح؟**

لمَ التعجُّلُ في استخدام **الختْم؟**

لندن ٢٠٠٣/١٢/٢٣

ساعات غيفارا الأخيرة

' هـذه المـادة منتقـاةٌ مـن وثـائق سـرية للغايـة أُفـرجَ عنـها مؤخـراً في الولايـات المتحـدة الأميركية '

س.ي

٨ تشرين أول ١٩٦٧

تلقّت القوات معلومات تفيد بتواجد مجموعة من الأنصار عددها ١٧ في وادي جورو. دخل الجنود المنطقةَ وواجهوا مجموعة من ستة أنصارٍ إلى ثمانية. فتح الجنود النار وقتلوا كوبيينِ اثنين: انتونيو و أرتورو. حاولَ رامون (غيفارا)، و ويلي، الإفلات باتجاه قسم الهاون، حيث جُرح غيفارا في أسفل ربلة ساقه.

٨ تشرين أول ١٩٦٧

ابلغت فلاّحةٌ الجيشَ انها سمعت أصواتاً على امتداد ضفتي اليورو قرب البقعة التي يجري فيها بمحاذاة نهر سانت انتونيو. ولا يُعرَف ما إذا كانت هذه المرأة هي تلك التي صادفَها الأنصارُ سابقاً.

في الصباح تموضعت عدة سرايا من ' الرينجرز ' في منطقة أنصار غيفارا، واتخذت لها مواقعَ في الوادي نفسه، في كبرادا دل يورو.

حوالي الثانية عشرة بعد الظهر: وحدةٌ من فرقة الجنرال برادو، كل أفرادها تخرجوا حديثاً في معسكر تدريب القوات الخاصة الأميركي، اشتبكت مع الأنصار، قتلت اثنين، وجرحت كثيرين.

الواحدة والنصف بعد الظهر: بدأت معركة تشَي الأخيرة في كبرادا دل يورو. سيمون كوبا ' ويلي ' سرابيا وهو عامل منجم بوليفي، يقود مجموعة الثوار. تشَي خلفه، مصاباً في ساقه عدة إصابات. سرابيا يحمل شَي ويحاول إبعاده عن خط النار. إطلاق النار يستأنفُ وتسقط بيرية تشَي عن رأسه. يُجلس سرابيا تشَي على الأرض كي يتمكن من الرد على النيران. كان محاصَراً ضمن أقل من عشر ياردات،

فأخذ الرينجرز يركزون نيرانهم عليه، واخترقه رصاصٌ كثير. حاولَ تشَي مواصلة إطلاق النار، لكنه لم يستطع استخدام بندقيته بيدٍ واحدة.

أصيبَ ثانيةً في ساقه اليسرى، وسقطت بندقيته من يده، واحتُرِقَتْ ذراعه. وعندما اقترب منه جنديٌّ صاح به تشَي: 'لا تطلق النار. أنا تشَي غيفارا. قيمتي حياً أكثرُ من قيمتي ميتاً'.

انتهت المعركة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. أُخِذَ تشَي أسيراً.

تدّعي مصادرُ أخرى، أن سرابيا ألقي عليه القبض حياً، وجيء به مع تشَي، حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر أمام الكابتن برادو. امر الكابتن برادو عامل اللاسلكي لديه بأن يتصل بقيادة الفرقة في فيله جرانده مبلغاً إياهم بأسر شَي. الرسالة المشفّرة كانت: ' هلو ساتورنو، لدينا بابا؟ Pap '. ساتورنو هو رمز العقيد جواكان زنتانو، آمر الفرقة الثامنة في الجيش البوليفي، و Pap? هو رمز تشَي. لم يصدق العقيدُ النبأ، فطلبَ من الكابتن برادو تأكيد البرقية. مع التأكيد غمرت الفرحة قيادة الفرقة. وبعث العقيد زنتانو برقيةً إلى الكابتن برادو يخبره فيها بضرورة إرسال تشَي وأي أسرى آخرين، فوراً، إلى الهجيرا.

في فاله غرانده، تلقّى فليكس رودريغز رسالةً باللاسلكي: 'Pap? cansado ' ومعناها: الأب متعَبٌ.

Pap? رمزٌ للأجنبي، أي تشَي، أمّا متعَب فتعني أنه أسيرٌ أو جريح.

أربعة جنود حملوا تشي، ممدداً على بطانيةٍ، إلى الهجيرا، على مبعدة سبعة كيلومترات، أما سارابيا فقد أُرغم على السير خلف تشَي، وقد أوثقت يداه إلى ظهره. مع هبوط الظلام بالضبط وصلت المجموعة إلى الهجيرا، وحُجز الإثنان، تشَي وسارابيا، في بيت مدرسةٍ ذي غرفة واحدة. في ما بعدُ، ليلاً، جيءَ بخمسة ثوار آخرين إلى المكان. المراسلات العسكرية الرسمية تعلن كذباً أن تشي قُتل في اشتباكٍ جنوبيّ شرقيّ بوليفيا، بينما تؤكد تقارير رسمية أخرى مقتل تشي معلنةً أن الجيش يحتفظ بجثمانه. إلاّ أن القيادة العليا للجيش لم تؤكد هذا التقرير.

٩ تشرين أول ١٩٦٧

والت روستو يرسل مذكرة إلى الرئيس [الأميركي لندون جونسون] يخبره بأن البوليفيين قبضوا على تشي غيفارا، وأن الوحدة البوليفية التي تولّت الأمر كانت من الوحدات التي درّبتها الولايات المتحدة.

٩ تشرين أول ١٩٦٧ :الساعة السادسة والربع صباحاً:

فليكس رودريغز يصل بالهليكوبتر إلى الهجيرا مع العقيد جواكان زنتانو أنايا. رودريغز حمل معه جهاز إرسال ميدانياً محمولاً، قوياً، وآلة تصوير ذات مسند رباعيّ لتصوير المستندات. عاينَ، بهدوء، الموضع، في البيت المدرسي، وسجّل ما يراه، وقد وجد الحالة " فظيعة "، مع تشي ممدداً في الوسخ، يداه موثقتان إلى ظهره، وقدماه مربوطتان، لصقَ أجساد أصدقائه. كان يبدو " مثل قطعة زبالة " بشعره المتلبد، وملابسه القذرة، منتعلاً قطعتي جلد باعتبارهما حذاءين. في إحدى المقابلات صرّح رودريغز قائلاً: " أحسستُ بمشاعرٍ مختلفةٍ حين وصلتُ هنا لأول وهلة. فهاهوذا الرجل المسؤول عن قتل كثيرٍ من أبناء بلدي. وبالرغم من هذا، أحسستُ بالأسف عليه، بسبب حالته المزرية ".

شغّل رودريغز جهاز إرساله، وبعث رسالةً مشفّرةً إلى محطة الـC.I.A إمّا في البيرو أو البرازيل لتعيد إرسالها إلى المركز في لانغلي. وشرع رودريغز يصور يوميات تشي والوثائق الأخرى المستولى عليها. في ما بعد، أخذ رودريغز يقضي وقتاً في الحديث مع تشي، والتُقطتْ لهما صورٌ معاً. الصور التي التقطها رودريغز هي في عهدة وكالة المخابرات المركزية.

الساعة العاشرة قبل الظهر:

الضباط البوليفيون يواجههم السؤالُ: ماذا سيصنعون بتشي. إن مقاضاته مستبعدةٌ، لأن المحاكمة ستجعل العالم يركز الإنتباه عليه، مما يولّدُ تعاطفاً مع تشي وكوبا. تقرَّرَ وجوب إعدام شي فوراً، لكن جرى الإتفاق على أن الرواية الرسمية ستقول إنه توفي متأثراً بجراحه في المعركة. استقبل فليكس رودريغز مكالمةً من فاله غرانده تتضمن أمراً من القيادة العليا بأن ينفذ العمليتين خمسمائة وستمائة. خمسمائة هو الرمز البوليفي لتشي، وستمائة هو الأمر بقتله. أخبرَ رودريغز العقيد زنتانو بالأمر، لكن أخبره أيضاً بأن الحكومة الأميركية أصدرت تعليماتها إليه بإبقاء تشي حياً بأي ثمن. المخابرات المركزية والحكومة الأميريكيتان، كانتا هيّأتا هليكوبترات وطائرات لنقل تشي إلى بنما لاستجوابه هناك. إلاّ أن العقيد زنتانو قال إن عليه تنفيذ أوامره هو، أمّا رودريغز فقد قرر أن " يترك التاريخ يأخذ مجراه "، ويدع القضية في أيدي البوليفيين.

يدرك رودريغز أنه لايستطيع أن يتلبّث أكثر، بعد أن أخبرته معلمة المدرسة أنها سمعت عبر مذياعها خبر موت تشَي. رودريغز يدخل غرفة المدّرسة ليخبر شَي بأوامر القيادة العليا البوليفية. تشَي يفهم ويقول:

" افضل أن يتمّ الأمر هكذا ... ما كان ينبغي أبداً أن يلقى عليّ القبض حيّاً ".

يسلّم تشَي، رودريغز رسالةً إلى زوجته وإلى كاسترو، يتعانق الإثنان، ويغادر رودريغز الغرفة.

الضباط ذوو الرتب العالية في الهجيرا، كما أفادَ مصدرٌ واحدٌ، كلّفوا بتنفيذ الأمرِ نوابَ الضباط الذين اقترعوا على من سينفذ الإعدام. قُبيلَ الظهر تماماً، استقرت القرعة على العريف خاييم تيرون. يذهب تيرون إلى المدرسة ليعدم تشي. تيرون يجد تشي ملتصقاً بالحائط، ويسأله تشَي أن ينتظر دقيقةً كي يقف. يرتعب تيرون ويفرّ هارباً، لكن العقيدينِ سليج وزنتانو يأمرانه بالعودة. كان لا يزال يرتعد حين عاد إلى غرفة المدرسة، ووجّه الرصاص، بدون أن ينظر في وجه تشَي، إلى صدره وجنبه. جنود آخرون كانوا يريدون أن يطلقوا النار أيضاً، يدخلون الغرفة ويطلقون عليه النار.

جاء في رواية جون لي أندرسن أن العريف تيرون يتطوع لرمي تشَي. آخرُ ما قاله تشي لتيرون: " أنا أعرفُ أنك جئتَ تقتلني. أطلقْ. أنت ستقتل رجلاً فقط ". تيرون يطلق النار على ذراعي تشَي وساقَيه، ثم على زَوْرِهِ مالئاً رئتيه دماً.

١٤ تشرين أول ١٩٦٧ : ملحق رقم ٣ –

ثلاثة من منتسبي الشرطة الإتحادية الأرجنتينية، زاروا بدعوةٍ من الحكومة البوليفية، مقر القيادة العسكرية البوليفية في لاباز، بُغيةَ التعرُّف علَى خط تشي غيفارا وبصمات أصابعه.

"عُرضتْ أمامهم حاويةٌ معدنٌ، بها يدان مقطوعتان في محلسولٍ، هو الفورمالدهايد كما هو واضحٌ".

قارنَ الخبراءُ بصمات الأصابع مع تلك التي في السجل المدني الأرجنتيني المرقم ٣-٥٢٤-٢٧٢ الخاص بغيفارا، وكانت البصمات متطابقةً.

جنّةُ الكنّاسين

أنشدَ سيبويه:

دارٌ لِمَرْوَةَ إذ أهلي وأهلُهمُ بالكانسيّةِ ترعى اللهوَ والغزَلا

وجاء في **لسان العرب**: الكَنْسُ كَسحُ القُمامِ عن وجه الأرض. والمِكنسةُ ما كُنِسَ به، والجمعُ مكانس.

وكنِست النجومُ تكنِسُ كُنوساً: استمرّت في مجاريها ثم انصرفتْ راجعةً. يقالُ: كنَسَ أنفَه إذا حرّكه مستهزئاً.

والحقُّ أنني لم أكن معْنيّاً بخطورة المكانس، ودورها في العراق اليومَ، لو لم أقرأ تصريحاً لأحد وزراء **بريمر الثالث ملكِ العراق**، يقول فيه بالحرف الواحد: **سنحمل مكانسنا ونذهب إلى ساحة التحرير...**

قلتُ والله إن الأمور لَفي خيرٍ، فهاهوذا امرؤٌ من بلدي يخرج إلى الساحة مجاهداً، وإن امتشقَ مكنسةً!

ومضيتُ أقرأ الخبر متابعاً، فإذا بالرجل يقول إنه خارجٌ مع جَمْعِهِ **ليكنسَ** ساحة التحرير عند نُصب جواد سليم.

وأُراجِعُ الأمورَ مع نفسي، لأضعها موضعَها، فالرجل يُمضي يومه في مكاتبَ بلا كهرباء، وليس لديه مالٌ كافٍ لإصلاحِ مولِّدٍ، وأمسِ الأول عيّنَ **الملكُ** مستشاراً وغداً في وزارته... إلخ.

ليس باليدِ حيلةٌ، فلتكنْ فيها **مكنسةٌ** في الأقلّ!

❖ ❖ ❖

لم يحظَ العراقُ بحاكمٍ عادلٍ مثل حُظوته **بالملك بريمر الثالث**، فهذا المخلوق حريصٌ على أن يرى الناسَ سواسيةً

كأسنانِ المشط، أو غيدان المكنسة، لا يفرِّقُ بين جاهلٍ وعالمٍ، أو بين أجيرٍ ووزير:

كلُّكم كنّاسٌ، وكلُّكم مسؤولٌ عن مكنسته.

وعليكم، جميعاً، أن تمهدوا الطرقَ، وتفتحوها، سالكةً، نظيفةً، لتنطلق عليها دباباتُ أبرامز وعجلات الهامفي وعصابات المقاولات الكبرى والمافيا السياسية من أممٍ شتّى.

بحر العلوم الإبن يكنس الطريق أمام شركات النفط الأميركية.

الكيلاني يكنس الطريق أمام من يشترون العراقَ، بلاداً وعباداً.

المكلّف بالإعمار يكنس الطريق أمام شركات البنتاغون.

هوشيار زيباري يعيِّن مواطنةً أميركيةً متزوجةً من ضابط مخابراتٍ أميركيّ سفيرةً في واشنطن!

❖ ❖ ❖

إن الحديث المتداوَل في دوائر معينةٍ عن بناء مؤسسات دولةٍ، أو إعادة بناءٍ، فيه نوعٌ ساذجٌ من الإستغفال؛

إننا في حالةٍ استعمارية تقليدية، والدولةُ قائمةٌ، هناك، في بلد المتروبول، وهي التي تتصرّف بالمصائر، وتُصَرِّف الأمور، أمّا ما يُسمَحُ بقيامه في البلد (العراق) فليس سوى واجهاتٍ محليةٍ للوضع الاستعماري.

لندن ٢٠٠٤/١/٨

وَرْبة وبوبيان ... وقناة بَنما

ينبغـي أن تؤخـذ تصريحـات النكـرة **مضر شوكت** مـأخذَ الجـدّ (أعنـي تلـك المتعلقة بالجزيرتين الكويتيتين)، فالرجل

هو صوتُ سيِّـدهِ، والسيِّـدُ في واشنطن.

لماذا يريد الأميركيون الإستيلاء على وَربة وبوبيان؟

وهل من سابقة لمثل هذا الأمر في التاريخ الأميركي؟

في رأيي أن الأميركيين يريدون أمرَين:

الأول هـو الشـروع في عملية التمدد، انطلاقـاً من العـراق المحتـل، بُغْـيةَ تـأمينٍ أفضلَ لمصادر الطاقة، سوف يشمل، بعد الكويت، بلدانَ الخليـج والجزيـرة الأخرى. ولسـوف تُـستخدَم ذرائعُ شتى، تختلـف بـاختلاف البلـدان مـن قَـبيل القضـاء علـى قواعـد إرهـابٍ، أو تنشيـف مـوارد منظمـات إرهـابٍ، أو تعديـل حـدود، أو إقامـة نظـامٍ ديمقراطي علىٰ أنقاض أوليغاركيّات فاسـدة ... إلخ.

الثاني هـو الإستنزاف السـريع لثروة العـراق البتروليـة، فـالأميركيون يعرفـون أنهم لن يقيموا في العـراق محتلـين أكثرَ مـن نصـف قرنٍ (تقـول تسـريباتهم الأخيرة إنهم سـيظلون يحتلـون العــراق ثلاثـين عامـاً فقـط!). إن نصـف القـرن هـذا كفيـلٌ باسـتنفاد ثـروة العـراق البترولية، لكن الإستنفاد السـريع يحتـاج إلـى منـافذِ تصديـرٍ بحريةٍ أكثرَ قدرةً وعمقاً، مثل

وربة وبوبيان.

لن تخوض الولايات المتحدة حرباً.

سـوف تلجـأ إلـى أسـاليب أخـرى: مناوشـات محـدودة. ضغـوط دبلوماسـية واقتصادية. وضْـعُ العراقيين بمواجهة الكويتيين، كلُّ هـذا بُـغيةَ الوصول إلـى الهدف النهائي الذي قد يتّخذ صورةَ مراضاةٍ: الإستئجار مثلاً.

وللولايات المتحدة تجربةٌ عريقة في هذا المَنْشَط:

معروفٌ أن حكومة كولومبيا منحت المهندس الفرنسي فرديناند دلسبس (مهندس قناة السويس) امتيازاً لشقّ قناة عبر برزخ بنما (التابع لكولومبيا)، وقد بدأ العمل بالمشروع في العام ١٨٨٢، لكن المشروع تعثّر لأسبابٍ كثيرة، وأفلست الشركة الفرنسية، مع تفاقم المصاعب وشحة الموارد وهرم فرديناند دلسبس.

في ١٩٠٢ صدر قانون سبونر (نسبةً إلى السناتور جون سبونر من ولاية وسكونسن) الذي يخوّل الرئيس الأميركي ثيودور روزفلت (الملقّب الهراوة والمتباهي بقوّة بلده البحرية) صرف مبلغ أربعين مليون دولار لشراء ' شركة قناة بنما الجديدة '، والتفاوض مع حكومة كولومبيا على معاهدة بخصوص مشروع القناة والعوائد.

عرضَ الأميركيون على كولومبيا مبلغاً أساساً قدره عشرة ملايين دولار، مع عائدٍ سنوي قدره ربع مليون دولار،

مقابل ' استئجار ' شريط عُرضه ستة أميال من برزخ بنما، لمدة مائة عام.

رفضت الحكومات الكولومبية هذا العرضَ، فدبّر الأميركيون تمرداً انفصلت فيه بنما عن البلاد، معلنةً استقلالها، وأرسلَ ثيودور روزفلت الهراوةُ، السفينةَ الحربية ' ناشفيل '، لحماية أرواح الأميركيين (كان الغزو البري غير ممكن بسبب كثافة الغابات البنميّة)، واعترفت الولايات المتحدة باستقلال بنما، ووقّعت حكومةُ الإنفصال على المعاهدة المطلوبة.

لا تزال بنما تحت النفوذ الأميركي، وكلّما أراد أحد رؤسائها التملص دُبِّرَ انقلابٌ ضده (عمر توريّخو مثلاً)
وجيءَ بآخر.

❖ ❖ ❖

أيُّ مفاجآتٍ تنتظرنا، ونحن في أول الدرب !

لندن ٢٠٠٤/١/١١

شـارعُ المتنبي

باترك كوكبورن

الصحيفة الثقافية البريطانية London Review of Books نشرت في أحد أعدادها الأخيرة مقالةً ضافيةً للكاتب باترِك كوكبورن، يتحدث فيها بنزاهـة الكاتب الحقيقي عمّا يجري في العراق. إن فيها الكثير من الهمّ السياسي الـذي لا يبـدو مقلقاً للمنتفعين مـن الحالة الراهنـة، هؤلاء الذين يسـميهم ' الحواسميّين '، ويعنـي بهم لصوصَ اللحظةِ الملتبسة من ساسةٍ وضباعٍ ...

اخترتُ من مقالة الرجل ما هو أرأفُ وطأةً على العَصَب:

مركزُ تجارة الكتاب في بغداد هو شارع المتنبي، الواقع بين نهر دجلة وشـارع الرشيد المتداعي الآن، بينما كان يوماًما قلبَ المدينـة التجـاري. المكتبـاتُ صغيرةٌ، مفتوحةٌ طوال الوقت؛ وفي أيام الجمعة سوقٌ للكتب، حيثُ يبْسطُ الباعةُ كتبهم، بالعربية والإنجليزية، على حُصُرٍ في الشـارع الـذي تـآكلَ سطحُـه. معظـم الكتب مستعملٌ. في التسعينيات، بعد حرب الخليج الأولى، اعتدتُ الطواف بالمنطقة بحثاً عن كتبٍ، انجليزيـة كلاسيكية في الغالب، كان يملكها الطلبةُ. الكلمـات الصعبـة في هذه الكتبِ كانت مؤشّـرةً بخطٍّ، ومترجَمةً إلى العربية في الهامش. كان من هـذه الكتب الكثيرُ، فالمثقفون العراقيون اضطروا إلى بيع كتبهم تحت وطـأة العقوبـات الاقتصادية.

كان السوق مراقَباً مراقبةً دقيقةً من دائرةٍ في الأمن العام بإمرة الرائد جمـال عسكر، وهو شاعرٌ معروفٌ بمدائحه لصدّام. كان مسؤولاً عن منع الكتب المعنيـة بالعراق الحديث، كتب التاريخ والمذكرات التي كتبها المنفيون، ومؤلفات رجال الدين الشيعة والسنّة.

بالرغم من هذا، كـانت الكتب المطبوعـة غالبـاً في بـيروت، تـهرَّبُ إلـى داخـل العراق، عبر الأردن وسوريا وتركيا.

قال لي أحدُ الباعة: ' بإمكانك أن ترشو موظفي الحدود لإدخال الكتب الدينية، لا السياسية. اعتدْنا أن ننتزع الأغلفة ونضع بدلاً منها أغلفةً لكتبٍ بعثية '.

في أغلب الأحيان، تصل نسخةٌ واحدة، لتُستنسَخَ، مائةَ نسخةٍ أو أكثر، وتباعَ سرّاً.

الأمن العام، كان يقوم بإغارات تفتيشٍ، يقودها النقيب خالد، لمعرفة من يبيع هذه الكتب المستنسخة.

❖ ❖ ❖

بعد سقوط بغداد، وفي أحد أيام الجمعة، وفي منتصف شارع المتنبي، التقيتُ حيدر محمد، وهو رجلٌ في أواسط الثلاثينيات من العمر، عصبيٌّ، نفّاذُ العينين، وكان البائع الرئيس لكتابي [عن صدام حسين].

كان معروفاً في الشارع باسم ' حيدر مجلّة '، لأنه كان يتظاهر بأنه يبيع المجلات فقط. قال لي إنه يرى الحياة الآن بعد سقوط صدّام، بلا مذاق، ' لأنني في تلك الأيام، يتعيّنُ عليّ أن آخذَ المشتري إلى زقاقٍ، لأبيعه كتاباً يعرفُ كلُ واحدٍ منّا أننا قد ندخل السجن بسببه. كان للحياة مذاقٌ '.

حيدر الذي كان يبيع الكتب في بغداد والنجف منذ ١٩٩٤، قُبِضَ عليه في نهاية الأمر، سنة ٢٠٠٠، حين ضبطه الرائد خالد وفي حوزته كتاب لسعد البزاز، وهو صحافيٌّ عراقيٌّ كان موالياً لصدام حسين ثم انقلبَ عليه.

يقول حيدر: ' تظاهرتُ بالسذاجة، وقلت إني لا أعرفُ محتوى الكتاب، وقد تقبّلَ القاضي كلامي، وحكمَ عليّ بالسجن عامينِ فقط، لكن هذين العامَينِ مُدِّدا إلى ثلاثة حين وجدوا أنني هاربٌ من الخدمة العسكرية '

باعةُ الكتب في شارع المتنبي مرتاحون الآن لغياب الرائد عسكر والنقيب خالد، لكنهم يحذرون الحديث عن المستقبل.

إن مشكلاتٍ جديدةً تظهر يومياً تقريباً.

حين كنّا نبتعد عن سوق الكتب، جاءنا كرديٌّ كان سمعَ للتوِّ أن الولايات المتحدة دعت عشرة آلاف من الجنود الأتراك إلى العراق، وقال:

' أريد أن أخبركم أن الأميركيين سيخونوننا، تماماً مثل ما فعلوا في ١٩٧٥ و١٩٩١ '.

الغَيارَى

رائعٌ هو عديدُ الغيارى، الذين انتفضوا لكرامة نساء العراق، إثْـرَ إلغاءِ مجلسِ المحكومين قانونَ الأحوالِ الشخصية الذي سَنّتْه جمهورية تمّوز؛ حتى لَكأنّ الناس كانوا ينتظرون يوماً كهذا ليُفصحوا عمّا في صدورهم، بعد أن أمسى مجلسُ المحكومين حجراً طوطماً، يُعبَدُ ولا يُمَسُّ، بل أنّ ' مدوّنات ' المجلس الشنيعة قضتْ بتحريم وتجريم استعمال كلماتٍ عربية مثل المقاومة والجهاد، وربّما اتّسعَ الخَرْقُ على الراقعِ، فحُرِّمتْ كلماتٌ أخرى مثل الإستعمار والجلاء. نحن نعرف أن الاحتلال استُبدِلَ به التحالفُ، وأنّ اللصوصَ صاروا مؤتمنين على المال العام، وأن الخوَنةَ صاروا أولياءَ على العباد، لكننا سنظلّ نعرفُ، ويوماً بعد يومٍ، خوارقَ أخرى، من قَبيلِ أن **بريمر الثالث ملك العراق** أكثرُ حرصاً على إماءِ اللّهِ، منّا، نحن، عبيدِ الرحمن الجَهَلة في أرض العراق.

هل انتفاضةُ **الغيارى** هذه بدايةُ السبيلِ إلى حَلِّ عُقدةِ اللسان؟

هل ستَفْقَهُ القولَ؟

هل ستُفْلِحُ المرأةُ العراقيةُ في تحرير الرجالِ قلباً ويداً ولساناً؟

إنْ لم يستطع **الغيارى** احتمالَ الصمتِ إزاءَ ما تعرّضتْ له المرأةُ، فكيف يستطيعون احتمالَ الصمتِ إزاءَ استعمارٍ

سافرٍ، تقليديٍّ، وفي منتهى القسوة؟

لندن ١٨/١/٢٠٠٤

الطفلُ المعجزةُ

في الخامس عشر من آذار ١٤٩٣ (بعد عامٍ من سقوط غرناطة) رست سفينة النينيا (أي الطفلة) عند مدخل ريو تنتو (النهر الأحمر) غير بعيدٍ عن مالقا الأندلسية.

كانت في رحلة العودة، وكان قبطانها كريستوفر كولمبس !

حمل كولمبسُ إلى بلاط الملكة إيزابيل بقشتالة، هداياه من العالم الجديد في الطرف الآخر:

ذهباً، وخشباً، وقطناً، وبرميلَ رملٍ ظنّهُ تِبْراً.

ويقال أيضاً إنه جاء إلى البلاط الملَكي برجلٍ هنديٍّ من السكّان الأصليين لتلك الأصقاع التي فتحَها، عيِّنةً

وعلامةً.

❖ ❖ ❖

وفي أيامنا السعيدة هذه، يا سادةُ، ياكرامُ ...

حمل بريمر الثالث، إلى نيويورك، حاضرةِ بلاده، عيِّنةً من العراق وعلامةً، فُرجةً للعالمين ...

حمل بريمر معه:

الطفل المعجزة عدنان الباجچي

والحقُّ أن هذا الطفل المعجزة حقّقَ في العام الثامن من عمره ما لم يحققه عُتاةُ المتاجرةِ المشَهَّرون، فقد انتقل بسرعة البُراق من قاعة فندقٍ بلندن إلى قاعدةٍ جويةٍ أميركية ...

ومن خادمٍ لزايد، إلى رئيس حزبٍ مساندٍ؛

ومن متذوِّق للويسكي إلى متشوِّقٍ لليانكي ...

أمّا اليوم، وفي نيويورك، فهو يريد أن يتعلّم التمثيل !

لكنّ سيده بول بريمر لن يسمح له بالتمثيل ...
لقد جاء به إلى نيويورك للفرجة، للفرجة فقط !
القبطان كولمبس جاء بالعَيِّنة إلى البلاط القشتاليّ.

لندن ٢٠٠٤/١/١٩

موسوعةُ النهب الأميركي لآسيا

في أيلول عام ٢٠٠٣، أصدرَ الزوجان ستيرلنغ سيغريف، وبيجي سيغريف، الكتابَ الموسوعةَ عن نهب الأميركيين، آسيا، بُعَيدَ الحرب العالمية الثانية، متّخذَينِ اليابان منطلقاً.

عنوان الكتاب ' **مقاتلو الذهب: عثور أميركا السري على ذهب ياماشيتا** ' وهو معزّزٌ بقُرصَين مُدمجينِ يضمّان أكثر من تسعمائة ميغابايت، وثائقَ وخرائطَ وصوراً فوتوغرافيةً، جُمعتْ خلال البحث، وقد أعلن المؤلّفان: (**حيطةً، وتحسُّباً لما قد يَحدث، رتّبْنا أن يكون هذا الكتاب مع وثائقه، في عدد من مواقع الإنترنت، فإن تعرّضنا للإغتيال أمكنَ للقراء، بكل سهولة، أن يعرفوا من اغتالونا ...**).

❖ ❖ ❖

الكتاب في اثنتين وثلاثين وثلثمائة صفحة، ومعلوماتُه تتعلّق بعدة آلافٍ من الجنرالات، والجواسيس، والمصرفيين، والساسة، والمحامين، والباحثين عن الكنوز، واللصوص من بلدانٍ شتّى؛ بالرغم من هذا أحاولُ

أن أقدم عرضاً لجانبٍ من عملية نهب الأميركيين آسيا، وأساليب النهب، واستخدام الأموال المنتهَبة في تمويل عملياتٍ سياسية وعسكرية، سريّة، في أماكن مختلفة من عالمنا الراهن.

فور انتهاء الحرب، بدأت القوات الأميركية تكتشف مخابيء مذهلة للكنوز التي غنمَتها اليابانُ في الحرب. وقد أفاد الجنرال ماك آرثر قائدُ الاحتلال أنه ' أمكَنَ العثور على كميات عظيمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والطوابع الأجنبية والمصوغات والنقود غير المستعملة في اليابان '. وقد قبض رجاله على أحد عتاة العالم السفليّ، يوشيو كوداما، الذي عمل في الصين، أثناء الحرب، يبيع الأفيون، ويشرف على جمع وشحن المعادن الصناعية إلى اليابان، مثل التنغستين والتيتانيوم

والبلاتينيوم. كانت اليابان في النصف الأول من القرن العشرين أكبر منتجٍ للأفيون، بدايةً في مستعمرتها كوريا، ثم في منشوريا التي استولت عليها سنة ١٩٣١.

كان كوداما يجهّز الصين المحتلة بالهيروويين والكحوليات مقابل النقد الذهب، والجواهر، والأعمال الفنية، التي سيحيلها اليابانيون إلى سبائك.

عاد كوداما إلى اليابان بعد استسلامها، فاحشَ الغنى. وقبل أن يُودَعَ السجنَ، نقلَ جزءاً من ثروته إلى السياسيَين المحافظَين إيشيرو هاتوياما، وإيشيرو كونو، اللذَين استخدما المالَ لتمويل الحزب المؤسَس حديثاً، الحزب الليبرالي، سلفِ الحزبِ الذي ظلّ يحكم اليابان، بلا انقطاعٍ تقريباً، منذ ١٩٤٩.

حين أُطلِقَ كوداما من السجن، في ١٩٤٩ أيضاً، صار يعمل لصالح الـC.I.A ثم أصبح الوكيل الرئيسَ في اليابان لشركة طيران لوكهيد، راشياً ومهدداً الساسةَ كي يشتروا مقاتلات ف_ ١٠٤ وأيرباص ل_١٠١١ هكذا، بثروته المسروقة، وعلائقه بالعالم السفلي، وتاريخه كنصيرٍ للعسكر، صار كوداما الأبَ الروحي لحكم

الحزب الواحد الموالي للأميركيين في اليابان.

❖ ❖ ❖

ننتقل الآن إلى ساحةٍ أخرى:

بعد غزو اليابان، الصينَ، غزواً شاملاً، في العام ١٩٣٧، عيّن الإمبراطور هيرو هيتو، أحدَ إخوته، الأميرَ

شيشيبو على رأس منظمة سريةٍ اسمُها ' كِنْ نو يوري ' أي الزنبقةُ الذهبُ، مهمّتُها السيطرة على المنهوبات، وإيصالُها إلى الحوزة الإمبراطورية. ومن أعمال هذه المنظمة، أنها استولت في كانون أول ١٩٣٧، مع احتلال نانكين، العاصمة الصينية، على ستة آلاف طنٍ من الذهب كانت في خزينة شيان كاي شيك وبيوت ودوائر موظفي الصين الوطنية.

لكن شيشيبو اضطرّ بسبب حرب الغواصات الأميركية، بداية ١٩٤٣، إلى نقل مقره من سنغافورة إلى مانيلا، وأمر بأن توجّه الشّحنات إلى الموانيء الفلبينية، حيث ستخبّأ في مواقع سريّة لا يعرف خرائطَها إلا قلّةٌ.

بعد تحرير الفلبين، شرع الأميركيون يكتشفون مخابيء ذهبٍ بمساعدة أميركيٍّ فلبينيّ يدعى سانتا رومانا كان عمل في الخطوط الخلفية لصالح ضابط

استخبارات ماك آرثر الجنرال ويلوبي، وشاهدَ تفريغ شحنةصناديق ثقيلة من إحدى السفن اليابانية في نفقٍ أُغلقَ مدخلُه بعد التفريغ، بالديناميت.

بعد الحرب، اشتغل سانتا رومانا مع الكابتن لانسديل من المخابرات الأميركية، في البحث عن الكنوز.

عذّبَ رومانا ولانسديل، سائقَ الجنرال ياماشيتا، آخرِ القادة اليابانيين في الفلبين، ليدلهما على الأماكن التي أوصلَ ياماشيتا إليها في أشهر الحرب الأخيرة. ولقد عثر الأميركيون على سبائك ذهبٍ أعلى من رؤوسهم، كما أبلغوا رؤساءهم، وصولاً إلى الرئيس ترومان الذي أصدر أوامره بتبييض هذه الثروات. ولإخفاء ما فعله سانتا رومانا ولانسديل، قرر الجنرال ماك آرثر التخلص من الياباني ياماشيتا، فقُدِّمَ إلى محاكمة سريعة بدعوى جرائم حرب، وأُعدمَ في شباط ١٩٤٦.

هكذا توافرت لدى الـC.I.A مبالغُ هائلة استُعملت للتأثير السياسي في اليابان وإيطاليا واليونان، ولتمويل الهجمات على حكومة ماناجوا في عهد رونالد ريغان ...

❖ ❖ ❖

أُتابعُ هذه الأيامَ، محاولةَ إياد علاّوي (المتورطِ في أحداث ١٩٦٣ وجرائمها) توسيعَ قاعدة زُمرته، وأتساءلُ:

هل تريد سلطةُ الاحتلال بناءَ حزبٍ له يستبق الأحداثَ؟

وفي هذه الحالة، هل سيحظى بشيءٍ من كنوز الذهب اليابانية؟

أمْ أنّ نصيبه سيكون من كنوز المتحف العراقيّ المنتهَبة؟

لندن ٢٠/١/٢٠٠٤

جورج بوش في حضرة الطفلِ المعجزةِ

ألقى الرئيس جورج بوش خطابَ الإتحاد بين يدَي رنْد فرانكي رحيم، سفيرةِ واشنطن في واشنطن، وكذلك بين يدَي الطفلِ المعجزةِ، عدنان الباججي، الذي تهلّلتْ أساريرُه، كالهرّ، يحكي انتفاخاً صورةَ الأسدِ، حين قال

له الرئيسُ الأميركي: ' يا سيدي، أميركا تقف إلى جانبكم... '، فارأفْ بها وبجنودها، وأكرمْ مع هؤلاءِ جنودَ ثماني عشرةَ أمّةً، حلّوا ضيوفاً ... صحيحٌ أن بلادك هي في مثل مساحة فرنسا، لكنّ الناس هم نصفُ مَن

في فرنسا، ربما بسبب الجوع، والمرض، واليورانيوم المنضّب، وحروب الأعوام الثلاثين ...

أعتقدُ، مخلِصاً، ومخلِّصاً، أن جنود الأمم الثماني عشرة يكْفون لحراسة المؤسسات الديمقراطية التي بنيناها بجهودكم وجهودنا ...

لكنّ وزير خارجيتي، الجنرال كولن باول _ وهو كما تعرف محاربٌ في فييتنام _ أسرّني أنّ رجُلَنا عندكم، هوشيار زيباري (أهذا هو اسمُهُ؟) وجّهَ رسالةً إلى حلف شماليّ الأطلسي، يطلبُ فيها إرسالَ جنودٍ من الحلف إلى بلاد ما بين النهرَين. أتعتقدُ، يا سيّدي الطفل المعجزة، أنّ هذا الطلب معقولٌ؟

قال لي كولن باول إن هذا الأمرَ سوف يثير إشكالاتٍ عدّةً لإدارتنا، في أوربا، وفي العالَم ...

كما أن شعبكم، أيها الطفلُ المعجزةُ، جائعٌ، فقيرٌ، مبتلىً بما توَطَّنَ من أمراضٍ، فلماذا يُلِحُّ هذا الهوشيارُ على إرسال قوّاتٍ إضافيّةٍ؟

نحن، كما تعرفُ، باركْنا، سرّاً، التشكيلَ الجديدَ لفرقِ القتلِ، التي يتولاّها علاّوي والجلبي وآخرون، ونحنُ غيرُ مستعدينَ لإجراءاتٍ إضافيةٍ تثيرُ علينا غضبَ الرأي العام في الولايات المتحدة والعالَم ...

وبالمناسبة، يمكنك أن تُبْلِغَ رجُلَنا هوشيار زيباري بأننا مستعدون لنقله بطائرة هليكوبتر في حالة الخطر، حتى لو خصصْنا له وحدَه طائرةً (بسبب خفّة وزْنِه !).

إن الولايات المتحدة الأميركية لن تنسى رجالَها. وأرجوك أن تنصحه بنسيان صورةِ عملائنا الفيتناميين الذين لم نستطعْ إنقاذهم في اللحظة الأخيرة من سايغون ...

أعتقدُ الآنَ أنّ كولن باول نفسه ليس في المزاج المناسب لذكرياتٍ من هذا النوع.

لندن ٢٠٠٤/١/٢٣

بِـمَ نُبـاهـي الأُمَـم؟

منذ أن احتلّت جيوشُ ثماني عشرةَ دولةً ودُوَيلةً، أرضَ الرافدين، وركزتْ راياتها، وشرعتْ تقاتلُ الأهالي وتقتلهم، مستبيحةً دُورَهم وديارَهم، ومُستوليةً على البترول، تسويقاً وعوائدَ ... مُذّاكَ بدأتْ كتاباتٌ لعراقيينَ يساريين (سابقين عراقاً ويساراً)، تباهي بما جرى، وتتفاخر، ولا تجد _ في سياق مباهاتها _ حرجاً في أن تشتم أبناءَ ديارِ العرب الأخرى، لأنهم لم يتبيّنوا حتى الآن، ما آلَ إليه العراقُ من حريةٍ ومجد.

موجةُ التباهي هذه أخذتْ تخفتُ، تدريجاً، مع فداحة ما يَحْدثُ على الأرض، وضيقِ المستخدِمين العربِ بلجاجةِ خَدَمِهم، الكتّابِ العراقيين اليساريين، السابقينَ عراقاً ويساراً.

ليس أمراً عجيباً، في أيّامنا هذه، أن يتنكّر امرؤٌ لماضيه أو معتقَدِه ...

الأفعى أيضاً تنتزعُ جِلْدَها.

لكنّ المشكلَ في هؤلاء أنهم يعاودون انتزاعَ جلْدِهم المنتزَع أصلاً، كلّما كتبَ أحدُهم تعليقاً أو خاطرةً.

السؤالُ: بَمَ نُباهي الأمم؟

أنُباهيها بأننا لم نستطع أن نُسقِطَ طاغيةً بأنفسنا؟

أنباهيها بأننا فقدنا استقلالَنا حتى أجلٍ قد يمتدُّ نصفَ قرنٍ أو قرناً؟

أنباهيها بأن ثروتنا الأساسَ (البترول) اخْتُطفتْ من أيدينا؟

أنباهيها بأنّ من يحكمنا، ويتحكّم بأمرنا، ليس منّا؟

إلخ، إلخ ...

أنت، أيها الصديق، تقول لي إن الزمان مختلفٌ.

صحيحٌ ما تقول ... لكنْ، هل اختلفت الأخلاقُ أيضاً مع اختلاف الزمان؟

لندن ٢٥/١/٢٠٠٤

' قوائمُ ' بلا حدود ...

تابعتُ باهتمامٍ وتقديرٍ وإعجابٍ، ما نشـرته يوميةُ ' المدى ' البغدادية، من قوائمَ بالجهات والأشخاص، ذواتِ الإنتفاعِ من تبديد صدام حسين ثروةَ البلدِ البترولية، لصالح مبرريه والمنافحين عنه في أرجاء شتى من عالمنا العجيب.

كما تابعتُ ردودَ الأفعال في بلدانٍ كثيرةٍ نشـطَ المبررون والمنافحون فيها، ممّـا يشكل خدمةً حقيقيةً لتبيان الحقائق، والهزءِ بالمزايدات التي تستغلُّ براءةَ الناس، وبراءةَ تطلُّعاتها، من أجل أن يحقق هذا السياسيٌّ أو ذاك مبتغاه الرخيصَ، وهو ماديٌّ أساساً.

واليومَ، صباحاً، سعدتُ، وانتشيتُ، لأن ' المدى ' ذاتها سوف تنشـر قوائمَ بالعملاء السياسيين والصحافيين

لأبشع دراكيولا (مصّاصِ دمٍ) في التاريخ، وأعني صدّام حسين ...

جميلٌ جداً أن تسدي الصحيفةُ هذه الخدمةَ لتساعدَ الناسَ في القطيعةِ مع ماضٍ شائنٍ، ولتقول لهم إن رشـوة الحقيقة غير ممكنة، حتى في أعقدِ الأحوال ...

أقولُ إنَ ' المدى ' ساعدت الناسَ في نفضِ عبءِ الماضي، وفضحه، باعتبارها ' يساريةً ليبرالية ' حسبَ ما تقوله التعريفاتُ الغربية، لكنّ مساعدتَها الناسَ سوف تكون مرموقةً أيضاً، حين تتناولُ الحاضرَ ...

الماضي، يُعتبَـرُ مقبوراً الآن.

أمّا الحاضرُ، حاضرُ الإستعمار والإحتلال، فلسوفَ يُقبَـرُ أيضاً.

ألا يمكنُ لـ ' المدى ' أن تضطلعَ مبكِّـراً، وقبلَ فواتِ الأوانِ، بنشـر قوائمَ للعملاء الحاليين في

' مجلس المحكومين ' و' الوزراء' والإدارات الأخرى، والصحافة الصفراء... إلخ؟

أليسَ من مهمّات الصحافة الحرة أن تنشر كم هي المبالغُ التي تقاضاها عدنان الباججي، وأحمد الجلبي، وإياد علاوي، والمئاتُ من أمثال هؤلاء؟

أعتقدُ أن نشر المعلومات هذه ليس في غاية التعقيد، وليس فيه شيءٌ من الدراما، أو حتى السبقُ الصحافيّ ...

المعلومات متاحةٌ، ولربما تباهى بها أصحابُها.

إذاً، فلنقُلْ كم قبضوا، وممّن، ولماذا؟

هذا الأمرُ سوف يساعدنا في قراءة حاضرنا الفاجع، كي نقبره في يومٍ ما، مثل ما ساعدتنا ' المدى ' في قبر ماضٍ

ليس أكثرَ منه فجيعةً.

لندن ٢٠٠٤/١/٢٩

إمبراطوريةٌ ليست مثلَ الأُخرَيات

كثيرةٌ هي الكتب التي تصدرُ في المملكة المتحدة، وتتناولُ شؤوناً تعنينا بهذا القدر أو ذاك، لكنني بين حينٍ وآخرَ، أهتمُّ بواحدٍ منها، اهتمامَ المستطلِعِ لا الخبيرِ، فأنا في النهاية لستُ كائناً سياسياً ...

ولديّ الآن كتابٌ صدرَ قريباً عن دار الدّلو Verso بعنوان ' امبراطورية رأس المال ' Empire of Capital من تأليف إيلين ميكسيس وود، رأيتُهُ جديراً بإلقاء ضوءٍ.

تتابعُ الكاتبةُ التحولَ العميقَ الذي طرأ على السياسة الخارجية الأميركية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وترى أن الولايات المتحدة برزت قوةً مسيطِرةً، لكنّ سيطرتها، بسبب الحرب الباردة، اتخذت شكل تحالفٍ عضويّ، مع أوربا الغربية أساساً، مما سمح بظهور فكرة ' الغرب ' بصورتها المُعاصرة، وأخفى السيطرة الأميركية تحت ستارٍ من التحالفات والتعددية.

بعد انتهاء الحرب الباردة، حصلَ ما يمكن أن يدعى فراغَ سلطة، قبل أن تتحدد معالمُ الفترة التالية، أي بروز الولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى، متحررةً من التهديد السوفييتي، ومن أي التزامٍ بتحالفٍ أو اعتبارٍ غيرِ مصالحها الخاصة.

تهتم الكاتبة بشرح طبيعة الإمبراطوريات وتسبيبها، مستعرضةً امبراطوريات الإغريق والرومان والصينيين والإسبان والعرب المسلمين والبنادقة والهولنديين والبريطانيين، ومبيِّنةً الفروق والتمايزات بين هذه الإمبراطوريات لتستخلص أن الإمبراطورية قد لا تستدعي الإستحواذَ على الأراضي، وهي ترى أن الإمبراطورية الأميركية الجديدة هي ' امبراطورية اقتصادية '، وأن الوحدة الكلاسيكية للإمبراطورية الأميركية الجديدة هي الدولة القومية ذات السيادة

The Sovereign Nation-State وليس المستعمَرة.The Colony وممّا يمنح هذه الإمبراطورية شكلاً وتعبيراً دستوريين، اتفاقياتُ بريتن وودز، الغات، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي ...

وترى الكاتبة أن الحرب على الإرهاب ليست حماقةً من جانب الولايات المتحدة، إذ أن هذه الحرب، على الضد من محاربة الدولة القومية، لا يمكن إحراز النصرِ فيها، لكنّ هذا هو ما تريده الإمبراطوريةُ، فالمبدأُ الأميركي الجديد مؤسسٌ على حربٍ بلا نهاية، تحبط وتهددُ المخاطرَ الثلاثةَ التي تواجهها الهيمنةُ الأميركية:

الدولُ الفاشلة – الدول الشريرة – والقوى الرئيسة الأخرى: الصين، روسيا، اليابان، الإتحاد الأوربي.

وفي الوقت نفسه، يتكفل الجبروت العسكري الأميركي بتطويع الدول القومية وتهديدها، هذه الدول الضرورية

لإدامة نظام العولمة.

تنتهي الكاتبةُ إلى القول:

' هذه الحرب التي ليس لها من غايةٍ أو زمنٍ، هي حربُ امبراطوريةٍ بلا نهايةٍ ولا حدودٍ أو حتى أراضٍ '

❖ ❖ ❖

مصطلَحا **الدول الفاشلة و الدول الشريرة** هما أميركيان: الأول يعني الدول التي لم تقُمْ بأداءٍ جيد، مثل

دولٍ إفريقيةٍ ما، والثاني يعني دولاً مثل كوريا الشمالية وبورما والعراق سابقاً.

لكنْ ما المعنيُ بالدولة القومية The Sovereign Nation - State هنا ?

المقصود بالدولة القومية ذات السيادة، هو الكيانُ، بغضِّ النظر عن حقيقية تلك السيادة، وضمن هذا السياق تُعتبَر أفغانستان قرضاي كياناً، وكذلك البوسنة وكوسوفا (أي كوسوفو)، والعراق كما يريده الأميركيون.

إن هذه الدولة القومية (المختلفة تماماً عن الدول القومية التي نشأت في أوربا بعد الحروب النابليونية)، تلعب دورَ الوحدةِ في منظومة العولمة الأميركية، وهي خاضعة تماماً لإجراءات العولمة المذكورة، سياسياً واقتصادياً.

بعد انتهاء الحرب الباردة، وغياب اليسار كقوّة عالمية، كانت هناك رغبةٌ واسعة في إعادة النظر بالموقف من أميركا. ولم تكن فكرة أميركا شرطيّاً دوليّاً، المتجذرة اليومَ، محضَ قبولٍ بالحتميّ. لقد جاء بيل كلينتون إلى البيت الأبيض، متحدثاً بلغة حقوق الإنسان، ممّا منح الفكرةَ صدقيةً معينةً، وقد تلت ذلك حربُ البلقان، والتطهيرُ العرقي في أوربا، وفشلُ الإتحاد الأوربي في وقف الأمر، ومباشرةً جاء التدخلُ الأميركي الحاسم الذي بدا للوهلة الأولى تدخلاً إلى جانب حقوق الإنسان والديمقراطية. هكذا ولدت النسخة الحديثة ممّا تُمكنُ تسميتُه بالإمبريالية الليبرالية.

لكن البوسنة ظلت في فوضاها، وكوسوفا (كوسوفو) استبدلت تطهيراً عرقياً بآخرَ، وأفغانستان غابت في التخلف والنسيان تحت حكومة عميلة ...

وتقتطف الكاتبة قولاً لأحد منظّري الإمبريالية الأميركيّة الجديدة، هو ميكائيل إغناتييف، ينصّ على أن:

"في الإمبريالية القديمة، كان للإمبراطورية عاصمةٌ واحدة، وأهدافٌ متعارضةٌ مع أهداف أي امبراطورية أخرى،

أمّا في الإمبراطورية الإنسانية الجديدة، فإن السلطة تمارَسُ بصورةٍ مشتركة Condominium، تقودها واشنطن

وتتبعها لندن وباريس وطوكيو بترددٍ. إن الإمبراطورية **الإنسانية**، هي الوجه الجديد للشخص القديم: العالمِ الحر الديمقراطي، الغربِ المسيحيّ".

ترى الكاتبة أن هذا الرأي كان وارداً، مباشرةً بعد أحداث ١١ أيلول، وحتى بعد غزو أفغانستان، لكن هذا الرأي لم يعد وارداً بعد غزو العراق ... ولم يصمد أمام الأحداث.

إننا إزاء امبراطوريةٍ لها عاصمةٌ واحدة، هي واشنطن.

لندن ٣/٢/٢٠٠٤

البلدُ المستحيلُ

نظرية ' الحرب الدائمة ' للإمبراطورية الأميركية، التي أوردتها إيلين ميكسيس وود، في كتابها ' إمبراطورية رأس المال '، تجد تطبيقاتها الراهنة، على النطاق العالمي، وكذلك على النطاق المحلي: أفغانستان، فلسطين، يوغسلافيا السابقة، والعراق هذه الأيام. ليس من مصلحة الإمبراطورية الأميركية التوصل إلى حلول، فالحلولُ تعني انتفاءَ الحاجة إلى التواجد العسكري والسياسي وربما الإقتصادي في يومٍ ما، للولايات المتحدة.

إذاً تنبغي إدامةُ اللاّحل.

في أفغانستان، مثلاً، ما زال الأميركيون يتفاوضون مع الطالبان ...

في فلسطين، يمسك الأميركيون بخيوط اللعبة من طرفيها: الفلسطيني والإسرائيلي.

في كوسوفو، يوالي الأميركيون شدَّ الخيوط وإرخاءها بين الألبان والصرب ...

إلخ، إلخ.

أمّا في العراق، فالمسرحُ مهيّأٌ لألعاب بلا نهاية.

والظرفُ الأنموذجي لهذه الألعاب التي تُديمُ الاحتلال، هو الوقوف على حافة الحرب الأهلية:

اغتيال القادة الأكراد أمس.

محاولة اغتيال السيستاني اليوم.

لكن هذين الأمرَينِ ليسا سوى مظهرٍ بسيطٍ، يخفي ما هو أدهى وأمَرُّ كما يقال.

يقول بريمر الثالث ملك العراق إن هذه الحالة مرفوضةٌ.

ينبغي إيجادُ حلٍّ.

ما الحلُّ، يا جلالة الملك؟

يقول بريمر والبريمريون:

رئيس تنفيذي هو إياد علاّوي (مجـرم ١٩٦٣ يعـود بعـد أربعـين عامـاً دكتـاتوراً مثل صدام حسين)

فإن رفضتم مرشّـحَـنا هذا، أعطيناكم حلا آخر.

ما الحلُّ يا جلالة الملك؟

تنصيب الأمير حسن وصيّاً على مجلس الحكم (أي إلحاقُ العراق بالأردن)

❖ ❖ ❖

أيٌّ برميل بارود!

أيُّ لعنةٍ تتهددُ هذا البلدَ المستحيلَ!

لندن ٢٠٠٤/٢/٥

أمُّ المعاركِ: حربُ ' القَبَضايات '

' القبَضاي' في الدارجة العربية، يقابله ' الشقاوةُ ' أو ' الأشقياء ' في الدارجة العراقية؛ تقول: هذا شقاوةٌ وأشقياء، وتعني رجلاً يتمتع بقوّة جسدٍ مهيبةٍ، وبنوعٍ خاصٍّ من الأريحية، وغالباً ما كان هذا الرجلُ من منبتٍ شعبيٍّ أقرب إلى الفقر، حتى كأنّ الشقاء دفعه دفعاً إلى أن يغدو 'شقاوةً'، ولازَمه إسماً بالرغم من تبدّل الحال والمآل.

شقاوات بغداد، كان لهم أيضاً، دورهم في المسرح السياسي العراقي، وهو دورٌ عنيفٌ ينتهي على الدوام بموتٍ عنيف: خليل أبو الهوب مثلاً.

وكان للشقاوات دورهم في تنفيذ مآرب البعثيين، انقلابيي شباط ١٩٦٣، وأتباع صدام حسين في أواخر الستينيات. وكثيرٌ منّا يتذكر ليلة كواتم الصوت الشهيرة (الشبيهة بليلة الخناجر الطويلة الهتلرية) حين انقلب صدام حسين على شقاواته، وأبادهم في ليلةٍ واحدةٍ، ليدفنهم مع أسرارهم الرهيبة، في قبورٍ مجهولةٍ حُفِرتْ على عجلٍ.

ربما أغراني جِناسُ اللغةِ، فعرّجتُ على بيت القبَضاي، غفلةً وانسراحاً مع الجناس، وما كنت قاصداً ذاك.

أردتُ أساساً، أن أداعب القابضينَ، لا على الجَمرِ الأحمرِ، وإنما على الورق الأخضرِ، وأن أسخرَ قليلاً من حربهم الضاريةِ التي يمكن أن نسمّيها أمّ المعارك. وبما أن المفلس في القافلة (وهو أنا) أمينٌ، فقد وجدتُ لي أرضاً عاليةً أُطلُّ منها على معركة المستنقع ...

القابضون من الاحتلال والشيوخِ يهلّلون ويكبّرون كلما أعلنوا عن قابضٍ من صدّام.

والقابضون من صدام يهللون ويكبِّرون كلما أعلنوا عن قابضٍ من الاحتلال ودوائره.

والجميع سواسيةٌ كأسنان المشط.

الجميع سواسيةٌ في السقوط السياسي والثقافي والأخلاقي لشريحةٍ نصّبتْ من نفسها نخبةً سياسيةً وثقافيةً، لعقود.

يقالُ: حين يُنهَبُ منزلٌ تظهر الأسرار ...

ومع أن أمر القابضين (من الطرفين) ليس بيتاً للأسرار، إلاّ أن غافلين كثاراً سوف يفيقون من غفلتهم، وهم

يطلّون، مثلي، على هذا المستنقع المنتن، مستنقعِ أمّ المعاركِ ...

لندن ٢٠٠٤/٢/١٣

عُرسُ بناتِ آوى الباريسيّ

قد كنتُ فكّرتُ مع نفسي (إذ لا أحدَ يمكن أن تفكر معه هذه الأيامَ)، وانتهيتُ إلى أنني واجدٌ رهقاً لا حدَّ له، لو ظللتُ متابعاً بالكتابة، تفاصيلَ ما يفعله الخونةُ واللصوصُ الذين نصّبَهم المحتلّونَ وكلاءَ لهم، يتصرّفون بالبلاد والعباد، مأمورينَ خانعينَ مكابرين، تحت أسماء شتى، من مجلس محكومين، إلى وزراء، ووكلاء وزراء، ومحافظين غيرِ حُفّاظِ عهد ... إلخ.

أقولُ: فكّرتُ في أن أتركَ الكتابةَ عن مشهدٍ سيظلُّ مألوفاً، ومَدْعاةً للملل، والقَرَفِ،نصفَ قرنٍ أو قرناً، هو مشهدُ العراقِ – المستعمرة، والوكلاءِ المكلّفينَ الحفاظَ على أمن المستعمِرِ وجنوده ومصالحه. لقد أوضحتُ موقفي، لنفسي، وللتاريخ، ولثقافة وطني، ولديّ من متاعب الفنّ ما يكفيني لأكثرَ من حياةٍ؛ ولَطالَما رأيتُ في العودة إلى الألوان المائية ورسوماتها حلا راهناً ...

ما أجملَ الفنّان!

وما أقبحَ السياسيّ!

❖ ❖ ❖

لكنك لا تستطيع أن تغيِّرَ مجرى الرياح حين المَهبُّ ...

ليس في أذنَيكَ وَقْرٌ.

ولا على عينيكَ غشاوةٌ.

وها أنتذا تُبْلَغُ أن بناتِ آوى، ' المثقفين '، سيقيمون عرساً لهم في باريس، مثل ما قامَ بناتُ آوى الساسةُ الخونةُ بعرسهم في فندقَي الهيلتون متروبوليتان والنوفوتيل بلندن، العاصمة الإمبراطورية.

❖ ❖ ❖

في الثالث والعشرين من آب ٢٠٠٣، كنتَ كتبتَ:

' بريمر الثالث، ملك العراق، الفاشل، إلاّ في قتل العراقيين، أصدرَ أمره، إلى أتباعه أساساً، من بعثيين سابقين، وشيوعيين مرتدِّين، وفالاشا، وأميركيين ذوي أصولٍ، بتشكيل(**المجلس الأعلى للثقافة**). ربما كان دافع بريمر الثالث أن يُظهر أن له اهتماماتٍ أخرى غير قتل العراقيين، لكن حيثيات مجلسه الأعلى و ' شخصياته ' تؤدي بنا إلى الإعتقاد بأن هذا المخلوق يواصل عملية القتل، قتل العراقيين، ثقافياً هذه المرّة.

بريمر الثالث لم يكتفِ باختيار أعضاء المجلس من بين المقيمين في فنادق المارينز البغدادية، غيرِ القادرين ثقافياً، بل غير القادرين على مغادرة غرف الفندق خوفاً من الناس، بل مضى إلى أن يضع على رؤوس هؤلاء الخانعين أساساً، ذوي العشرة آلاف دولارٍ شهرياً، شخصاً معروفاً بجذوره في العالم السفليّ، أميركيّ الجنسية، بعثياً سابقاً ... '

❖ ❖ ❖

اليومَ ...

ولمناسبة احتفال هؤلاء ' المثقفين ' بمرور عامٍ على الاحتلال ...

يريد مثقفو بريمر أن يعقدوا اجتماعاً لـ ' المثقفين العراقيين ' في باريس، شهرَ حزيران، يسبقه اجتماعٌ تمهيديّ في العاصمة ذاتها، شهرَ آذار.

ويردد بعض هؤلاء أن الإجتماع سيكون تحت رعاية اليونسكو.

معروفٌ أن اليونسكو، باعتبارها البطة العرجاء بين وكالات الأمم المتحدة، تشحذ التبرعاتِ شحذاً، وليس لديها أي سبيل أو تقليد أو سابقة باستضافة حوالي أربعمائة شخص، ودفع نفقات سفرهم وفنادقهم ...

كما أنها لن ' ترعى' الإجتماعَ المزمع رسمياً. فالعراق ليس دولةً في النهاية!

وإن كان لها دورٌ في ما يخص حضارة العراق، فلْتقُم به:

لتساعدنا في استرداد آثارنا التي نهبتها القوات الأميركية وعصابات أحمد الجلبي.

لتأمر الأميركيين بإنزال مدافعهم من أعلى الزقورة، وبإغلاق قاعدتهم أسفل الزقورة ...

لتزود جامعاتنا كتباً ومختبراتٍ ...

إلخ ...

إلخ ...

إذاً، ما معنى استغفال الناس؟

يقال إن السبب هو رغبة شخص ما، في استغلال هذا الإجتماع، باعتباره مجهوداً منه، تقرُّباً من المنظمة العالمية بُغيةَ تعيينه فيها، بعد أن أعيتْه جهودٌ سابقةٌ أيامَ كان في باريس، ويقال إن هذا الشخص أقنع وكيلَ بريمر الثقافي بهذا (أي بتعيينه) وقتَ العشاء بمطعمٍ فرنسيٍّ متوسط المستوى ...

❖ ❖ ❖

من سيدفع النفقات؟

ليست اليونسكو تحديداً ...

إذاً، هل يدفع وكيل بريمر كلَّ هذه النفقات من أجل أن يردّ فضلَ استضافته في مطعمٍ فرنسيّ متوسط المستوى؟

ولماذا باريس؟

أعني لماذا لايعقَد الإجتماع في بغداد؟

هل يخشى مثقفو بريمر المتدربون في دورات تجسس الـC.I.A بواشنطن وبراغ عقده في بغداد؟

أظنُّ هذا ...

فهؤلاء الذين لا يجرؤون على مغادرة غرفهم في فنادق المارينز، لن يُسمح لهم حتى بحضور اجتماعٍ خاصٍّ للمثقفين العراقيين ببغداد، فكيف باجتماعٍ عامٍ؟

❖ ❖ ❖

لكنْ ...

لِمَ الإصرارُ على عقد الإجتماع؟

أظنّ الأمرَ متعلقاً برغبة السادة المحتلين في الإستيلاء على الوضع الثقافي – عبر عملائهم المثقفين الخونة – كما استولوا – عبر عملائهم السياسيين الخونة – على الوضع السياسي.

❖ ❖ ❖

سوف يدفع بريمر (من أموال العراقيين البؤساء) كلفةَ الإجتماع العالية، كي يدفع بعملائه إلى الواجهة التي لن يبلغوها يوماً ...

سوف يحضر أيضاً الغافلون والمغفّلون والمتغافلون.
لكن هذا كله لن يجدي.
إن الرياح تهبُّ باتجاهٍ آخر ...

❖ ❖ ❖

دعني أعرض الأمر بيُسرٍ:
إن كان الإجتماع بريئاً، فما جوابُ الأسئلة التالية:

- ما دخْلُ المطعم الباريسي بالشأن الثقافي العراقي؟
- لِمَ لم تُعلَن لجنةٌ تحضيريةٌ وطنيةٌ؟
- ما دخلُ وزارة الثقافةِ في شأنٍ يخصُّ الجسمَ الثقافيِّ العراقيّ ممَثَّلاً في أفراد وهيئات وتجمعات غير حكومية؟
- لِمَ لا يُعقَد الإجتماع في بغداد؟
- **هل يجوز للمثقفين العراقيين المرتبطين بأجهزة استخبارات المحتلين التحضير للاجتماع المزمع؟**

❖ ❖ ❖

أعتقدُ أن المهمة الملحّة الآن هي الحفاظ على الهوية الوطنية للثقافة العراقية.
والعراقيون، لا الفالاشا، هم الذين يصونون الثقافة الوطنية ويدافعون عنها.

لندن ٢٠/٢/٢٠٠٤

ساعاتُ لوركا الأخيرة

ليسـلي ستينتِن، خرّيجة مدرسة الدراما بماساشوستس (الولايات المتحدة)، أمضتْ أربع عشــرة سنةً، في دراسة ميدانية، حقّاً، عـن لوركـا، وفي العـام ١٩٨٩ أصدرت نتيجَ دراستها، كتاباً في حوالي ستمائةً صفحة من القطع الكبير، لمناسبة الذكرى المئوية للوركا (وُلدَ العامَ ١٨٨٩).

وباعتباري ذا رِحلةٍ طويلةٍ مع الرجل (لوركا)، يمكنني القولُ إن كتاب ستينتِن، فريدٌ، أي أنني لم أجد مثيلاً له في الدأب والتوثيق، لا باللغـة الإنجليزيـة، ولا بالفرنسية. قد أظلمُ المؤلفةَ إذ أختار من موسوعتها الحميمةِ ما اخترتُ، لكنني أكتفي بأن أعلن، عن كتابٍ قد لا يسمعُ به أحدٌ، في ظروفنا الثقافية المستعصية

❖ ❖ ❖

فجرَ الأحد، السادس عشر من آب ١٩٣٦، سقط مانويل مونتيسنوس (زوج أخت لوركا) برصاص مفرزة إعدام فرنكويّة. القسيس الذي تلقّى الإعترافَ الأخير، ذهب، بنفسه، إلى أسرة لوركا، يخبرها بموته.

علِمَ لوركا، هاتفياً، بما حدث. وبدأ آلُ روزاليس (الذين استضافوا لوركا الخائف) يقلقون عليه. وكان أحد الكتائبيين حذّرهم من عمليات إلقاء قبضٍ جارية، قد تشمل لوركا. وفكّرت العائلةُ بنقله إلى مأوى أكثر أمناً، ربما إلى دارة المُوسيقيّ مانويل دي فايا (كارمن)، بأعالي غرناطة.

حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، توقفت سيارةٌ بها ثلاثة ضباط عند منزل آل روزاليس، واتخذَ جنودٌ مسلحون بالرشاشات مواضع لهم على امتداد الشارع، وفوق سطوح المنازل المجاورة، وطوّقت قواتٌ إضافيةٌ الشوارعَ المحيطةَ. تقدمَ الضباطُ الثلاثةُ إلى مدخل المنزل، وأعلنوا أنهم جاؤوا يقبضون على لوركا.

لم يكن في المنزل، آنذاك، من آل روزاليس، سوى السيدة روزاليس التي واجهت رويث آلونسو (الآمر) وزميلَيه، رافضةً أن يأخذوا لوركا من منزلها، وطالبةً أن تعرف سبب القبض عليه.

قال أحدُ الثلاثة: ' مؤلَّفاتُه '.

السيدة روزاليس تشبّثت بموقفها، وذكّرت الضباطَ بانتماء عائلتها إلى الكتائب، وأصرّت على إخبار زوجها وأولادها بالأمر، هاتفياً. رضخَ رويث آلونسو. وخلال نصف ساعةٍ ظلت السيدة تحاول الإتصالَ بأحد أفراد عائلتها، حتى تمكنت أخيراً من العثور على ابنها ميغويل في ثُكْنة الكتائب. استخدمَ رويث آلونسو السيارةَ لإحضار ميغويل، وعاد الإثنان إلى المنزل بعد وقتٍ قصيرٍ، صحبةَ رجالٍ آخرين.

لم يستطع ميغويل روزاليس، أن يثني رويث آلونسو عمّا اعتزمَ. وحين استفسرَ من آلونسو عن الذنب الذي اقترفه لوركا، قال هذا: ' لقد أضرَّ بنا قلمُهُ، أكثرَ مما فعل آخرون بالمسدس '.

كان لوركا في أعلى المنزل، وسمع المشادّةَ حوله. وعندما تأكدَ من أنه سوف يعتقَل، ركع مع العمة لويزا، أمام صورةٍ للقلب الأقدس، وصلّى.

كان على شفا الإنهيار، يرتعش، ويبكي.

وحين غادرَ المنزلَ ودّع العمة لويزا والسيدة روزاليس. أمّا اسبرانزا فقد قال لها:

' لن أعطيكِ يدي، لأنني لا أريدكِ أن تظني أننا لن نلتقي ثانيةً '.

كان يرتدي سروالاً رمادياً غامقاً، وقميصاً أبيضَ، مع ربطة عنقٍ مُرخاة.

قاده رويث آلونسو خارج الباب، وعبر الناصية، إلى السيارة المنتظِرة.

بعد مغادرته بدقائقَ، اتصلت السيدة روزاليس هاتفياً بأسرة لوركا. وفي اليوم نفسه ذهب زوجها إلى والد لوركا. اسرع الرجلان إلى محامي العائلة، لتدبير دفاعٍ قانونيّ، في حال تقديم المتمردين، لوركا، إلى محاكمة.

❖ ❖ ❖

أوصلت السيارة، لوركا، إلى بناية الحكومة المدنية في شارع دوكويسا، لِصقَ حدائق النباتات التابعة لجامعة غرناطة، غير بعيد عن منزل آل روزاليس. جرى تفتيش لوركا، واحتُجِزَ في مكتب. وقد أكّدَ له ميغويل روزاليس الذي رافقه في الرحلة القصيرة، أنه لن يتعرض لأذىً.

في ما بعدُ، وفي اليوم نفسه، ذهب لويس روزاليس وأخوه خوزيه، وهما عضوان قديمان في الكتائب، إلى بناية الحكومة المدنية، وطلبا تفسيراً لاعتقال لوركا. أُمِرا بالإنصراف. ولاحقاً، كان على لويس أن يوضح في وثيقة رسمية قراره باستضافة لوركا في منزله، مبيناً أن لا أحدَ اعتبرَ إقامةَ لوركا لديه 'اختفاءً'، وأن كثيرين من الكتائبيين يعلمون بإقامة لوركا لديه. دافعَ روزاليس عن أفعاله، وأقسمَ على 'الدفاع عن ديني وعلَمي ووطني'.

واضحٌ أنه كان، وعائلته، في وضعٍ دقيقٍ.

فبعد يومين من اعتقال لوركا، تبرع لويس روزاليس بخاتمٍ إلى الكتائب، وأهداهم أبوه هدية ثمينة من المصوغات والنقود الذهب 'في سبيل الوطن'.

سُمِحَ لخوزيه روزاليس برؤية لوركا، مساء السادس عشر من آب، فأعطاه كارتون سجائر 'جَمل'.

وسأله لوركا أن يتبرع بمالٍ، باسمه، للكتائب. كما سُمح لأحد جيران آل روزاليس برؤيته ليوصل إليه بطانيات من السيدة روزاليس. وهناك شاهدٌ ثالثٌ رأى لوركا أثناء اعتقاله في بناية الحكومة المدنية، يتذكر أنه كان صامتاً

باديَ الإمتعاض.

صباحَ الاثنين، السابع عشر من آب، دخلت أنجلينا كوردوبيّا، مربية كونجا غارثيا لوركا، الغرفةَ الطويلةَ ذاتَ الأثاث النزرِ، حيث كان لوركا محتجَزاً تحت حراسة مسلّحة.

قال لها لوركا: 'أنجلينا، أنجلينا، لماذا جئتِ؟'

قالت له: 'أمّكَ أرسلتني'.

وقدّمت إلى لوركا سلّةً فيها أومليت بيض وبطاطا، وترموس قهوة، وتبغ.

تفحّصَ حارسٌ الطعام، ليتأكد. لكن لوركا كان بلا شهيّةٍ. وغادرت أنجلينا مسرعةً.

ارتفعت درجة الحرارة كثيراً عصرَ ذلك اليوم، لكن لوركا ظلّ محتجزاً داخل بناية الحكومة المدنية.

❖ ❖ ❖

حسبَ شخصٍ في الجوار، صادفَ أنه كان في الشارع، صبيحةَ اليوم التالي، أُخِذَ لوركا من البناية حوالي الساعة الثالثة صباحاً، من يوم الثلاثاء، الثامن عشر من آب، مغلولاً مع رجلٍ ثانٍ، ديوكورو جالبندو جونثالث،

وهو معلمٌ أعرجُ كان اعتُقِلَ قبل ساعة.

وُضع الإثنان في سيارة، مع سائق، وحارسين، وكتائبيّين.

انطلقت السيارةُ بالرجال السبعة، في ظلام غرناطة، نحو الطرف الشماليّ الغربيّ للمدينة، وانعطفت في طريقٍ غير ممهّدٍ، يلتوي بحدّةٍ، صاعداً إلى السفوح الجرداء للسييرا نيفادا.

لم تكن الليلة ذات قمرٍ.

على مبعدة ستة أميال من غرناطة، وعلى علوّ ثلاثة آلاف قدمٍ فوق مستوى سطح البحر، توقّفت السيارة، في قرية فيثنار ذات البيوت البيض، عند قصرٍ من القرن الثامن عشر، حُوِّلَ إلى مركز قيادةٍ كتائبيّ.

وبعد انتظارٍ قصيرٍ ـ ربما لتسلّم الأوراق ـ أُخذَ لوركا ورفيقه إلى مبنىً من الحجر الأحمر، أسفلَ فيثنار تماماً،

على حافة جُرفٍ مفاجىء.

حتى ذلك الشهر، كان المبنى (لا كولونيا) يستعمَل ملعبَ أطفالٍ صيفياً. لكن منذ الأول من آب استُخدِمَ زنزانةً للسجناء المحكومين.

جنودٌ، وحراس، وحفارو قبور، وخادمان، كانوا يسكنون الطابق العلوي من (لا كولونيا).

احتُجِزَ لوركا في الطابق الأسفل. كان معه المعلم جالبندو جونثالث، ومصارعا ثيران يساريّان.

تلك الليلةَ، كان الحارس الشابّ، خوزيه خوفر تريبالدي، يتولى نوبة الحراسة. قال تريبالدي للسجناء مطَمْئناً إنهم سيؤخذون اليومَ التالي، للعمل في شقّ طريقٍ. قدّم له لوركا سجارةً، وحاول أن يبدأ معه حديثاً، مستفسراً إن كان بإمكانه صباح غدٍ الحصول على صحيفةٍ وتبغٍ. أجابه تريبالدي: نعم.

لكن، بعد حينٍ، أفصحَ تريبالدي للرجال الأربعة عن حقيقة الأمر.

لقد شعر، باعتباره كاثوليكياً تقيّاً، أن واجبه يدعوه إلىيخبرهم بأنهم سوف يُقتَلون، وبأنه يقدم لهم فرصة الإعتراف الأخير.

كان لوركا مصعوقاً: ' لكنني لم أفعل شيئاً! '. هكذا صرخَ.

حاولَ أن يقول صلاةً. ' أنت تدري. أمي علّمتنيها. والآن نسيتُها'. قال هذا باكياً. ثم تساءلَ: ' هل سأكون ملعوناً؟ '

قال له تريبالدي إنه لن يكون ملعوناً.

قُبَيلَ الفجر، أُخذ السجناء الأربعة من لا كولونيا، في شاحنة، نحو سفحٍ عند المنحدَر، حيث أشجارُ الزيتون ملتفّةٌ. تحت موضعهم بأميالٍ يمتدّ الفيغا. وعلى مبعدة مئات من الأقدام، قرب قرية الفاكار، خزّانُ ماءٍ عربيٍ من القرن الحادي عشر، فوينته غرانده، وهو بالعربية: عين الدموع. قروناً ظلّ يزوِّد غرناطةَ ماءً.

لم تكن الشمس بزغتْ بعدُ، حين سمع رفاقه قعقعة البنادق.

لقد أُعدِموا بالرصاص، عند أشجار الزيتون.

وحين طلع النهار، دفع حفارو القبور رفوشَهم في التراب، وشرعوا في عملهم الصباحيّ.

لندن ٢٠٠٤/٢/٢٧

ساعات أندريه جيد الأخيرة

ربما اعتبرَ القاريءُ، أندريه جيد، والحديث عنه الآن، ضرباً من العودة إلى ماضٍ شبه منسيٍّ، وهو أمرٌ مفهومٌ في ثقافةٍ ليست متّصلةً، لكن أندريه جيد حاضرٌ في ثقافة بلده وقارته، بل حتى في سلوكِ مواطنيه، ولا تزال الدراسات عنه، شخصاً ومبدعاً، تحظى بالإهتمام، ومن بينها هذه الدراسة ذات الصفحات السبعمائة التي أُلخِّصُ منها ' ساعات أندريه جيد الأخيرة '. عنوان الكتاب: أندريه جيد - **حياةٌ في الحاضر.**

Andre Gide – A Life in the Present - By Alan Sheridan- Penguin Books 1998

القاريء العربي عرف جِيد في كتبٍ ممتازة الترجمة، وكان لطه حسين فضلُ تقديمه إلى لغتنا في مطبوعات دار الكاتبِ المصري ومجلتها الشهيرة، ومن بين تلك الكتب كما أتذكر، أوديب – ثيسيوس، الباب الضيق، وترجم له اللبنانيون ' قوت الأرض ' و ' السمفونية الراعوية ' و ' مزيفو النقود '.

كانت حياة جِيد في منتهى الغنى والجدل،والتحولِ بجانبيه المعنوي والماديّ، ومن هنا جاءت صعوبة عمل ألن شريدان الذي استقصى هذه الحياةَ المفعمةَ ثراءً وتفاصيلَ ذاتَ مغزى، يوماً بعد يومٍ، في دأبٍ يستحقّ الإعجاب والتقدير.

❖ ❖ ❖

السادس عشر من شباط [١٩٥١]، وصل الدكتور دولاي صحبةَ زوجته. لاحظ دولاي نصف زجاجة شمبانيا غير مفتوحة، على الطاولة الصغيرة جنب السرير، مع كتابٍ لفرجيل وعلبة سجائر جمل شبه كاملة. قال جيد وهو يتنفس بصعوبة: ' أخشى أن تكون جُمَلي غير سليمةٍ نحويّاً '.

يقول أحد أصدقائه: ' إنه الخوف القديم الذي أسرّني به، قبل عامين، في شباط ١٩٤٩، خوف فقدانه السيطرةَ على اللغة، كلماتٍ ونحواً، وهو قلقٌ معتبَرٌ، من جانب شغّيلٍ أدبٍ مخضرم، يشعر أن الأداةَ
التي صنعها صابراً، ومنحها قوّتَه، شرعت تهجره '.
بدا جِيد كمن ينام، ثم فتح عينيه وقال: ' هو دائماً، الصراعُ بين المعقول، وغير المعقول '.
بعد الظهر، قال بيير هربرت للسيدة الصغيرة :Petite Dame
' أفَلا تظنين، إن كانت هذه هي النهاية، أن من الأفضل أن تحاولي إبلاغه بأنك كنتِ تدوّنين، خلال ثلاثين عاماً، يومياتٍ عن كل ما قاله وفعلَه؟ سوف يبتهج لهذا '.
في الساعة الخامسة، جاء جان شلومبرجر من روما بعد أن أُخطِرَ بالنهاية الوشيكة.
وصفَ الدكتور مارتن البنسيلين، وضاعفَ زَرقةَ السباسماغلين، كي يُبقي جِيد مستيقظاً، لكنه كان يائساً من بقاء الرجل، غداً، على قيد الحياة.
في العاشرة، جاء مارتان دوجارد الذي كان يتابع التطورات، عبر الهاتف، وأمضى الليلَ على أريكةٍ بالأستوديو.
وفي اليوم التالي كتبَ إلى جاني بوسي يقول:
' عيناه مغمضتان، إنه ينام ساعات، ثم يفتح عينيه، ببطءٍ شديدٍ، متعرفاً على من حوله، مشيراً إليهم بودٍّ، ومبتسماً، ثم يستغرق في النوم '.
عندما سأله الطبيب إن كان يشعر بألمٍ، أجابَ بوضوح: ' مطلقاً، لا.
لا خوف، لا تمرُّد، لا أثرَ لقلقٍ أو ندمٍ، طمأنينةٌ تامّةٌ. نوعٌ من المُضِيّ مع قوانين الطبيعة.
لا يمكن للمرء أن يتخيل موتاً أكثرَ عذوبةً، وأقلَّ عاطفيةً.
دوّنت السيدة الصغيرة:
لم ينم أحدٌ حقاً، البارحة. هو نام لحسن الحظ.
عندما استيقظ جِيد قال: كل شيءٍ على ما يرام Tout est bien ، وطلبَ قهوةً.
لم يكن أحدٌ ليتوقع أن يسمع صوته ثانيةً.

في ما بعدُ، قال لبيث: **صعبةٌ هي المغادرة.**

انعقدَ نوعٌ من المجلس العائليّ:

ماذا تراهم فاعلينَ، لو اقترحت الحكومة جنازةً رسميةً؟

رفضوا الفكرة بالإجماع.

لقد رفض جيد، دائماً، تكريمات الدولة. ولسوف تكون الجنازةُ الرسمية مناقضةً كلَّ ما ناضلَ من أجله.

السيدة الصغيرة دخلت إلى غرفة جيد، وأخبرته عن "الدفاتر" التي دوّنتْها عبر ثلاثين عاماً. غمغمَ: وداعاً.

كانت السيدة الصغيرة حزينةً لهاجس أنه ربما لم يفهم ما قالته.

لكن بيير، خرج بعد قليل، ليقول لها إن جيد أخبره: "لقد فهمتُ تماماً ما قالته السيدة الصغيرة. ممتاز. ممتاز".

مرّ يوم الأحد، الثامن عشر من شباط، بلا أي تغييرٍ في حالة جيد.

في الصباح أخذت الإبنةُ كاترين، وبيث، والممرضة، المريضَ المحتجَّ، ليغتسل، ويبدل ثيابه.

جاء الطبيب الشاب صباحاً، وأعطاه الزّرقاتِ المعتادةَ.

الزوار جاؤوا.

والهاتف لم ينقطع عن الرنين.

بعد العاشرة مساءً، صارت أنفاسُ جيد متقطعةً جداً.

جيد ممددٌ. فمه مفتوحٌ واسعاً.

يده تمسك بها يدُ بيث.

الآن، هم عشرة في الغرفة، إضافةً إلى الممرضة وجلبرت.

ولعدة لحظاتٍ بدا الزمن متوقفاً.

مالت عليه الممرضةُ وتحسست قلبه – انتهى الأمر.

لا نأمة.

لا حركة.

كان الصمت لا يُطاق، حتى بدا لانهائياً.

فجأةً، كسرتْه أليزابث. قبّلتْ يده، وخرجتْ.

تلتّها كاترين.

❖ ❖ ❖

ينهي مارتان دوجارد مقالته ' ملحوظات عن أندريه جيد ' بقوله:

كانت الساعة العاشرة والدقيقة العشرين تماماً.

منذ أمس لم أرَ جفنيه مفتوحَين.

لا تَفجُّع. حزنٌ هادئٌ ...

إن هدوء تلك النهاية لَنافعٌ؛ ذلك التخلي. ذلك الإستسلام المثاليّ لقوانين الطبيعة، يصِلانِ إلينا.

علينا أن نظل ممتنّينَ له، إذ جعلنا نعرف كيف نموت جيّداً!

لندن ٢٠٠٤/٣/٣

يومياتُ ذاتُ مغزى

باترك كوكبورن

قد كنتُ نشرتُ، قبل فترةٍ،مادةً لباترك كوكبورن - وهو من كتّاب London Review of Books - حول سوق الكتب في شارع المتنبي ببغداد، لكن مادته هذه التي نشرتها الصحيفةُ في عددها الأخير ذاتُ مغزىً للذين يريدون أن يطلّعوا على صورة حالتنا كما يراها الآخرُ.

س. ي

قبل ستة شهور، مع تزايد في عديد الهجمات الفدائية والإنتحارية، اعتادَ صديقٌ لي عراقيٌ من رجال الأعمال
أن يطمْئنَ نفسه بالقول: ' لن يتحمل الأميركيون الإخفاقَ في العراق '، لكن ثقته تلاشت مع انحدار البلاد إلى الحرب الأهلية. قُتِلَ حوالي مائتي شيعيّ في هجمات انتحارية بكربلاء والكاظمية، الثاني من آذار. وقبل شهر حدثَ هجومٌ على القادة الأكراد وأتباعهم في العيد بأربيل (كردستان العراق)، وقُتِل مائة. الفظاعةُ تفوقُ سابقتَها. في كانون ثاني قُتِل واحدٌ وثلاثون عاملاً كانوا مصطفين لدخول البوابة الرئيسة للأميركيين في بغداد.

الطريقة الأسرع لاختبار التقدم الأميركي، هي في أن يسلك المرءُ الطريقَ السريع ذا المسارب الأربعة المتجه غرباً من بغداد إلى الفرات. إنه لَطريقٌ موحشٌ، شقّه صدّام حسين في ذروة الحرب الإيرانية- العراقية، ليكون خطَّ إمداداته الرئيس.

في مَخارج بغداد، قطع الأميركيون النخيل والأشجار أو أحرقوها، كي لا تكون ساتراً للفدائيين، لكن ليس ثمّت ما يشير أيضاً إلى أخطار في هذا الطريق. إلاّ أن كثيرين من الجنود الأميركيين قُتلوا، في الشهور التسعة الأخيرة، هنا، أو غير بعيدٍ، في أبو غرَيب، والفلوجة والخالدية والرمادي – أكثر من أي مكان آخر في العراق.

في أوائل هذا العام قالت القيادة العسكرية الأميركية إن عدد الهجمات على قواتها انخفض منذ القبض على صدام حسين في كانون أول. من الناحية الأخرى يقول جنود الميدان إنهم في الغالب لا يُبّلغون القيادةَ بما يتعرضون له من هجماتٍ وإطلاق نار، تجنّباً للتعقيدات.

قررتُ أن أقطع الأميال السبعين إلى الرمادي لأرى إن كان الطريق قد صار أكثر أمناً. لم نستطع الوصول. ففي ضواحي بغداد صادفْنا قافلةً متوقفةً مكونة من دبابات وناقلات جنود مدرّعة محمولة على شاحنات هائلة. أوقفَنا جنديٌّ: ' اكتشفنا قنبلةً على الطريق، ونحن نحاول نزع فتيلها '، وهكذا مع سيارات عراقية أخرى حِدْنا عن الطريق وسلكنا درباً ترابياً بين مجرى ماءٍ آسنٍ ومزبلة.

بعد نصف ساعة، وصلنا أبو غرَيب (حيث أضخمُ سجن في العراق)، في سوق ملأى ببسطات مترنحة تبيع الفواكه والخضار. خرجت من السيارة لأتكلم بهاتف الثريّا. وبينما كنت أتكلم وصلت دوريةٌ أميركية بسياراتها الهامفي. فجأةً توقفت العجلات، وركض ستة جنود نحو سيارتنا، موجهين بنادقهم إلى صدورنا. صرخوا بنا: ' اركعوا، وارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم '. فعَلْنا الأمرَين. أحد الجنود اختطف مني الثريّا. وعندما تفوّه محمد الخزرجي، السائق، ببضع كلماتٍ عربية، صاح به الجندي: ' اخرسْ فمك المنيوك " – Shut the fuck up

قلتُ إنني صحافيٌّ بريطاني. ظللنا راكعين، حتى سئمَنا الجنودُ وعادوا إلى عجلاتهم الهامفي. وبينما كنا نغادر أبو غرَيب سمعْنا خطيب الجامع القريب يندد بالإحتلال قائلاً: ' الاحتلال الآن يهاجم الجميع ويجعل الحياة مستحيلةً '.

بعد عدة أميالٍ، بلغْنا المنعطَفَ إلى بلدة الفلوجة، لكن الأميركيين وأفراد قوة الدفاع المدني العراقية كانوا يغلقونه. قال جنديٌّ عراقيّ سمينٌ وهو يريح يده على الرشّاش: ' الأميركيون يقومون بعملية كبيرة، وهناك معركة كبيرة مع المجاهدين حول جامع الفلوجة '. كان يبدو غير مهتمّ بما يجري، وأشار إلى دربٍ نستخدمه لدخول البلدة المطوّقة.

لم يكن ذلك اليوم عنيفاً، في هذا القسم من الطريق.

فقبل عدة أيامٍ أُسقطتْ هليكوبتر بلاك هوك للإخلاء الطبي بصاروخٍ حسّاس حرارةٍ قرب الفلوجة، وقُتِلَ الجنودُ التسعة الذين كانوا على متنها. ويُقتَل الكثيرون حين تتعرض سيارات المؤونة وعجلات الهامفي الخفيفة للعبوات المزروعة على جانبي الطريق. الجنود يسمون هذه العبوات ' قاتلة القوافل '، وهي مركّبة، عادةً، من قذائف مدفعية ثقيلة ١٥٥ملم و ١٢٢ملم مع صاعقٍ. هذه القنابل دمّرت الكثير من العجلات، مع مقتل جنديين أو ثلاثة كل مرة.

❖ ❖ ❖

يقول القادة العسكريون الأميركيون إن خسائرهم بلغت ٣٦٠٠ بين قتيل وجريح، وهو رقم غير كبير إذا أخذنا بالإعتبار عديد القوات. لكن الأمر ليس هكذا، فهناك نوعان من حروب الأنصار: النوع الأول يبني المقاومة خطوةً خطوةً إلى أن يتشكل جيشٌ نظاميّ، والمثال الكلاسيكي هنا هو مثال ماو تسي تونغ في الصين.

النوع الثاني يتضمّن هجمات متفرقة يقوم بها عدد محدود من الفدائيين، بقصد إدامة ضغطٍ سياسيٍّ لا يقاوَمُ، على العدوّ.

هكذا كانت طبيعة الحملة التي قام بها الجيش الجمهوري الإيرلندي ١٩١٩-١٩٢١، والأرغون في فلسطين في الأربعينيات، ومنظمة أيوكا بقيادة غريفاس في قبرص الخمسينيات، والجيش الجمهوري الإيرلندي، ثانيةً، في إيرلندة الشمالية.

هذا النوع الثاني من الحرب هو ما تواجهه الولايات المتحدة في العراق الآن، ولا تعرف كيف تنتصر فيه.

لندن ٢٠٠٤/٣/١٢

طائرُ النار: من باليرمو إلى كاراكاس

في العشرين من آذار ٢٠٠٤، كنتُ في باليرمو، عاصمة جزيرة صقلية (حيث وضعَ الشريفُ الإدريسيُّ يوماًما أولَ خرائطِ العالَم في عهد روجر الصقليّ ملكِ النورمان). ذهبتُ إلى هناك إحياءً ليوم الشعر العالمي، وكان معي محمد بنيس من المغرب وفاطمة قنديل الشجاعة من مصر، وشاعران وشاعرة من إيطاليا. المستشرقة الإيطالية المعروفة فرانشسكا كوراو كانت وراء الدعوة. قرأنا قصائدنا باللغة العربية مع ترجمة أمينة باللغة الإيطالية، أمّا

المكانُ فكان بيتاً عربياً قديماً تخلّى عنه الجيشُ مؤخراً، فاعتُبِرَ مَعْلَماً ثقافياً من مفاخر صقلية.

وماذا تفعلين الآن يا فرانشسكا كوراو؟

أنا أُعِدُّ الآن ديواناً للشعر العربي بالإيطالية، منذ العصر الجاهلي حتى اليوم...

إنه لَمشروعٌ ضخم!

نعم، وأنا أشتغلُ عليه منذ عشر سنين!

المفاجأة كانت حضور الشاعر التونسي منصف غشّام (وهو شاعرٌ صديقٌ يكتب أشعاراً جميلةً بالدارجة التونسية والفرنسية الرفيعة)، حيثُ أدّى مع فرقة مختلطة برنامجاً امتزجَ فيه الشعرُ والغناءُ والموسيقى والحركة الإيمائية.

لم أُطِلْ مكثاً في باليرمو، إذ كانت عليّ العودةُ إلى لندن في الثاني والعشرين لأغادرَ إلى كاراكاس، حيث إحياءُ

اليوم العالمي للشعر في ' المهرجان العالمي الأول للشعر في فنزويلا '.

❖ ❖ ❖

فنزويلا هي ثاني بلد من أميركا اللاتينية أزوره بعد كولومبيا. مساحة البلد ضعف مساحة العراق. رابع بلدٍ مصدّرٍ للنفط في العالم، وكان مع عراق عبد الكريم قاسم، مؤسسَي منظمة الأوبك. رئيس فنزويلا الحالي هو **هوغو رافاييل شافيز**، الذي نجا قبل أعوامٍ من محاولة انقلابٍ دبّرتها الولاياتُ المتحدة ...

نصيرٌ للفقراء، مكروهٌ لدى الأغنياء.

قد كنتُ تلقّيتُ قبل أشهرٍ دعوةً لحضور المهرجان من وزارة الثقافة الفنزويلية، باعتباري ' شاعراً وممثلاً لشعبي '. القصائد اختيرتْ بعناية، وتوافرت الترجمة الجيدة إلى اللغة الإسبانية.

في سفارة فنزويلا بلندن مُنِحتُ تأشيرة الدخول في اليوم نفسه (وهو أمرٌ نادرٌ هذه الأيامَ).

إذاً، على الطائر الميمون، طائرِ النار، إلى كاراكاس، يوم الثالث والعشرين من آذار!

❖ ❖ ❖

الطيران من لندن إلى كاراكاس يستغرق حوالي عشر ساعات في رحلة متّصلةٍ عبر المحيط، حيث ليس مع الماء إلاّ الماء، وحيث لا يصل المرءُ إلاّ إذا أحسَّ باليأسِ من الوصول!

في المطار استقبلني شابّانِ مبتسمان، حملَ أحدُهما لوحةً عليها إسمي. وهكذا من المطار إلى هلتون كاراكاس الضخم. ما أن دخلتُ البهوَ حتى رأيتُ محمد بنيس الذي سبقني إلى هنا ليحضر افتتاحَ المهرجان. من شعراء العربية كان عباس بيضون أيضاً.

عجباً!

كم هو صغيرٌ ورائعٌ عالَمُنا ...

❖ ❖ ❖

كانت قراءتي الأولى مساء الخامس والعشرين، مع عباس بيضون الذي قرأ قصيدته المشهورة ' صور '، والشاعر الصيني المقيم في الولايات المتحدة بي داو، وهو شاعرٌ ممتازٌ، خفيضُ الصوت، عميقُ النصِّ.

قرأتُ قصائدَ عدّةً بدأتها بقصيدتي ' أميركا، أميركا '. كنتُ أقرأُ باللغة العربية، بينما يجري عرضُ النصّ الإسباني

على شاشة عريضة.

وبالنظر لظروف فنزويلا الحالية (بمواجهة الولايات المتحدة) حظيتْ هذه القصيدةُ بالتصفيق ووقوف الحاضرين، وقد أشار وزيرُ الثقافة إلى هذا الأمر حين التقينا بعد أيامٍ مع الرئيس شافيز حول مائدةٍ مستديرة.

❖ ❖ ❖

يتصلُ هلتون كاراكاس، عبر جسورٍ وسلالمَ، بالمُجَمّع الثقافي الضخم (الذي يُعتبَر أضخم صرحٍ من نوعه في أميركا اللاتينية)، حيث المسرح والسينما والمعارض الفنية والورَش ودار النشر الوطنية ... إلخ، وحيث أقيمت الأماسي الشعرية في مسرحٍ يتّسعُ لحوالي ألف وخمسمائة شخص.

زرتُ، صُحبةَ شاعرةٍ أسترالية تجيد الإسبانية، دار النشر الوطنية، والتقينا بمديرها الذي أطْلعَنا على جهد مؤسسته المرموق في نشر الشعر الفنزويلي من الأنثولوجيا الضخمة إلى الديوان الصغير.

سألتُه عن عدد مطبوعات الدار سنوياً. قال إن الدار تصدر ثلاثين عنواناً في العام. كم نسخة تطبعون من ديوان الشعر؟ بين ألفٍ إلى ألف وخمسمائة نسخة. ودورة مبيع الديوان؟ بين عامٍ إلى عامين ...

لقد كانت الدواوين ذات طباعة ممتازة وأغلفة جميلة وأسعارٍ معقولةٍ بل رخيصة.

لكن الناس فقراء.

والأميّة منتشرة.

الآن تجري حملةٌ وطنيةٌ لمكافحة الأميّة.

وتحاول حكومةُ شافيز، جاهدةً، تحسين مستوى العيش للجماهير الكادحة، وبخاصة في الإسكان وتأهيل أكواخ الصفيح بمساعدةٍ من الدولة.

❖ ❖ ❖

كان اللقاء الأول مع الرئيس شافيز، حول المائدة المستديرة، في منتهى الهدوء واللطف.

تحدّث، قبله، وزيرُ الثقافة، عن مشكلات البلد والمشاريع الثقافية وانطباعاته عن المهرجان، وحين دخل الرئيس شافيز، ربّت على كتف وزيره، كي يتابع حديثه ...

كان شافيز يرتدي بدلةً بسيطةً أقربَ إلى " السفاري "، ويتهللُ مرحاً.

تحدّثَ حديثاً متوسط الطول (هو مشهورٌ بإطالة الخطاب)، عن المتاعب والمشاريع، عن الإعلام المعادي، ومحطات التلفزيون الرجعية في فنزويلا، وأفصحَ عن أحلامه في إعادة الروح إلى حركة عدم الإنحياز، وفي الثورة البوليفارية عبر أميركا اللاتينية ...

قال إن الفقراء يستعملون الإنترنت مجّاناً، وللمرة الأولى تقدم المدارسُ وجبة طعامٍ مجانية ...

خططٌ عن الإستفادة المثلى من ثروة البلد النفطية. إصرارٌ على صيانة الإستقلال والدفاع عن الكرامة الوطنية.

❖ ❖ ❖

اللقاءُ الثاني مع الرئيس شافيز كان على مائدة عشاءٍ في قصرٍ رئاسيٍّ عريق (العمارة عموماً ذات مؤشراتٍ إغريقية/ رومانية، وإسبانيولية/ موريسكية، باستثناء كوزموبوليتية الزجاج والمعدن في الحيّ التجاريّ).

كان هناك غناءٌ: مغنية ممتازة، وقيثار وجَلو.

وكان هناك طعامٌ:

قلوب نخيل، وأفوكادو

روست كريوليّ

رزٌّ وفليفلة

زوجيني وجَزَر

أنصاف جُوافة مع كْريم جُبن

خبز كاسافا

قهوة

عصير: باينأبل وتوت.

النبيذ: شيليّ

❖ ❖ ❖

حول المائدة، كنا أربعةً: شاعرة من أستراليا، شاعرٌ كهلٌ من فنزويلا، فتاةٌ فنزويلية تترجم إلى الإنجليزية

(الموائد حسب اللغات)، وأنا.

فجأةً جاء الرئيسُ شافيز إلى مائدتنا، وجلس رفقةَ أحد ضباطه الشبّان.

سيدةٌ لبنانية (أصلُها من الشويفات) مدرِّسة وشاعرة باللغة الإسبانية، تولّت ترجمة الحديث بيني وبين الرئيس.

شكرتُه لإقامة المهرجان، كما شكرتُ له موقفه الواضح ضد احتلال العراق وإعادة استعماره. قال باللغة العربية:

السلام عليكم.

وتمنى أن يتغلّب الشعبُ العراقيّ على محنته.

قال لي أيضاً بالحرف الواحد: هذه البلاد بيتك ...

❖ ❖ ❖

فنزويلا بلادٌ واسعةٌ.

الأمازون العظيم يبدأ من هنا، ليكون في البرازيل.

وقممُ الأنديز (حيث آلهة الهنود القدامى) هنا أيضاً ...

❖ ❖ ❖

وإلى الأنديز ذهبتُ!

قيل لي إنني سأقرأُ شعراً في **ميريدا** ...

وبالطائرة ذات المقاعد العشرين أذهبُ إلى ميريدا.

يا أُمَّ الله المقدّسة!

يا سيدةَ الثلج ...

Notre Dame de Neige

وقمّة فون همبولدت (٤٧٧٠متر فوق سطح البحر) المكللة دوماً بالثلوج، همبولدت الذي تحمل جامعة برلين اسمه، والذي قال عنه سيمون بوليفار إنه أعظم عالمٍ في العالَم ...

قمّة سيمون بوليفار (أكثر من خمسة آلاف مترٍ فوق سطح البحر) التي لم أرها ... حيث الآلهة القديمة اتخذت مساكنها وحيث الصقورُ المحوِّمة ونسور الكوندور ...

هنا في الأنديز، حيث فراشاتُ النهار

وفي الليل: فراشاتٌ هائلةٌ بحجم الوطاويط، سودٌ ومباغِتةٌ ...
هنا حيث البُرَكُ الربّانيّةُ تغذو أسماكَ التروت العجيبة!
سوف أشربُ رحيقَ الماندارين، أو اللوزِ المُرِّ ...
مباركةٌ أيتها الأرض !

لندن ٢٠٠٤/٤/٤

أوّل أيّار عالياً على الأسلاك

في أيام القهر والإحتلال، وانقضاضِ اللصوص والسماسرة المحترفين، كالكواسر، على شعبٍ مرتهَن؛ أقولُ، في هذه الأيام الصعبة، تشتدُّ حاجةُ المرءِ إلى الذكرى، بقدْرِ حاجته إلى آمال المستقبل؛ بل ربما وجد في الذكرى ما يعينه في معاينة ما يجري، معاينةً أكثرَ جدوى، وأعني هنا أن بمقدورنا إلحاقَ ظروفنا الرهيبة الحالية، بظروفٍ مماثلةٍ مررنا بها، أو مرّتْ بنا، طيلةَ المسيرة الشاقة لشعبنا التوّاقِ إلى الحرية والإنعتاق والعدل والحياة الرضيّة.

لم يكن ما نحن فيه الآن، أولَ احتلالٍ، وليس العملاءُ المتسلّطون علينا اليومَ، أولَ العملاءِ. لقد كان تاريخ العراق بمجمله كتابَ احتلالٍ مفتوحاً، باستثناء حكومتَي رشيد عالي الكيلاني وعبد الكريم قاسم اللتينِ طوَتا الكتابَ قبلَ أن تُطوَيا بالعنف الدموي والقهر، والتدخلِ الأجنبي المفضوح الفَظّ.

لنتذكّرْ، إذاً، فالذكرى، لا بُدَّ، نافعةٌ.

❖ ❖ ❖

قبل نصف قرنٍ تقريباً.

انتفاضة ١٩٥٢ قُمعتْ بقسوةٍ بالغة.

وعندما لم تُجْدِ حتى هذه القسوةُ أُقحِمَ الجيشُ، وأُعلِنت الأحكامُ العرفية، ودخلت البلادُ في دوّامةٍ جديدةٍ من القمعِ، وأُدخِلَتْ إلى السجون القديمة أفواجٌ جديدةٌ من أبناء الشعب وبناته، وبدا كأن كل شيءٍ انتهى إلى ما أراده العملاءُ.

هل الأمورُ بهذه السهولة؟

أتذكّرُ اليومَ، الأولَ من أيّار ١٩٥٣.

الصباح في البصرة رطبٌ عادةً.

والناس يستيقظون مبكّرين.

هكذا استيقظتُ أنا أيضاً، وخرجتُ إلى الشارع الرئيس أتمشّـى.

عجباً!

علـى أسـلاك الكهرباء، وعلـى امتـداد الشـارع، كـانت رايـات الأول مـن أيـار الحمراء، تتدلّـى، خافقةً بهدوءٍ، مع نسمات الصبح الخفيفة ...

الفكرة بسيطة:

يُشَـدُّ إلى الراية خيطٌ في نهايته حجرٌ صغير، وتُقذَفُ الراية إلى أعلى، ليلتفَّ الخيطُ على سلك الكهرباء فتتدلّـى الرايةُ

عاليةً، خافقةً، مع نسيم الصباح الخفيف الرطب.

❖ ❖ ❖

الأحوالُ، هذه الأيامَ، أشـدُّ سـوءاً.

وجنودُ الاحتلال قد يقتلون، رمياً بالرصاص، أيَّ فتىً يغامرُ بتعليق رايـةٍ حمـراءَ على سلك كهرباء.

لكنّ الأول من أيار سيعلن عن نفسه وبهائه، بألف طريقةٍ وطريقةٍ ...

لندن ٢٠٠٤/٤/٢٤

هل تحبّينَ ألفِيس بريسلي؟

في أوائل الخمسينيات (سَقياً لتلك الأيام !)، كنا بالبصرة، عُصبةً من مهووسينَ بالقراءة والكتابة، لا نكتفي بالمتاح، بل نطلبُ شبه المستحيل أحياناً. إنْ بدأ واحدُنا يقرأ إرنست همنغواي، مثلاً، فعليه أن يقرأ الرجل كلّه حتى لو اضطرَّ إلى طلب كتبه من خارج العراق؛ والمتعة النهائيةُ هنا، أن يؤشّرَ القارىءُ (وليكنْ أنا) على قائمة كتب همنغواي، في آخر الكتاب، حتى يستكملها، كتاباً، كتاباً. آنذاك سيحكي عدلاً، وإنْ جلسَ أعوجَ، ولسوف يمتلك لسانُه طلاقةً ما بعدها طلاقةٌ في أي حديثٍ عن الكاتب الأميركي الشهير؛ لِمَ لا؟ ألم يقرأه كاملاً غير منقوصٍ؟ وباللغة الإنجليزية أيضاً!

هذه العادة من أيام الصِّبا ظلّت تلازمني، حتى اليوم.

والحقُّ أنها من عاداتي الحميدة القليلة!

❖ ❖ ❖

الأمرُ ذاتُه، جرى لي مع ف.س. نايبول، حتى بعد أن نقلتُ إلى العربية كتابه ' في بلادٍ حرّة '،

In a Free State الذي نشرته ' دار المدى ' بدمشق، قبل وقتٍ غيرِ بعيد.

إن المرءَ واجدٌ، حتماً، حين يرحلُ رحلةً طويلةً مع كاتبٍ أصيلٍ، غرائبَ وعجائبَ:

أن يلتقي مع ألفيس بريسلي مثلاً!

بالمصادفة، عثرتُ على كتابٍ لنايبول، يمكن اعتباره من كتب الرحلات، عنوانه ' جولةٌ في الجنوب ' A Turn in the South، وهو الجنوب الأميركي، أي جنوب الولايات المتحدة الأميركية.

من الأماكن التي زارها نايبول في جولته، بلدة ' ممفيس ' مسقط رأس ألفيس بريسلي، ومكان متحفه الذي يُعتبَرُ، بصورةٍ ما، مزاراً لمحبّيه.

يقول نايبول: في أحد الأيام كان سائقٌ زنجيّ عجوزٌ يعود بي إلى الفندق، قال عن الزوار ' إنهم من البيض جميعاً.

ألستَ ترى؟ السود يكرهون الموسيقى الريفيةCountry Music ، لأنهم يعتبرونها موسيقى ذوي الرقاب الحمر

Redneck Music، فهي ترمز إلى من اضطهدوهم، وإلى كل ما يكرهونه '.

سألتُه إن كان لبريسلي مثل هذا

الموقف إزاء السود، فقال: مَن يذكر السود أمام بريسلي كمن يذكر اليهود أمام هتلر. أتعرف ماذا قال؟

كلُّ ما أريده من السود أن يشتروا اسطواناتي، ويُلَمِّعوا أحذيتي!

إن هذا القول موَثَّقٌ '.

❖ ❖ ❖

صورةُ المُغَنّي، اضطربتْ قليلاً لديّ.

في أحد الأيام التقيتُ بالشاعر الزنجي الأميركي الشهير أميري بركة.

كان ذلك في ميديين بكولومبيا، ثم في كاراكاس العاصمةِ الفنزويلية هذا العامَ ٢٠٠٤

في بهو الفندق بكاراكاس سألتُه عن الأمر، قال (وهو حجّةٌ في الموسيقى الزنجية ومؤلفٌ كتب):

أتعرفُ أن بريسلي تعلَّمَ حتى طريقته في العزف من الموسيقيين الزنوج؟ قلّةُ وفاءٍ!

❖ ❖ ❖

وتمضي الأيام ...

في ليلةٍ ما، كنتُ أقلِّب مواقع الإنترنت، حتى بلغتُ موقعاً عجيباً هو موقع ' إرشيف الأمن القومي ' الأميركي، National Security Archives وإذا بالموقع يكشف وثائقَ جديدة تحت عنوان ' ألفيس ونيكسون '، ومن بينها رسالةٌ بخط يد بريسلي موجّهة إلى الرئيس الأميركي نيكسون، كتبها وهو على متن طائرة أميركان أيرلاينز، المتوجهة إلى واشنطن، يوم ٢١/١٢/١٩٧٠، تقول الرسالة:

عزيزي السيد الرئيس

أولاً، أريد أن أقدّم نفسي. أنا ألفيس بريسلي، معجبٌ بك وأكنّ احتراماً فائقاً لوظيفتك. تحدثتُ إلى نائب الرئيس آغنيو في بالم سبرنغز قبل ثلاثة أسابيع، معبّراً عن قلقي حول بلدي. ثقافة المخدرات، والعناصر الهيبية،

والـSDS، والفهود السود، إلخ، لا يعتبرونني عدوَّهم، مثل ما يعتبرون المؤسسة حسب تعبيرهم. أنا أسمّي المؤسسة أميركيةً، وأحبّها. سيدي أنا قادرٌ على تقديم أي خدمة أستطيعها لمساعدة بلدي. وليس لي من غاياتٍ ودوافع سوى هذه المساعدة ولهذا لا أريدُ أن أحظى بموقعٍ أو وظيفةٍ. أنا أستطيع أن أكون أكثرَ فائدةً لو أصبحتُ عميلاً فيدرالياً حرّاً Federal Agent at Large، أؤدي الأعمال بطريقتي الخاصة، من خلال علائقي مع الناس من مختلف الأعمار.

أنا مطربٌ أولاً وأخيراً، لكني أحتاج إلى تفويضٍ فدراليّ. أنا في هذه الطائرة مع السناتور جورج موري، وقد كنا نتداول المشكلاتِ التي تواجهها بلادنا.

سيدي، أنا مقيمٌ في فندق واشنطن، الغرف: ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧. ومعي يعمل رجلان هما جيري شلينغ وسوني ويست. وأنا مسجّل في الفندق باسم جون بوروز، وسأظل مقيماً حتى أحصل على تفويض

عميل فيدراليّ. وقد قمت بدراسة في العمق حول المخدرات وأساليب غسيل الدماغ الشيوعي، وأنا الآن في الخضمّ، حيث بمقدوري أن أقدم أفضل شيء.

أنا سعيدٌ بتقديم العون، مادام سرّاً. بإمكان موظفيك، أو أيِّ شخص آخر، استدعائي في أي وقت، اليوم، أو الليلة، أو غداً. لقد رُشّحتُ لأكون في العام القادم أحدَ أفضل عشرة شبّانٍ في أميركا. وسيكون ذلك في الثامن عشر من كانون ثاني، في بلدتي ممفيس، بولاية تنيسّي. أبعثُ إليك بملخّص سيرتي، كي تتفهّمَ بصورةٍ أفضلَ مسعاي. أحبُّ أن ألتقيك، فقط لأقول مرحباً، إن لم تكن جدِّ مشغولٍ.

مع فائق الاحترام

/س/ ألفيس بريسلي

ملحوظة: أظنّ، يا سيدي، أنك كنتَ أيضاً واحداً من أفضل عشرة شبّانٍ في أميركا.

لديَّ هديةٌ خاصةٌ، لك، أريدُ أن اقدّمها، وبإمكانك قبولُها، أو أنني سأحتفظُ بها إلى أن يكون بمقدوركَ أخذُها.

ملحوظةٌ مني أنا مترجِم الرسالة المسكين: الهدية كانت مسدس كولت ٤٥ Colt 45 Gun، وألبوم صور عائلية.

لندن ٢٩/٤/٢٠٠٤

الجندب الحديديّ

في ١٩٧٩، كنّا في بيروت، بين أضلاع ما سُمِّيَ الكيلومترَ الأخير، وقد تأكّدَ أنه أخيرٌ، بعد أن طردتنا دباباتُ آرييل شارون في صيف ١٩٨٢ وخريفها، فلم نجدْ، بَعدها، أرضاً ثابتةً ثباتَ ذلك الكيلومتر المربع الأخير.

كنتُ أعرفُ أن سليم بركات مقيمٌ مثلنا، في الفاكهاني.

سألتُ عن مَظانِّه، وعرفت عنوانه. (أعتقدُ أنه كان يسكن عمارةً يحرسُها مُرابطو عبد الله قليلات)

دخلتُ المبنى، وتوجّهتُ إلى باب المسكن.

ضغطتُ الزرَّ.

مضت دقائقُ، حتى لقد خِلْتُ أنني أخطأتُ المقصدَ ...

البابُ يوارَبُ بطيئاً.

ومن الفتحة بين الباب والجدار تظهر فوّهةُ مسدسٍ، تتلوها ' سبطانةٌ ' كأنها لطولها وشناعتها سبطانةُ بندقيةٍ.

- من؟

- أنا سعدي يوسف، يا سليم بركات ... أرجوكَ اخفضْ فوّهةَ المسدس!

يفتح سليم البابَ متهللاً.

❖ ❖ ❖

أي قراءة لشعر سليم بركات، لها مستلزَماتٌ (كما أرى)، ومن أول هذه المستلزَمات الإلمامُ بجانبٍ أساسٍ من شخصية سليم، هو جانب الطفولة والفتوّة المبكرة.

آنذاك ستُفتَحُ مغاليقُ عدّةٌ ' وتنكشف أسرارٌ كانت تبدو مستغلقةً. الكلماتُ والأعلامُ ستتجلّى، بسيطةً،

ذاتَ معنىً مؤصَّلٍ في الحياة والسيرةِ.

المدخلُ الأولُ لهذا الطريق الطويل هو كتابه 'الجندب الحديديّ' – سيرة نثرية.

قلتُ لسليم بركات، مرةً:

إنكَ أعظمُ كرديٍّ بعد صلاح الدين!

واليومَ، بعد رُبع قرنٍ من مَرِّ الزمان، أعود إلى القولة ذاتها، وأنا أكثرُ اطمئناناً إلى صوابها، بعد أن شهدتُ ما شهدتُ، و عرفتُ من عرفتُ.

لندن ٢٠٠٤/٥/١٢

- **ملحوظة: كُتبت المادة بطلبٍ من الشاعر قاسم حداد الذي يستضيف في موقع 'جهة الشعر' على الإنترنت، هذه الأيامَ، سليم بركات.**

يوميّاتٌ عراقيّةٌ

كتبها: باترك كوكبورن

" قد كنتُ قدّمتُ، من قبلُ، مادّتين لـ "باترك كوكبورن Patrick Cockburn ، إحداهما عن شارع المتنبي ببغداد، والأخرى عن رحلة خطرةٍ للرجل في المجاهل العراقية. والآنَ أقدمُ له مادةً ثالثةً كتبها ببغداد في السابع من شهر أيّار هذا، ونشرها في " مجلة لندن للكتاب " London Review of Books في عددها الأخير Volume26-Number 10 بتاريخ ٢٠/٥/٢٠٠٤،

المادة طويلةٌ لكنني جهدتُ كي أقدّمها إلى القارىء المعنيّ بمعرفة صورتنا الملتقطة من زاويةٍ ما. إنْ استدعت هذه المادة تعاليقَ فأرجو أن توجَّه إلى الكاتب لا إلى المترجِم ".

سعدي يوسف

الصور الفوتوغرافية التي نُشرت لـتُظهر ما يمكن أن يتعرض له السجناءُ العراقيون على أيدي سجّانيهم، سمحتْ للعالم الخارجي برؤية ما كان العراقيون عرفوه منذ أمد :الاحتلال في منتهى الوحشية. في بغداد كانت القصص تروى منذ شهورٍ عن التعذيب المنهجي في السجون. أمّا في الولايات المتحدة فقد كان تأثير الصور أعظم، بسبب نجاح الإدارة السابق في التحكُّم بالأنباء القادمة من العراق. في تشرين أول الماضي كتبتُ مادةً عن جنودٍ أميركيين يجرفون مزارع النخيل قرب " بلد "، شماليّ بغداد، عقاباً للمزارعين المحليين إثرَ كمينٍ. بعد نشر المادة تلقّيتُ سيلاً من رسائل البريد الألكتروني الأميركية الغاضبة، تنفي أن يكون الجنودُ الأميركيون فعلوا أمراً كهذا.

❖ ❖ ❖

القادة المدنيون والعسكريون [الأميركان] في العراق يعيشون في عالمٍ خياليّ غريب. هذا العالم يُعرَض يومياً في القاعة الكهفية في **مركز المؤتمر الإسلامي** القديم ببغداد، حيث يعقد الناطقون باسم التحالف مؤتمراتٍ صحافية يومية. الطرف المدني يمثله **دان سينور** من سلطة التحالف المؤقتة (س. ا. م)، وهو شخصٌ معروق الوجه، اسود البزّة، تمَّ استيراده مؤخراً من المكتب الصحافي للبيت الأبيض. إنه لا يُخفي حقيقة أن عمله هو تقديم صورةٍ عن العراق تساعدُ في إعادة انتخاب الرئيس بوش. وعندما يمارس هواية الركض في الجيب الأميركي ذي الحراسة الكثيفة في ما يسمى المنطقة الخضراء، فإنه يرتدي فانيلةً كُتبَ عليها: **بوش وشيني ٢٠٠٤**

سينور غير مهتمّ بالمقاومة العراقية؛ فهي لا تعني لديه أكثر من عصابةٍ صغيرةٍ من إرهابيي القاعدة وأتباع صدّام الأشداء الذين يحاولون، عبثاً، منعَ ولادةٍ عراقٍ جديد.

❖ ❖ ❖

الأكثرُ بلاهةً هو الجنرال **مارك كيميت**، نائب مدير عمليات التحالف، المتّسِم بعينين ذواتَي عزمٍ فولاذيّ.

وهو مغرمٌ بأن يرشّ على أجوبته بهاراً من مطبخ عائلته، آل كيميت. في أحد الأيام شكا له صحافيٌّ عراقيٌّ من أن الهليكوبترات الأميركية تُفزِعُ أطفال بغداد حين تهدرُ وهي تحلِّقُ خفيضةً، سريعةً، على السطوح. كان جواب كيميت أنه أمضى معظم حياته، بعد البلوغ ' إمّا قرب قاعدة عسكرية، أو فيها، وأنه تزوج امرأةً تعلِّمُ في المدارس '، وأنك في تلك القواعد ' غالباً ما تسمع إطلاق نيران الدبابات. غالباً ما تسمع المدافع تهدر'

وأضاف الجنرال متفاخراً ' لكن السيدة كيميت نجحت في إبقاء تلامذتها هادئين بالرغم من هدير المدافع المستمر، بأن جعلتهم يفهمون أن هذا الهدير والزئير ليس سوى أصوات الحرية '.

وحثَّ كيميت، الصحافيَّ، على الذهاب إلى المنزل(منزل الصحافيّ)، كي يشرح لأطفاله أنهم لم يصبحوا قادرين على العيش أحراراً، إلاّ بفضل هدير المدافع هذا، وهو صوت الحرية.

واقعُ الأمر أن الهليكوبترات كانت تحلّقُ شديدةَ الإنخفاض والسرعة، في الشهور الستة الأخيرة، من أجل أن يكون إسقاطُها أصعبَ على المقاوِمين.

لقد أُسقطتْ هليكوبتراتٌ عدّةٌ حول الفلوجةِ بصواريخ أرض- جوّ، حسّاسةٌ للحرارة، محمولة على الكتف. عراقيون قلائلُ يشاركون آل كيميت رأيهم الظريفَ عن القوة الجوية الأميركية. فبعد يومٍ من سماعي رأي الجنرال زرتُ **موساك**، وهو محاسبٌ مسيحيّ، يعمل، عادةً، في محطة كهرباء الدورة ذات المداخن الأربع العالية التي تسيطر على خط الأفق جنوبيّ بغداد. كان في بيته، لأن المولِّدات العملاقة أُطفِئتْ، والمهندسين الألمان من شركة سيمنس الذين كان عليهم نصبُ مولِّدات جديدةٍ ... هربوا من بغداد خوفَ الإختطاف. جدران **حيّ الإسكان**، حيث الطبقة الوسطى الأدنى، وحيث يسكن موساك، كانت مغطاةً بشعارات تؤيد المقاومة. شرح لي موساك الأمر قائلاً: ' قبل بضعة أسابيع، أطلقَ رجلٌ غير معروفٍ نار رشاشته الكالاشنيكوف على هليكوبتر.

الهليكوبتر ردّت على ذلك بإطلاق صاروخَين، أصابا خيمةً كان فيها مجلسُ فاتحةٍ لإحدى العوائل، مما تسبّبَ في مقتل شخصين، وجرح خمسة عشر'. بعد ذلك ازداد تأييدُ حيّ الإسكان للمتمردين.

لم يتّضح إلاّ الشهرَ الماضي، بعد أن اجتاحت الإنتفاضاتُ العراقَ، أن العسكر الأميركان أقاموا كاملَ استراتيجيّتهم، على تصديقهم دعاوتَهم ذاتَها.

لقد أقنعَ الآمرون الأميركانُ أنفسَهم أن وخز الدبابيس لهجمات المقاومة آتٍ من مؤيدين للنظام السابق، ومن مقاتلين أجانب غامضين (وبالرطانة العسكرية الأميركية:FRLs or FFs). وصاروا يتباهون بالحديث عن الشرطة العراقية الجديدة، والوحدات العسكرية وشبه العسكرية، التي درّبوها. هذه القوات المقرر لها أن تبلغ في عديدها مائتي ألفٍ، ستحلّ، تدريجاً، محلّ القوات الأميركية.

مدهشةً كانت السرعةُ التي انهارت فيها الخططُ الأميركية بصدد العراق، لكن السبب واضحٌ:

العسكر الأميركان، و **بول بريمر** نائب الملك الأميركي The US viceroy، ورئيس س.ا.م، تسبّبا في وقتٍ واحد، في إثارة مواجهات مع المجموعتين الرئيستين في العراق، الشيعة والسنّة العرب، الذين يشكّلون معاً، ثمانين بالمائة من السكّان.

في أواخر شهر آذار، قرر بريمر التضييقَ على رجل الدين الشيعي الراديكالي مقتدى الصدر بإغلاق صحيفته ذات الإنتشار المحدود، **الحوزة**، والقبض على مساعده الرئيس في النجف. معظم الشيعة يرونه أهوجَ عنيفاً؛ بريمر جعله شهيداً. واجتمعت الديانة والوطنية. هكذا انفجرت في وجه بريمر محاولتُه تهميشَ الصدر،

واستولى مسلّحو جيش المهدي الذين يرتدون السواد على أجزاء كبيرة من جنوبيّ العراق، بضمن ذلك النجف والكوت.

وبعد أيامٍ قليلةٍ أثارَ الجيشُ الأميركيُّ أزمةً أخرى، مع السنّة هذه المرّة.

ثأراً لقتل أربعة رجال أمنٍ أميركيين والتمثيل بجثثهم، في الفلوجة، الحادي والثلاثين من آذار، طوّقت ثلاث كتائب من جنود البحرية (المارينز) المدينةَ وشرعت تقصفها. اعتبرَ العراقيون ذلك نوعاً من العقاب الجمعي. وخلال أيامٍ قليلة نجح المارينز في تحويل أهالي الفلوجة من عنودين مخاطِرين في رأي معظم الناس، إلى رموزٍ للوطنية العراقية الحديثة.

وبدلاً من أن ينحصر التمردُ في حدود الفلوجة، فإن حصار المدينة شجّع على اندلاع انتفاضاتٍ أخرى في البلدات والقرى السنية على امتداد الفرات.

وحينما بدأت السيطرة الأميركية على العراق تنحسرُ، كانت استجابة الرسميين رفضَ تصديقِ ما يحدث.

فقط، بين حينٍ وآخر، كانت تظهر علاماتُ فزَع.

موقع س.ا.م على الإنترنت، مثلاً، مملوءٌ عادةً بمعلوماتٍ غزيرةٍ عن مشاريع إعادة الإعمار وتحسين الطاقةِ الكهربائية، كما أن فيه أنباءً عن الأمن، الهاجسِ الرئيسِ لرجال الأعمال الأجانب، المشاهدين الأساسيين .

لهذا الموقع. مع اشتداد الأزمة، قرر الـ س.ا.م أن الأخبار هي أسوأ من أن تُبَثّ. وأعلنتْ رسالةٌ موجزة على الموقع، بلا مواربة: **لأسبابٍ أمنيّةٍ لا توجد تقارير أمنيّة.**

كان الجنود الأميركيون يُقتَلون، **لأنّ آمِريهم لم يستطيعوا تصديقَ أن التمرد كان ينتشر.**

كان الجيش لا يزال يرسل قوافلَ من صهاريج وقودٍ عبر الطريق السريع بين بغداد والفلوجة، بينما كان الأنصارُ

Guerrillas استولوا على الطريق. وإذ مرّت على التمرد خمسة أيام، وبينما أنا أحاول بلوغَ الفلوجة، أو أن أكون ـ في الأقل ـ على مقربة منها، وقعتُ في كمين بأبو غرَيب، وهي بلدةٌ من مساكنَ مبعثرةٍ، ومعاملَ مهجورةٍ، وبساتينِ نخيلٍ تُقدمُ ساتراً جيداً للأنصار.

لم نعرف أن الحرب اقتربت كثيراً من بغداد إلاّ حين رأينا أربع دبابات، توجّه مدافعها إلينا، وتغلق الطريق الواقع خلف مطار بغداد. في كل مكان من أبو غرَيب، ترى على الحوائط شعاراتٍ طرية الدهان ضد الأميركان.

إحدى هذه الكتاباتً تقول: '**سندقٌ على أبواب الجنة بجماجم الأميركان**'، بينما تقول أخرى: '**سنّة شيعة = الجهاد ضد الاحتلال**'.

على مبعدة، كان بإمكاننا رؤية ثلاثة أعمدة من الدخان الأسود الزيتي تَصّاعَدُ في السماء. قال لنا أهالي البلدة إن قافلةً أميركيةً هوجمتْ قبل ساعاتٍ قليلة. قررنا أن نتبع قافلة مساعدات متجهة إلى الفلوجة؛ شبّانٌ يلوِّحون بأعلامٍ عراقيةٍ من مؤخرات السيارات. الطريق الرئيسُ مغلقٌ، لهذا سلكنا مسالك ضيقةً خلال قرىً متهالكة مترية يصفِّقُ أهلُها لدى مرورنا. كانت مساعدة الفلوجة شعبيةً كما يبدو. كنا نلفّ وندور في الريف،

في ما حسبناه لانهايةً، إلى أن وجدنا أنفسنا، فجأةً، عند الطريق الرئيس. ما إن بلغناه حتى مرت قافلة صهاريج بترول أخرى يرافقها جنودٌ أميركيون في عجلات هامفي. هوجمت القافلة على الفور. حين سمعنا نباح الرشاشات وهسيس الآر ـ بي ـ جي فوق رؤوسنا، حُدنا عن الطريق إلى أرضٍ خلاء، وانبطحنا، ضاغطين وجوهنا على الرمل. سوّاقٌ عراقيون آخرون استتروا قربنا. صاح بهم باسل القيسي، سائقُنا: انزعوا كوفياتكم وإلاّ ظنكم الأميركان مجاهدين، وقتلوكم ...

حدثَ توقُّفٌ لإطلاق النار، فعُدنا إلى السيارة، ومضينا في طريقٍ ضيقٍ بعيداً عن القتال. تحرّكنا ببطء، فقد أوصيتُ السائقَ بألاّ يثير غباراً يجلبُ الإنتباهَ إلينا. بلغْنا قنطرةً على قناة، وإذا بعدة مجاهدين يهرعون إلينا حاملين رشاشةً ثقيلةً ذات مسند ثلاثيّ وقاذفاتٍ آر ـ بي ـ جي. توقّفوا عند القنطرة ينصتون إلى إطلاق النيران الذي اندلع ثانيةً، ويبدو أنهم لا يعرفون مكان منطلَقه. صاح أحدهم: ماذا يحدث؟

باسل الذي لم يشأ إثارة شكوكهم بالإبتعاد عجلاً، أوقفَ السيارةَ، وقال: "كنا في طريقنا إلى الفلوجة نحاول إيصال مساعدة، لكن أولئك الخنازير فتحوا النار علينا."

القافلة التي رأيناها تتعرض للهجوم، كانت، كما أظنُّ، الرابعةَ التي تقع في كمين، على هذا القسم من الطريق، خلال أربع وعشرين ساعة. عدة جنودٍ أميركيين قُتلوا في القتال السابق، كما أسرَ المقاومون جنوداً آخرين.

ليومين أو ثلاثة، كان القادة العسكريون الأميركان لا يزالون يعتقدون أنهم يواجهون عدداً محدوداً من الـFRLs و الـFFs، غير مصدِّقين أن انتفاضاتٍ متزامنةً كانت تندلع في البلدات كلها، وصولاً إلى الحدود السورية. تصاعدت الإصابات. وقُتِلَ اثنا عشر من مشاة البحرية في معركةٍ شرسة بالرمادي، التي لا يفصلها عن الفلوجة سوى النهر. وقُتلَ خمسةٌ آخرون في بلدة القائم، على مبعدة أميالٍ قليلةٍ من الحدود السورية.

ثمت أنباءٌ أخرى مثبِّطةٌ للقادة الأميركيين. إحدى كتائب الجيش العراقي الجديد رفضت التوجُّه إلى الفلوجة:

قال الجنود إنهم غير مستعدين لمقاتلة إخوتهم العراقيين. الكتيبة السادسة والثلاثون من قوة الدفاع المدني العراقية التي يبلغ عديدُها أربعين ألفاً، وهي وحدةٌ خاصةٌ مكوّنة من ميليشيات الأحزاب المعارضة، قاتلت جيداً أول الأمر.

وادّعت الأحزاب أن هذا دليلٌ على أن رجالهم فقط هم المؤهلون ليكونوا نواة الجيش الجديد. لكن، بعد أحد عشر يوماً على خط النار، تمرّدت هذه الكتيبة أيضاً، وظلَّ الأكراد، وحدهم، مستعدين لمواصلة القتال.

لم يكن التمرد والفرار على هذا القدْر من المباغتة. رجال الشرطة العراقيون أخبروني دائماً أن عملهم هو القبض على المجرمين لا على المقاومِين. والجنود الذين درّبهم الأميركيون يتقاضى واحدُهم مبلغ ستين دولاراً في الشهر،

أي نصف ما يتقاضاه كنّاسٌ في بغداد.

خلال الأزمة، التقيت بخمسةٍ من الزوار الشيعة في طريقهم إلى كربلاء، سيراً على الأقدام. كانوا يرتدون السوادَ ويحملون رايةً خضراء عليها شعاراتٌ دينيةٌ. أبدَوا مشاعرَ مألوفةً معادية للأمريكيين: المفاجأةُ كانت حين أخبروني أنهم جميعاً جنودٌ في قوات الدفاع المدني العراقية.

لماذا فشل الدورُ الأميركي في العراق هكذا؟

لِمَ كان على المارينز الأميركيين أن يستدعوا جنرالاً من الحرس الجمهوري لصدّام حسين يتولّى مسؤولية الأمن في الفلوجة، بينما حُلَّ الحرس الجمهوري، باحتقارٍ بالغٍ، من جانب بريمر في أيّار العام الماضي؟

لِمَ كانت هذه الطريقة الوحيدة لإنهاء حصارٍ دامَ ثلاثة أسابيع؟

استفتاء أجرته الـCNN بالإشتراك مع صحيفة USA Today في شهر آذار أظهرَ أن ٥٦ بالمائة من العراقيين يريدون الجلاء الفوري لقوات التحالف _ وكان هذا قبل الإنتفاضات.

العراق يحكمه العسكر الأميركيون أساساً.

وقد نُحِّيَتْ وزارة الخارجية قبل الحرب. العسكريون ذوو البدلة، ومدنيو الـ س.ا.م، يقدمون تقاريرهم منفصلةً إلى البنتاغون. والجيش الأميركي يخطط وينفذ سياساته بمعزلٍ عن بريمر.

في ردِّ فعلٍ إزاء الفزع من هجمات المقاومة، أعلن الـ س.ا.م مؤخراً إغلاقَ الطرق السريعة خارج بغداد أمام

السيارات المدنية. وكانت لهجة الإعلان تنطوي على التهديد: ' في حال استخدام المدنيين الجزء المغلق من الطريق السريع فإنهم سيواجَهون بقوّةٍ قاتلة '. هكذا كان تحذير الـ س.ا.م، أي أن المدنيين سوف يُطلَق عليهم الرصاص. خلال ساعات أعلنَ الجيش الأميركي أنه لا يعرف عن الأمر شيئاً، وأنه لن ينفذ ذلك. وكان على بريمر أن يتخلى عن الفكرة.

إن هذا لأكثرُ من الفُرقة التقليدية بين المدنيين والعسكريين. بريمر، الذي أظهرَ، بمثابرةٍ، سوءَ تقديرٍ وحُكمٍ خلال العام الماضي، ظلَّ يحصرُ صنعَ القرار بدائرةٍ ضيقة. وأعضاء كبار الشأن في الـ س. ا.م يقولون إنهم لا يعرفون أكثر مما يقرأون في الصحف. لكن قراراتٍ هامة مثل حلّ الجيش العراقي يتّخذها في واشنطن، بول وولفوفيتز وشركاه.

الهدف الأعلى للبيت الأبيض هو الحصول على أنباء من العراق مناسبة للحملة الرئاسية. الجشع الهائج للشركات التي تقدم عروضها لـ س.ا.م، وحُمّى الخصخصة لدى المحافظين الجدد قادت إلى إخفاقاتٍ مدمِّرة. المثال على ذلك أن عقد إقامة محطة تلفزيونية تسند الولايات المتحدة، رسا على الـSAIC ، وهي شركة مفضلة

لدى البنتاغون، لكنها لا تتمتع بخبرة في التلفزيون. وبالنتيجة صار معظم العراقيين يتلقّون الأنباء من فضائيتي الجزيرة

والعربية، اللتين تعاديانِ الاحتلال الأميركي.

المارينز هم من حاصروا الفلوجة، محوِّلينَ المدينةَ إلى رمزٍ وطنيّ، لكن بريمر هو من بدأ المواجهةَ مع مقتدى الصدر، فاشلاً في إدراكِ مدى الإحباطِ الذي يشعر به الملايينُ الخمسة عشر أو الستة عشر من الشيعة العراقيين، أغلبيةُ السكّان، إزاءَ الاحتلال. هم يعتقدون أن الولايات المتحدة تريد إبعادهم عن الحكم، بتأجيل الإنتخابات، واستخدامِ الأكراد للإبقاء على تحكُّمهم في البلاد.

جيش المهديّ، ميليشيا الصدر، ليس جذاباً. لقد صادفتُ جمعاً منه وأنا في طريقي إلى النجف، حيث التجأ الصدر. كانوا يحرسون حاجزاً خارج الكوفة تماماً. كنتُ أعتمرُ كوفيّةً منقّطةً بالأحمر والأبيض، وأجلسُ حذراً

في الحوض الخلفيّ لأن الأجانب كانوا يُقتَلون، ويُطلَق عليهم الرصاص في المنطقة. جيش المهدي ما كان يريدني أرتدي الكوفية. أشياء عدّةٌ يكرهونها فيَّ. كانوا مرتابين جداً إزاء هاتف الستلايت والموبايل والكامرا. للوهلة الأولى حاولوا دفعي في سيارةٍ أخرى، ثم قرروا أن يستخدموا سيارتنا. ثلاثة مسلّحين مع رشاشاتهم وأشرطة الرصاص تغطي صدورهم، حشروا أنفسهم في السيارة. تبعَتنا سيارةٌ أخرى، ملأى أيضاً بالمسلحين،

نحو مرقد الإمام علي، ذي القبّة الخضراء، في وسط الكوفة _ حيث مقرُّهم.

ما إن توقّفنا خارج الجامع حتى استراح المسلحون قليلاً. قدّم أحدهم سجارةً لي، فأخذتُها، بالرغم من أني كنتُ أقلعتُ عن التدخين. معظمهم جاء من أكواخ مدينة الصدر ببغداد. تحدثوا حول الدفاع عن العراق ضد أميركا وإسرائيل، وحول سرقة بترول العراق. شعاراتهم كانت وطنيةً أكثر منها دينية. دُهشوا بصورةٍ خاصة لنسخة من النيويوركر وجدوها في صندوق السيارة. أحد المسلحين أشار بغضبٍ إلى الأشرطة والنجوم الصغيرة في إعلانٍ ما.

أخيراً جيءَ بهاتفي الموبايل وجواز سفري، وإنْ لم يُؤتَ بهاتف الستلايت الذي رأيتُه يختفي في جيب أحد المسلحين. لم تكن اللحظة مناسبةً للمطالبة به.

انتفاضاتُ نيسان قد تكون نقطة تحولٍ للولايات المتحدة في العراق.لقد اعتمدت القوةَ المسلحةَ، واحتقرت حلفاءَ محليين، لكن قوّتها المسلّحة لم تترجَمْ في نفوذٍ سياسيّ. لم تجرؤ على اقتحام الفلوجة والنجف، مع أن عديد المدافعين عنهما أقلُّ من ألفَينِ ذوي سلاحٍ خفيف.

للولايات المتحدة أصدقاء قلائلُ في العراق، لكن حتى هؤلاء الأصدقاء يشعرون الآنَ بأن الاحتلال هو في الجَزْرِ.

لندن ٢٠٠٤/٥/١٧

لا تقتلوا الشهرستاني!

يبدو أن المستعمِرين، شرعوا يفكرون مرّتين قبل أن يُقْدِموا على أمرٍ يظنونه ذا مغزى.

والملحوظُ، في الفترة الأخيرة، يأسُهُم من عملائهم الفندقيين (نسبةً إلى فندقي الهيلتون متروبوليتان ونوفوتيل اللندنيين، حيثُ أقيمت حفلاتُ الدعارة السياسية، تمهيداً للإحتلال)، ومحاولتهم إبعادَ الشبهةِ عن نواياهم، باستبعاد هؤلاء العملاء، ولو إعلاميّاً، والإستعانة بالأخضر الإبراهيمي ليدبِّر صفقةً تحفظُ ماءَ الوجهِ والسيطرةَ المطْلقةَ في آنٍ؛ صفقةً مَعْنيّةً بالمَظهر لا بالمَخبر، وهذا هو أقصى ما خُوِّلَهُ الرجلُ، إن أردنا الدقّة.

من هنا جاءت لعبةُ الأوراق المهترئة ذات الوجوه الكريهة المعروفة، والدائرين معهم في دائرة العار: لعبة الحيّة والدّرَج ...

لن يتغيّر شيءٌ:

عساكر الاحتلال، باقيةٌ مع تعزيزٍ.

الضباط السياسيون يشرفون على الصغيرة والكبيرة في الإدارات.

ثروة العراق البترولية والأمور المالية بأيدي المستعمِرين.

❖ ❖ ❖

لِمَ هذه الضجةُ إذاً؟

لِمَ الذهابُ إلى مجلس الأمن؟

أهذا كله كلامٌ فارغٌ؟

أعتقدُ أن الأمر خطيرٌ جداً ...

وهو بالبساطة كلِّها: **الانتقال من مرحلة الاحتلال إلى مرحلة الاستعمار.**

ولأنّ العهد الإستعماري سيكون طويلاً (كما يتمنى أصحابُه ويمهِّدون)، فالحاجةُ تكون ماسّةً، الآن، إلى قرارٍ دوليٍّ، يضمن تغطيةً قانونيةً للعملية الاستعمارية.

❖ ❖ ❖

لكنْ، ما دخْلُ الشهرستاني (الخبير النووي)، في هذا؟

إنه الآن خارج الصورة؛ مهتمٌّ بتعليم شباب كربلاء على الكومبيوتر ... وخيراً فعلَ.

المستعمِرون يبحثون عن وجهٍ نظيفٍ للتستُّرِ على لعبةٍ قذرةٍ.

لقد يئسوا من وجوه عملائهم الكريهة، ولا يجدون حرجاً في إحراج رجلٍ نظيفٍ، خدمةً لمصالحهم، ولو أدّى ذلك إلى تعريض حياة الرجل للخطر، في مثل هذه الظروف.

لندن ٢٠٠٤/٥/٢٦

بيـن مَـوتَيـنِ

سلافو جيجيك يكتب عن أبو غْرَيب

ألا يزال أحدٌ يتذكر عليّاً المضحك **Comical Ali** ، وزير إعلام صدّام، محمد سعيد الصحاف، الذي ظل في مؤتمراته الصحافية اليومية متمسكاً تمسُّكَ البطلِ، بالخطّ الإعلامي العراقي، في مواجهة أشد الحقائق جلاءً؟ (كان لا يزال يدّعي أن ما يعرضه التلفزيون عن الدبابات الأميركية في شوارع بغداد ليس سوى حيلةٍ من حيل هوليوود، بينما كانت الدبابات على مبعدة مئات الياردات فقط عن مكتبه.) لكن كلامه لم يكن دائماً بلا معنى على أي حال. فعندما قيل له إن الجيش الأميركي يسيطر فعلاً على مناطق من بغداد، ردَّ قائلاً: ' إنهم لا يسيطرون على أي شيءٍ – بل انهم لا يسيطرون على أنفسهم! '، تذكرتُ هذا حين وردت، قبل أسابيع، الأنباءُ الرهيبة عما يدور في سجن أبو غرَيب.

مفهومٌ أن جورج دبليو بوش كان مهتمّاً بأن نفهم أن صور السجناء العراقيين المعذَّبين والمهانين من جانب الجنود الأميركيين لا تعكس ما تؤمن به أميركا وتقاتل في سبيله: قيم الديمقراطية، والحرية، وكرامة الفرد. وأن تحـوُّلَ القضية إلى فضيحة عامة، هو علامة إيجابية. بطريقةٍ ما: في نظام ' شموليّ ' حقيقيّ، يجري التكتم على الأمر. (في الوقت نفسه، فإن عدم عثور القوات الأميركية على أسلحة دمارٍ شاملٍ في العراق، هو علامةٌ إيجابية: فالدولةُ الشمولية الحقيقية كانت ستتصرف مثل شرطيّ شرير يدسّ المخدرات ثم ' يكتشف ' الدليل على الجريمة).

الصور نُشرت في نهاية نيسان، لكن الصليب الأحمر الدولي، ولشهورٍ، كان يرسل إلى السلطات الأميركية والبريطانية تقارير عن إساءة المعاملة في سجون العراق، وكانت هذه التقارير تهمَل. لم يكن الأمر أن السلطات كانت لا تتلقى إشاراتٍ عمّا يجري: هذه السلطات، وبكل بساطةٍ، لم تعترف بالجريمة إلاّ بعد أن

وُوجِهتْ بنشرها في وسائل الإعلام، وبسبب ذلك. ردّ الفعل الأول من جانب قيادة الجيش الأميركي كان ردّاً أقلُّ ما يقال فيه إنه مفاجيءٌ: أعلنوا أن الجنود لم يكونوا قد عُلِّموا جيداً اتفاقية جنيف

بصدد معاملة أسرى الحرب. يبدو، هذه الأيام، أن الجنود عُلِّموا كيف لا يهينون السجناء ولا يعذبونهم.

التغايُرُ بين ما جرى مؤخراً في أبو غرَيب، وما كان عليه الحال في تعذيب السجناء زمن صدّام حسين، هو تغايرٌ صارخٌ. فبدلاً من تسبيب الألم المباشر الوحشيّ، ركّزَ الجنودُ الأميركيون على الإذلال السايكولوجي. وبدلاً من السرية زمن صدام سجّلَ الجنودُ الأميركيون ما ألحقوه من مهانة، بما في ذلك وجوههم الباسمة بغباءٍ وهم واقفون للتصوير خلف الأجسام المتلوية العارية للسجناء.

عندما رأيت للوهلة الأولى، الصورةَ الشنيعةَ لسجينٍ وُضِع رأسه في كيسٍ أسود، وقد ثُبِّتتْ أسلاك كهرباء على أطرافه، وهو واقفٌ على صندوقٍ في وضعٍ عجيب، كان ردُّ فعلي أن هذا جزءٌ من أداءٍ فنِّيٍّ. إن ثياب السجناءِ تقترحُ مشهداً مسرحياً،**لوحةً حيّةً**،

لا يمكن إلا أن تستدعي ' مسرح القسوة '، و فوتوغراف روبرت مابلثورب، ومَشاهدَ من أفلام ديفيد لينش.

هكذا نصل إلى لُبِّ الأمر.

كل من له معرفة بطريقة الحياة الأميركية سوف يميِّزُ، عبرَ الصور الفوتوغرافية، الجانبَ السفليّ الفاحش للثقافة الشعبية الأميركية.

بإمكانك أن تجد صوراً مماثلةً في الصحافة الأميركية حين تخرج طقوسُ الإبتداء Initiation rites عن طورها، في وحدة عسكرية أو القسم الداخلي لمدرسة عالية، فيموت الجنود والطلبة أو يُجرحون وهم يؤدّون فعلاً صاعقاً، أو يتخذون وضعاً مهيناً، أو يتعرضون للإذلال الجنسيّ.

هذه، إذاً، ليست، ببساطةٍ، قضيةَ غطرسةٍ أميركيةٍ إزاءَ شعبٍ من العالم الثالث.

كان السجناء العراقيون، في واقع الأمر، في طقس ابتداءٍ مع الثقافة الأميركية: إنهم يذاقون الفُحشَ المضادَّ للقيم العامة، قيمِ كرامةِ الفرد، والديمقراطية والحرية.

لا غرابةَ، إذاً، أن يعترف دونالد رامسفيلد، في السادس من أيار، بأن هذه الصور الفوتوغرافية ليست إلا ' أعلى جبل الثلج '، وأن أشياء أقوى ستأتي، منها فيديوات اغتصاب وقتل. في مطلع ٢٠٠٢، وافقت الحكومة الأميركية، في مذكرةٍ سرية، على جملة إجراءاتٍ يخضع بموجبها سجناء ' الحرب على الإرهاب ' لضغطٍ جسديٍّ ونفسيٍّ، بُغيةَ الحصول على ' تعاونهم '. إن ' تجاوزات' أبو غرَيب، كانت في الواقع، وراء تصريح دونالد رامسفيلد، قبل شهورٍ، القائل بأن اتفاقية جنيف قد ' عفا عليها الدهر'.

في نقاشٍ أخيرٍ أجرته محطة الـ**NBC** حول سجناء خليج غوانتانامو، وردَ رأيٌ في التبرير الأخلاقي – القانوني لوضعهم، يقول بأنهم ' أولئك الذين أخطأتهم القنابل '. وما داموا هدفاً مشروعاً للقنابل الأميركية في أفغانستان، ونجوا بالمصادفة، فلا أحد بمقدوره أن يوجه اللوم حول ما قد يحصل لهم بعد. ذلك، كسجناء: مهما كان حالُهم، فهو أفضلُ من الموت. هذا التسبيب يضع السجناء في حال الأحياء الموتى. لقد أُلغيَ حقُّهم في الحياة باعتبارهم كانوا أهدافاً مشروعةً للقصف القاتل، وهكذا يصبحون أمثلةً لمن سمّاهم جيورجيو أغامبين **الإنسان التلَف**Homo sacer ، وهو من يمكن قتله بلا محاسبةٍ من جانب القانون، إذ لا قيمة لحياته.

(هنالك شبهٌ عابرٌ بين هذه الحالة والإشكالية القانونية لفيلم ١٩٩٩ Double Jeopardy: إنْ أنت حُكمتَ لقتلكَ رجلاً، واكتشفتَ بعد قضاء عقوبتك في السجن، أن ذلك الرجل لا يزال حياً، فبإمكانك قتله بلا محاسبةٍ، لأنك لا يمكن أن تكون مذنباً مرتينِ في أمرٍ واحدٍ.)

ومثل ما اعتُبِرَ سجناء غوانتانامو Homo sacer ، في البرزخ ' بين موتين '، لكنهم لا يزالون أحياء بايولوجيّاً، فإن للسلطات الأميركية أيضاً، التي تعاملهم بهذه الطريقة، وضعاً قانونياً غير محدد. هم يعتبرون أنفسهم سلطة قانونية، لكن أفعالهم لم تعد تحت تغطية القانون وطائلته: هم يتصرفون في فضاءٍ خالٍ، لكنه بالرغم من ذلك، هو من اختصاص القانون. وما افتضح أخيراً من أبو غرَيب، أظهرَ بوضوحٍ، نتائجَ وضع السجناء في البرزخ ' بين موتَين'.

* سلافو جيجيك Slavoj Zizek، فيلسوفٌ ماديّ ديالكتيكيّ، ومتخصصٌ بالتحليل النفسي"، باحثٌ مرموقٌ في قسم الفلسفة بجامعة ليوبليانا.

** نشرت المادة في العدد ١١، المجلد ٢٦، المقرر صدوره في الثالث من حزيران ٢٠٠٤، من مجلة " لندن للكتاب ": London Review of Books

*** النصّ العربي يضمُّ الجسمَ الأكبر للمادة، مستثنياً لأسبابٍ تتعلّق بالقاريء، نهايةَ المادة وهي ليست بالطويلة على أي حال.

**** مصطلح الـHomo sacer في روما القديمة كان يعني التضحية بقربانٍ بشريٍّ، بدون أن تتخذَ العمليةُ طابعاً طقسيّاً معلَناً.

أي أن المرء يُقتَلُ باعتباره مؤهَّلاً للقتلِ، القتلِ غيرِ المُعلَنِ، أي غيرِ الخاضعِ لأيِّ منظومة قِيَمٍ، مهما كانت.

اليومَ، جعلَ جيورجيو أغامبين من المصطلح الروماني القديم، نظريةً في السياسة المعاصرة، تقاسُ بموجبها المنظومة السياسية لبلدٍ ما. بمعنى أن اعتبار الأفراد قابلين لأن يكونوا Homo sacer هو دليلٌ قاطعٌ على لا أخلاقية سلطةٍ ما في بلدٍ ما.

عربياً، لم أجد مصطلحاً مقابلاً، بسببٍ من طبيعة المسار التاريخي، ولهذا آثرتُ تعبيرَ **الإنسان التلَف**، وهو من صياغتي.

ربما كان مفيداً أن أذكرَ أن كثيراً من المؤتمرات والفعاليات الفلسفية، يدور، هذه الأيام، حول نظرية الـHomo sacer.

لندن ٢٠٠٤/٥/٢٩

غلامٌ سعوديٌّ رئيساً لأرضِ السّوادِ

الفأرُ **بول بريمر**، قبل أن يتمّ فراره من أرض العراق، وضعَ ما توهّمَ أنه سيظل مِيسمَه:

اللعبة المضحكة للسيادة.

ويومَ جاء الأخضر الإبراهيمي إلى أرض السواد، مدججاً بأوهامه (على غير عادته)، حاولَ أن يقدّم رؤيةً معينةً، لكنه اصطدمَ _ بالرغم من تواضع رؤيته _ بالأوامر التي لا يمكن أن تُرَدَّ، أوامرِ الإدارة الأميركية، حتى لو جاءت، بطريقة غير مباشرة، عبر قنوات كوفي عنان، غيرِ المغلوب على أمره، إن شئنا الدقّة.

الأوامرُ كانت تقضي بأن يظلَّ العراق مستعمرةً.

لكنّ الكلام الذي سيظل تصديقُه مرهوناً بمملكة الدجاج، عن سيادةٍ، وتسليم سيادةٍ، له مستلزماته، أي أن له مستلزمات النقيض.

وهذا ما حدثَ بالضبط.

هذا ما حدثَ بالضبط، حين جاؤوا، اليومَ، بالغلام السعوديّ، غازي عجيل الياور (أيّ مَعَرّةٍ!) ليكون رئيس أرض السواد.

الحَقُّ أن أرضَ السواد هي العراق الأوّل.

والعراقُ ، كما هو معروفٌ، عراقان: عراق العرب (أرض السواد)، وعراق العجم (الجبل وما يليه).

الحكومة التي نصّبها الاحتلال ليست من أرض السواد.

فإنْ أردنا الدقّةُ أسعفتْنا كثيراً:

المجرم، مجرم ١٩٦٣، إياد علاّوي، ليس عراقيّ الجنسية حتى الآن.

هوشيار زيباري، عميلٌ قديمٌ لأكثر من جهازٍ، وليس عراقيّ الجنسية حتى الآن.

لا أريد أن أمضي في تفصيلٍ هو أكثر من معروفٍ (أترك لمؤرخي السياسة هذه المهمّة).

لكنني أريد أن أقول شيئاً بصدد الإهانة التي وجّهها الفأرُ **بول بريمر** إلى الشعب العراقي، في أرض السواد وفي خارجها،

حين عيّنَ **غلاماً سعودياً** اسمُه غازي عجيل الياور **رئيساً لأرض السواد:**

هذا الغلامُ الذي البستَه، بدلَ الـ تي شيرت ' كوفيّةً حمراءَ من شَمَر، وعقالاً، سوفَ يرى

هذا العقال وقد انحدرَ من رأسه إلى عنقه.

زعَم الفرزدقُ!

لندن ٢/٦/٢٠٠٤

الجرذان تغادرُ السفينةَ ...

الجرذُ – الـمعجزةُ (قياسـاً على الطفل – الـمعجزة)، عدنـان البـاججي، كـان أول من يغادر السفينة الغارقة، من أعضاء مجلس المحكومين (الـمركولين)، وقد تلاه محمود عثمان؛ وشـرعَ فلانٌ وعَلّتان يتذكرون أن الصيف آت، وأن لـهم عوائلَ تقيم في أوربـا منـذ دهـورٍ. أمّـا الآخـرون فقـد اختفـوا عـن الأنظـار، ملتجئين إلـى الحمايـة الذاتية، بعد أن حُرِموا الحمايةَ الإستعمارية، إثْرَ انتهاء دورهـم الـمشين في التغطية على حكم الـمحتلّين المباشر.

الـمثيرُ في الأمر، هـو أن مغادرة الجـرذان تتـمُّ مـع صـدور قـرار مجلـس الأمـن بصـدد تحويل الاحتـلال إلـى اسـتعمار، واحتمـال تعزيـز الجيـوش الأجنبيـة، هـذا الصيفَ، بوحدات جديدة (أميركية بخاصـّة) ...

فهل أدركَ نَهّازو الفُرَص هؤلاء أن القادمَ أدهى وأمَـرُّ؟

هل تلقّوا إشارةً تقولُ: السلامةُ قبل الندامة؟

أمْ هُم مُدَّخَرون إلى يومٍ مختلفٍ؟

❖ ❖ ❖

لا أعتقـدُ الـهروبَ الكبيرَ منقطـعَ الصلـة بطبيعـة قـرار مجلـس الأمــن الـمتخَـذ بالإجماع؛ إذ أن هـذا القـرار هـو مـن الضعـف والإرتبـاك واللاجـدوى بحيـث يتسـاوى فيه التوقيعُ وعدمُ التوقيع، الإجماعُ واللاإجماع، الرضا والقبول...

إنه قرارٌ يعالجُ محنة جورج دبليو بوش الداخلية أوّلاً.

أمّـا على الأرض العراقية فليست له من قيمة تُذكَـر.

بل لقد راكَمَ ارتبـاكاً جديداً على ارتباكٍ قديم.

❖ ❖ ❖

سوف تشتد النوائب ...

ولسوف يسيل دم غزير ...

المحتلون سيغدون أشرس وأشنع.

وما دام الحل السياسي (أي الجلاء) مستبعدا، فلسوف يظل الخرق يتسع على الراقع.

لندن ٢٠٠٤/٦/١٠

كلامٌ غيرُ مسؤولٍ ...

من المؤسف أن يتحدث أحدُ المهتمّين بالشأن الثقافي العراقي، وهو بالعاصمة الفرنسية، مع أناسٍ غيرِ معنيين أساساً، وسيرةً، بالإشكالات العراقية الكبرى في الميدان الثقافي.

هذه ناحيةٌ، أمّا الناحية الأخرى، فهي بصدد روحية ' الفالاشا ' التي طبعتْ الكلامَ غيرَ المسؤول لهذا المسؤول عن الثقافة في حكومة الـC.I.A الراهنة.

قال الرجل، والعُهدةُ على من أجرى المقابلة، **إنه لم يجد صيغةً تجمع بين مثقفي الداخل والخارج!**

عجباً ...

الغُزاةُ، حين دخلوا البلد قبل عامٍ، جاؤوا معهم أيضاً، بالحمير، على طريقة نابوليون، أي بالـ ' مثقفين ' الخونة الذين أُطلِقَ عليهم اللقب الملتبس لـ ' مثقفي الخارج '، وهم غير مثقفين أساساً، إلاّ إذا قُصِدَ بـ' الثقافة ' الدوراتُ التدريبية على التجسس التي أدّاها هؤلاء في واشنطن وأثينا وبراغ ولندن؛ آنَها فقط سيكون هؤلاء الخونةُ مثقفين و عضويّين أيضاً، حتى لو استَعَنّا بغرامشي الذي لا أعتقدُ أن المسؤول غيرَ المسؤول قد نسيه بهذه السرعة!

❖ ❖ ❖

في ٢٠٠٢/٨/٢١

كتبتُ الآتي:

في ' الجدل ' الذي يترددُ أحياناً، في مجلسٍ ما، أو على صفحة ثقافية، حول ' ثقافتين ': إحداهما في الخارج، وثانيتهما في الداخل، كنتُ أرى، أن المنفى حالةٌ مؤقتةٌ، وأننا لسنا الفريدينَ في الأمر؛ إذ عانت شعوبٌ مثل ما نعانيه، أو أكثرَ، والأمثلةُ أوضحُ من أن تُذكَرَ.

أقولُ هذا لأخفف من غلواءَ ترى كلَّ ما يُكتَبُ في العراق تخلّفاً وانصياعاً، وأقولُ هذا لأنبِّهَ إلى أن التعالي على الأرض لن يمسحَ الأرضَ، وإلى أن "المنفى" في شروطه الحاليّة ليس بشيءٍ، مقايسةً بالأرضِ وأهلها ومبدعيها.

❖ ❖ ❖

يقولُ المسؤولُ عن الثقافة في حكومة الـC.I.A القائمة، في كلامه غيرِ المسؤول، إن المثقفين العراقيين يرفضون التعاونَ ...

شرفٌ عظيمٌ لمثقفي وطني أنهم يرفضون التعاونَ مع مؤسسات الاحتلال و"المثقفين" الفالاشا.

فليتعلّم الرجلُ!

لندن ١٤/٦/٢٠٠٤

ساعاتُ جان جينَيه الأخيرة

' المادة مستقاةٌ من كتاب GENET لأدموند وايت Edmund White مع تاريخ زمنيٍّ أعدّه ألبرت ديشيAlbert Dichy ، وقد صدر الكتاب في ثمانمائة وعشرين صفحة من القطع الكبير، العامَ ١٩٩٣ عن دار نشر Chatto & Windus Ltd اللندنية. آثرتُ حذفَ تفاصيلَ معيّنةٍ تخصُّ أناساً من معارف جينيه ما زالوا أحياء، بسبب ما ارتأيتُ أنه قد يسبب إحراجاً لهم '.

س. ي

ربيعَ ١٩٨٦، بدأ [جان جينيه] يصحح البروفات الأولى [من الأسير العاشق]. داء السرطان نشطَ من جديد. وعندما ذهب مع ليلى شهيد [سفيرة فلسطين بباريس حاليّاً] ليعرف نتيجة الفحص المختبري لرُقاقةٍ منه، كان يأنف أن يسأل الطبيبَ عن الأمر، بل سأل هو، الطبيبَ: كيف حالك؟، وقد أجابه الدكتور شووب: ممتازٌ، وأنت؟

لم يكن أحدٌ ليقول الحقيقةَ، ولهذا انتحتْ ليلى بالطبيب جانباً، مستفسرةً عن جليّة الأمر. لكن الدكتور شووب كان بالغَ البرودِ معها، واكتفى بأن قال: سوف أرسل النتائج إلى السيد جينيه.

بعد فترةٍ وردَ التشخيصُ بالبريد مع اقتراح الخضوع للعلاج الكيمياوي.

وافقَ جينيه على العلاج بالأشعة السينية ليغنمَ مزيداً من الأشهر كي يتمَّ العمل في كتابه. لقد رفض العلاجَ الكيمياوي (الذي كان خضع له من قبلُ) بسبب معرفته أن هذا العلاج يُخْمِلُ فطنتَه، وأصرَّ على أن يعرف كم سيعيش بالضبط. الدكتور شووب كان أخبره أنه يحتاج إلى عدة جلسات علاجٍ بالأشعة السينية. وعندما أتمَّ جينيه ما ظنّه علاجاً أخيراً، أخبرتْه المرضة بأن عليه العودة غداً لجلسةٍ أخرى، ثم ألمحتْ إلى مزيدٍ من الجلسات مستقبلاً. فجأةً استشاطَ جينيه غضباً وقرر أنه

لن يعود. لقد كان استجمع كل شجاعته وصبره ليتحمّل الجلسات المقررة، وهو الآن لا يستطيع مواجهة جلساتِ علاجٍ أخرى – ومن المؤكد أنه لايطيق أن يكذب عليه أحدٌ.

كان جاكي ماغليا، وليلى [شهيد]، جاءا يصحبانه خارج المستشفى. كان جينيه غاضباً شديداً – ومتلهفاً للعودة إلى العمل – حتى لقد تقدّمَهما في السير. فقدَ من وزنه الكثيرَ، حتى اتّسعَ سروالُه وتهدّلَ فبانَ ما بين إليتَيه. لم يكن ليتحدث مع ليلى أو جاكي، على غير عادته، هو المعروف بتمتمات دعاباته الصغيرة وروحيته العالية. وقد حزنت ليلى كثيراً لجاكي الذي بدا خائفاً مرتبكاً.

بعد ذلك بقليلٍ، سقط جينيه من فراشه، لا بسبب عقار النيمبوتال الذي ألِفَ تعاطيه، وإنما بسببِ اختناقه بالمخاط الناتج عن السرطان والعلاج. كان لديه دوماً مخاطٌ كثيرٌ، لكن العلاج بالأشعة السينية سبّب اختناقه.

عندما توقّفَ جينيه عن العلاج بالأشعة السينية تدهورت حالته بسرعة شديدة، كأن المرض كان أُوقِفَ مؤقتاً فقط. ظلت ليلى تصرُّ على عودته إلى العلاج بُغيةَ إتمام كتابه، لكنّ جينيه زجرها قائلاً: ' هذا ليس من شأنكِ.

وحدث في أحد الأيام، أنها حين كانت توشك أن تغادره، تقدمتْ إليه، وقبّلتْ جبينه. ولقد فعل ما لم يفعلْه البتةَ: قبّلَ يديها كلتيهما.

في اليوم التالي، اكتشفت ليلى أن جينيه هرب إلى إسبانيا مع جاكي – الذي غدا هو نفسه منهكاً من العناية بجينيه

حتى أمسى هزيلاً بصورة مخيفة.

كان ذلك في أوائل آذار. جينيه وجاكي وجدا أحمد في إسبانيا، فسافر الثلاثة إلى مرفأ جنوبيّ، ليستقلوا مركباً إلى طنجة. من طنجة ذهبوا إلى الرباط حيث رأوا عز الدين.

عندما كان جينيه في المغرب، سألَ أحد أصدقاء ليلى عن مقبرةٍ إسلامية بالرباط: ' أتظنهم يقبلون شخصاً غير مسلمٍ في هذه المقبرة؟ '.

ربّما فكّرَ أنه قد يموت في هذه السفرة.

لكأنه فعل كل ما شاء أن يفعله ... وأدركَ أن مزيداً من الوقت ما زال لديه، وهكذا بعد ثلاثة أيامٍ في المغرب سافر بالطائرة عائداً من الرباط إلى باريس.

وفي باريس، ولأول مرة، لم يستطع الحصول على غرفة في فندق روبنز، بل أن موظفة الإستقبال كانت خشنة معه، قائلةً له: ' أنت لم تحجز '، مع أنه لم يحجز البتةَ، هنا، وكانت مشغولةً جداً فلم تساعده في الحصول على غرفة أخرى. ذهب جاكي، ووجد غرفةً في فندق صغيرٍ ذي نجمة واحدة، هو فندق جاك. وحين مضى جاكي بجينيه إلى الفندق، عبر الشوارع، كان جينيه من الضعف بحيث تعيّنَ عليهما الجلوس على مصطبة بين حينٍ وآخر. في الليلة الأولى بهذا الفندق كان جينيه في حالة جيدة.

تلقّى الدفعة الثانية من بروفات ' الأسير العاشق '، وشرعَ يصححها. والواقع، حسب جاكي، أنه شرعَ فعلاً يعمل في جزءٍ ثانٍ، جرياً على عادته في اعتبار أي كتابٍ، كتاباً أخيراً، وفي الوعدِ بما يتلوه.

إنه الآن يعمل مسروراً في الجزء الثاني من ' الأسير العاشق '، كما وعدَ في الجزء الأول.

ظلّ جاكي وإيساكو وليلى يسهرون عند سرير جينيه. إيساكو، نفسها، كانت عولجت بنجاح من سرطان الرحِم، لكنها الآن تشعر أنها ليست على ما يُرام. استفسرَ منها طبيبها في باريس إن كانت تعرف أحداً يعاني من السرطان، وحين أجابته بالإيجاب قال لها إنها تعيد إحياءَ سرطانها هي. عرف جينيه بالأمر، فطلبَ منها، تلطُّفاً، أن تترك السهر عليه.

عندما غادرَ جاكي مع إيساكو، قال جينيه لليلى: إنني أدمِّرُ هؤلاء الناس حقاً'.

كان يشير إلى عبد الله الذي ظلَّ موته يؤرقه. أحسَّ أيضاً بأنه مسؤولٌ عن جرح جاكي، بل حتى عن سرطان إيساكو.

في مقابلته مع نايجل ويليامز، كان جينيه قال، مستعيداً عبارة القديس أوغسطين: ' أنا أنتظرُ الموتَ '.

والآن جاءه، هو الرجل الذي كرّس نفسه للموضوع طيلة حياته الإبداعية. في ١٩٨٢ كان أخبرَ برتران بوارو- دلبش، أنه ينبغي ' نزع دراما ' الموت. كان يرى أن الناس يثيرون ضجةً كبيرة حول الموت. وهو نفسه، يتفق مع مالارميه الذي سمّى الموتَ ' ذلك الجدول الضحل '.

ليلة ١٤-١٥ نيسان عبرَ جينيه ذلك الجدولَ.

لقد سقط في الغرفة غير الأليفة، وهو يصعدُ درجةً واحدةً إلى الحمّام.
وعندما وجده جاكي، صباح اليوم التالي، لاحظَ كدمةً كبيرةً في مؤخرة رأسه.
تـمَثّلَ جاكي وليلى كيفية حدوث الأمر.
كانت هناك دورة مياه صغيرة. هل نهض جينيه ليتبوّل؟ أكان دائخاً، لنقلْ في الثالثة صباحاً، من الحبوب المنوِّمة التي كان يأخذها دائماً؟ هل فقد توازنه؟
لم يكن الأمر نوبةً قلبيةً، أكيداً. إذ لم يكن يعاني من مشكلات قلبٍ.
لاحظَ جاكي أن موت جينيه في الدائرة الباريسية الثالثة عشرة ذو مغزى. ففي هذه المنطقة يقع سجن سانتيه.
لقد أُحكِمَت العقدة.
كان جينيه قال مرةً لجاك فرجيس، المحامي الراديكالي: "لو حدث أنني غائبٌ، ووقع جاكي في مشكلةٍ، فقد أخبرتُه بمراجعتك".
ذهب جاكي إلى فرجيس، يوم موت جينيه. قال لفرجيس: "ذهبتُ هذا الصباح لرؤية جان [جينيه]، فنحن نتناول فطورنا معاً، دائماً. كان في غرفته. قصدتُ الحمّام. كان عارياً، ممدداً، وميتاً. استدعيتُ صاحب الفندق الذي أشعرَ الشرطة".
وعندما استفسر منه فرجيس عمّا يريد جاكي منه أن يفعل، قال جاكي: "الشرطة أخذوه إلى المشرحة، وأنا لا أريد أن يجرى تشريحٌ عليه. وجان أراد أن يُدفن في المغرب، حيث امتلكَ بقعةً".
بعد قليلٍ، اتصل فرجيس بجاكي، وأخبره أن رولان دوما كان محامي جينيه، ولسوف يتكفّل بكل شيء.
حين مات جينيه، حُفظَ جثمانه في معهد الطب الشرعي لأيامٍ عدّةٍ. بدايةً أراد أصدقاؤه أن يدفنوه في مقبرة ثِيَيه، حيثُ دُفِنَ عبد الله، لكنها كانت خاصةً بالمسلمين فقط.
كان جينيه قال إنه يريد أن يُدفَنَ في العرائش.
جرى نقاشٌ واسعٌ حول الأمر بين ليلى شهيد ومحمد القطراني وجاكي ماغليا ولوران دوما ورولان بوابيه.
في النهاية قال محمد إنه يريد أخذ جثمان جان. حاولت ليلى ثنيَه عن ذلك. قالت له: "سوف يقتلك". كانت غريزتها على حقٍّ.

محمد كان يذهب باستمرار إلى قبر جينيه الذي بمقدوره أن يراه من نوافذ منزله. استسلمَ تدريجياً إلى يأسٍ غامرٍ. استقلَّ قطاراً ليحضر مؤتمراً عن حياة جينيه وأعماله في جنوبيّ المغرب، لكنّه بعد ساعةٍ من السفر بالقطار هبطَ في المحطة التالية، باكياً، وعاد بالقطار إلى الرباط.

كان جينيه اشترى لمحمد سيارةً، وبعد عامٍ من موت جينيه، صدمَ محمد بسيارته، شجرةً، في الظلام، ومات.

ما إن تقرّرَ دفن جينيه في المغرب، حتى اتّصلَ رولان دوما، الذي كان وزيراً للخارجية الفرنسية، بالحكومة المغربية. قال المغاربةُ إنهم مغتبطون لأن جينيه سوف يدفَنُ في بلادهم، وعرضوا إرسالَ فرقة موسيقية عسكرية لاستقبال الطائرة. لكن الورثة لم يريدوا ضجةً وفخفخةً أو احتفالاً. قال رولان دوما للمغاربة: ' لا تنظموا أي شيء، لكن أرجو أن تسهّلوا كل شيء '.

حين أقلعت الطائرة من باريس، كان في المطار، لتوديع الجثمان، كلود غاليمار، رولان بوابيه، ورولان دوما.

رافقَ الجثمانَ إلى الرباط، محمد القطراني، جاكي ماغليا، وليلى شهيد.

توفّي جينيه بعد يومٍ واحدٍ من وفاة سيمون دوبوفوار.

لكنها حظيتْ بجنازةٍ باريسيةٍ حافلة، بينما دُفِنَ، هو، في هدوءٍ، بالعرائش.

ولأنه لم يكن مسلماً، كان ينبغي، إذاً، أن يُدفَنَ، في مقبرةٍ إسبانيةٍ قديمةٍ لم يُدفَن بها أحدٌ منذ سنين.

المقبرة كانت حيثُ ألِفَ جينيه المشيَ كلَّ مساءٍ مع عز الدين.

المرأةُ التي تهتمُّ بالمقبرة، لديها عنزةٌ تقتاتُ الأعشابَ النابتةَ بين القبور المتداعية، وتنشرُ غسيلها على حبلٍ يمتدُّ بين بوّابتها وأحد تماثيل المقبرة.

الدفّانون لم يعرفوا كيف يوارون مسيحيّاً، الترابَ.

وهكذا وجّهوا القبرَ نحو مكّةَ.

القبرُ يشرفُ، كذلك، على السجن الإسباني القديم، والمبغى: الموضوعين الأثيرَين لدى جينيه.

جاكي، العارف بعوائد اليابانيين إزاء الموتى، كان يقصد القبرَ مع محمد، ليقدمَ إلى جينيه، سجائره الجيتان المفضّلة، بل الصحف الفرنسية أيضاً.

وكان الرجلان يجلسان عند القبر ويتحدثان مع صديقهما الميت.

عندما اقتلعَ أحدُ هواة الآثار، شاهدةَ الرخام المنحوتة التي تحمل اسم جان جينيه والتواريخ، كتب جاكي بخط يده شاهدةً أخرى.

وبما أن خطّ جاكي يشبه تماماً خطّ جينيه، بدا كما لو أن هذا الكاتب العظيم قد وقّعَ، بنفسه، بيانه الأخيرَ.

لندن ٢٠٠٤/٦/١٨

كم عدن سوف ننسى!

في أيام الضيق والمخمصة والسترات المقلوبة، في أيامنا هذه، يحاول امرؤ مثلي، اغتذاء المثال،

لا للمثال ذاته، فهو واضح في الضمير منذ الأزل، وإنما لأدرأ به ما تناوب وتناوح، هذه الريح الشريرة التي تكاد تقتلع رشد العالم الذي راكمه عبر قرون وقرون.

أتذكر، الآن، ولغير مناسبة، كيف غادرت عدن أواخر ١٩٨٦ ...

كيف كنا في ممر آمن على الشاطيء أمكن للصليب الأحمر الدولي تدبيره، بينما كانت الغربان تنهش أجساد القتلى في الساحات الممتدة بين المطار ومركز المدينة.

كان الرصاص يئز فوق الرؤوس، تماما، ونحن منبطحون، نتطلع إلى الزورق الذي سينقلنا إلى السفينة تطلع

الغريق إلى الهواء.

غورباتشوف كان ' يصفي ' امبراطوريته، مبتدئا بالأطراف: الحبشة وعدن ...

في ' مثلث الدائرة' كتبت:

الشعب يقتتل.

جمهورية الفقراء تنتحر، وفي انتحارها تقتل أبناءها، عبد الفتاح اسماعيل، صالح مصلح، زكي بركات، أحمد سالم الحنكي، جمال الخطيب ...

جمهورية الفقراء تنتحر، تقتل حتى سلاحها.

في الجبل المهيمن على خور مكسر، الجبل المخزن، الجبل مستودع السلاح، ظلت الذخائر تتفجر، تندلع من منافذ الجبل، وتندفع في الفضاء، نيرانا حمراء، وبرتقالية ...

ظلَّ الجبل البركانيّ يتفجّر.

يقذف بحممه على المدينة، علينا، نحن المحاصَرينَ في المدرسة القريبة. غيمة من البارود ورائحته تهبط على المدينة، البركان الخامد، منذ آلاف السنين، عادَ إلى الحياة ...

سقطت القذيفة الأولى على المدرسة.

كانت تستهدف المبنى الجديد للّجنة المركزية، الذي لم يكد الروس يتمّون بناءه إلاّ قبل أسبوعين، وكنتُ رأيتُهم آنذاك يجرجرون تمثالاً نصفيّاً للينين كي ينصبوه في المدخل.

سقطت القذيفة الثانية.

القذيفة الثالثة أصابت مطبخ مسكني. تهاوت قطعٌ اسمنتيةٌ وقضبان حديد، وهبّت الأتربة مثل عاصفة.

في البعيد، في سماء المطار، كانت غيمة من الغربان.

قال أحمد: مجزرة المطار ... الطيارون أُبيدوا غدراً ...

في هذا الوقت، كان رتلٌ من الدبابات الروسية يطْبِقُ على المدينة، متقدماً على امتداد ساحل أبْيَن.

لماذا أتذكر الآنَ أيامَ عدن؟

لم تكن عدنٌ حين جئتُها، بعد أن أخرجَنا شارون من بيروت، غيرَ عدنٍ التي غادرتُها.

إنها المدينةُ ذاتُها في صبوةٍ نادرةٍ من صبوات التاريخ.

مقرّ علي بن الفضل القرمطي، كان غير بعيد، في جبلٍ من محافظة زنجبار.

الآن، أتذكّرُ أولئك الشجعان، من أبناء عدن ويافع والضالع وحضرموت وأبيَن وشبوة وسواها، الذين جعلوا التاريخَ يتّصلُ كما لم يَحدُثْ قَطُّ في منطقتنا ...

أتذكرُ شبّان الكتيبة الخامسة الذين أسسوا اليمن ديمقراطياً، وذابوا في التأسيس العجيب.

لندن ٢٠٠٤/٦/٢٤

ثلاثةُ وجوهٍ منتفخةٍ غباءً

بين اسطنبولَ وبغدادَ، كنتُ أتابعُ، اليومَ، ' التغطية ' الإعلامية لفضيحة الإنتقال من مرحلة احتلال العراق إلى مرحلة استعماره.

والحقُّ أن المستعمِرين كانوا أدقَّ (طبعاً) من عملائهم.

قالوا بصراحةٍ إن هؤلاء العملاء يريدون جيوشَ الآخرين باقيةً إلى أبد الآبدين...

أمّا العملاءُ، فقد أدّوا أكثر التمثيليات فشلاً؛ والظاهرُ أنهم لم يستعدوا لها، أو يُعَدّوا لها، جيداً، ولربما كان مَرَدُّ ذلك أن الفأر بريمر متلهفٌ شوقاً إلى مغادرة العراق، المائلِ، المائلِ إلى الغرق ...

هكذا أمرَ بإقامة الفصل الختام، ليغادر هو، غيرَ مودَّعٍ، وغيرَ مأسوفٍ عليه، مخلِّفاً لمصيرٍ فاجعٍ مجهولٍ، عملاءه ذوي الوجوه المنتفخة الذليلة.

قلتُ إنني كنتُ أتابعُ، عبر التلفزيون، مهزلةَ السيادة ...

وقد لحظتُ ما يجمعُ العملاء الثلاثة:

المجرم العتيد، مجرم ١٩٦٣، إياد علاّوي

العميل العريق لأكثرَ من جهازٍ، هوشيار زيباري

الغلام السعودي غازي ...

لقد كانوا، جميعاً، ذوي وجوهٍ منتفخةٍ غباءً.

ولغةٍ انجليزيةٍ في منتهى الرداءة ...

لقد لحِقَ بهمْ داءُ الورَم.

ورَمُ الخيانة؛

ومن جديد، تأتي قصةُ الضفدعِ المنتفخِ ...

اللّهمَّ ... لا شماتة!

لندن ٢٠٠٤/٦/٢٨

طريقُ الشِّهابِ، وصالح بِشْتاوه

في أوائل حزيران هذا، حضرتُ أسبوعاً من النشاط الشعري، مفتَتَحاً بمئوية بابلو نيرودا، ومختتَماً بعشاءٍ في مطعمٍ إيطاليّ بهيج.

سُمِّيَ الأسبوع " طريقَ الشهاب " Camino delle comete

المكان: بلدة بستويا Pistoia بمنطقة توسكانيا الشهيرة بكرومها ونبيذها الكيانتي ذي الصيتِ الذائع، وبحاضرتها عبر التاريخ، فلورنسا.

أقيمت الأمسيات جميعها في حديقة دَيرٍ بوسط البلدة.

لا مواصلات، ولا متاعب.

كل شيء قريبٌ، متاحٌ:

الفندق – ساحة السوق – المطاعم – الدير – الحيّ القديم المتبقي من العصر الوسيط...

شاركَ في المهرجان شواعرُ وشعراء من الولايات المتحدة وفرنسا والبوسنة وإسبانيا وإيطاليا (طبعاً) وهولندا واسكندنافيا ومصر (حسن طِلِب) وسوريا (مرام المصري)، والعراق ...

الشاعر الزنجي الأميركي، أميري بركة، كان نجم المهرجان بقصيدته الشهيرة في هجاء جورج دبليو بوش التي ترافقه في أدائها فرقةُ جازٍ كاملة.

أنا ألقيتُ قصيدتي: أميركا، أميركا – باللغة الإنجليزية، كما أُبرِزَتْ نصوصٌ مني مترجَمةً إلى اللغة الإيطالية، ومعروضةً على الشاشة، بينما كنتُ أقرأُ النصَّ العربي الأصليّ.

التقيتُ في بستويا أيضاً بسيدةٍ جاءت من روما ممثلةً لدار نشرٍ تعتزم إصدارَ أنثولوجيا لأشعاري باللغة الإيطالية.

❖ ❖ ❖

في ١٩٥٢، وبعد الإنتفاضة التي أسقطت ثلاثَ وزارات، وأُعلنت بسببها الأحكامُ العرفية، سَيقَ طلبةُ الكليات جميعاً إلى معسكرات تدريبٍ بالشمال (كردستان)، وهكذا وجدتُني في خيمةٍ عسكرية بمنطقة سِكْرين.

كان برنامج التدريبُ كاملاً، بما في ذلك الطعن بالحراب؛ وما زلتُ أحملُ في أعلى شفتي العليا أثرَ حربة أفلتتْ

من بندقية مُواجِهي الذي بالَغَ في حماسته!

كان يتولّى تدريبنا ضابطٌ شابٌّ حديث التخرج من الكلية العسكرية اسمه كمال المفتي، وقد التقيتُ به أوائل التسعينيات في أربيل حين كان وزير دفاع كردستان.

أخرجَ محفظته الضخمة وأبرزَ منها صورةً، وأشار إلى شبحٍ فيها: أنت!

❖ ❖ ❖

آمرُ السريّةِ، ضابطٌ أعلى رتبةً، نحيفٌ، كثُّ الشاربين، جَهْمٌ أبداً، اسمهُ صالح.

أمّا لقبه السائرُ بيننا فقد كان: **صالح بشتاوة.**

البشتاوة: المسدّس القديم، الضخم عادةً.

❖ ❖ ❖

بينما كنا نعود ذات مساءٍ إلى فندقنا، فندق باتريا (الوطن) قالت لي الشاعرة الأميركية ذات الأصل الهِسبانيولي:

أتعرف؟

بلدة بستويا هذه، كانت في العصر الوسيط ذات أهمية خاصة، وقد أسهمتْ إسهاماً مباشراً في أن تأخذ العصورُ التاليةُ جانباً من مَلْمَحها ...

هذه البلدة Pistoia اخترعت المسدس!

Pistoia

Pistolet المسدس بالفرنسية

Pistol المسدس بالإنجليزية

وهكذا، يا سادةُ، يا كرامُ، حصل صالح بشتاوة على لقبه!

❖ ❖ ❖

بعد انتهاء المهرجان، وفي الطريق إلى مطار بيسا (حيث برج بيسا الشهير المائل)، سألت سائق السيارة بتلك اللغة العجيبة الوسيطة:

أصحيح أن المسدس اخترع في بستويا؟

ابتسم السائق ابتسامة عريضة: نعم! نعم!

ثم أشار إلى برج بيسا البعيد ...

لندن ٢٠٠٤/٦/٣٠

زيارةُ سِيجموند فْرُويد Sigmond Freud

أمس، السبت، الحادي عشر من تموز، كان الجوُّ منذِراً، الغيوم السود تتجمّع، واحتمالاتُ الرعد قائمةٌ؛ أي أن الوقت غيرُ مناسب البتّةَ لزيارة سيجموند فرويد، صاحبِنا الفريدِ، في منزله / المتحف، بهامستيد، الحيِّ اللندنيّ العريقِ، حيث أقام الرجلُ بعد أن هجر بيته بالعاصمة النمساوية، فيينّا، أواخرَ الثلاثينيات، إثرَ إلحاق النمسا بألمانيا الهتلرية، ذلك البيت الذي أقامَ فيه واشتغلَ، سبعاً وأربعين سنةً ...

كان الوقت صعباً، وكانت صحة العالِم فرويد تتداعى تحت وطأة المغادَراتِ، من فيينّا إلى باريس، ومن باريس إلى لندن.

قلتُ إن الجو كان منذِراً، لكننا (أنا وصديقتي) قرّرنا المُضِيَّ في ما اعتزمناه، وهكذا انطلقنا، تحت مطرٍ غزيرٍ، ورعودٍ نادرةٍ، من أقصى غربيّ لندن إلى هامستيد: فرويد أو الموت!

صديقتي _ وهي من النمسا _ كانت معْنيّةً بجانبٍ من اهتمامات ابن بلدِها، بمراسلاته خاصّةً، مع الفنانين والعلماء والفلاسفة: آينشتاين مثلاً.

أمّا أنا فكنتُ مأخوذاً بدراسة نُشِرتْ مؤخراً، هنا، في لندن، تعالج ما جرى في أبو غُرَيب من استباحات، في ضوء فرويديّ إلى حدٍّ كبير.❖

سيكون مُجْدياً (ليَ في الأقل) أن أطّلِعَ أكثرَ على تفاصيلَ متناثرةٍ جداً من مسألة فرويد والحرب

(الحرب الأوربية طبعاً).

بلغنا منزل فرويد تماماً وقت افتتاح الزيارات: الساعة الثانية عشرة ظهراً.

للمناسبة، من المفيد القول إن الجمعية البريطانية للتحليل النفسي ذات علاقة وثيقةٍ بالمكان.

أمضينا حوالي الساعتين في المكان.

لا مكان هنا لاستعادة كلامٍ مثل: هذي عباءتُهُ في الركن مهملةٌ ...
كل شيءٍ دقيقٌ، مدقّقٌ أكثر من الساعة!

❖ ❖ ❖

المفاجأةُ كانت في المغادرة ...
حين كنت أهبطُ من السلّمِ الثاني، التفتُّ كالمُوَدّعِ، لأجدَني أتوقّفُ متيبّساً:
يا إلـهي!
من ركنٍ غيرِ مهملٍ، أعلى السلّمِ الثاني، كانت لوحةٌ صغيرةٌ، ومُصَغَّرٌ لها ...
لم أصدّقْ حدسي.
أعدتُ مسرعاً ارتقاءَ الدّرجاتِ الثلاث التي كنتُ هبطتُها للتوّ، واتجهتُ مباشرةً إلى ذلك الركن، أعلى السلّمِ الثاني، كأنني أتجه إلى مصيري:
نعمْ! إنـها الذئابُ ...
فضاءٌ (سيبيريّ؟) أبيضُ أزرقُ.
شجرةٌ ذات ستة فروع.
الفروع متقابلةٌ، اثنين اثنين.
على كل فرعٍ من الفروع الأربعة المتقابلة انتصبَ ذئبٌ.
الفرع الخامس من اليسار اعتلاه ذئبٌ.
الفرع السادس (من اليمين طبعاً) كان عارياً.
تفصيلٌ صغير:
في الأسفل، صورة فوتوغرافية (أو هكذا تبدو) لسيرجيي وأخته أنّا، حين طفولتهما!
إذاً، هاهوذا الرجل الذئب: **سيرجيي رينكيجيف.**
وتلك شجرته الشهيرة في التحليل النفسي المبكر: **الشجرة ذات الذئاب.**

❖ ❖ ❖

كان سيرجيي رينكيجيف (الرجل الذئب كما لُقِّبَ في تاريخ التحليل النفسي) نبيلاً روسياً، التقى مع فرويد وخضع لملاحظته، وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، فرَّ من بلاده، وساءت حاله كثيراً، حتى لقد كان يمرّ على فرويد بين حين وآخر فيساعده هذا بمبلغٍ ضئيلٍ نسبياً، إذ أن فرويد نفسه لم يكن ميسور الحال.

❖ ❖ ❖

مُـدَوَّخٌ أنا ...
شجرة الذئاب تأخذ المكان كله، وتظلُّ، كما في الأصل، صغيرةً ...
الفضاء السيبيريّ، أزرق أبيض، وليس في اللوحة أزرقُ وأبيض.
اللوحة فيها ما يشبه رماد شجرِ الأثَل (الأكاسيا؟)
من أين يتسلل البردُ إلى مفاصلي؟
كانت عيون الذئاب مريحةً
وبدا لي أن الخِـطْـمَ استحال فماً،
وأن هذا الفم سينفرجُ، لا عن أنيابٍ عُصْلٍ، بل عن لؤلؤٍ نضيدٍ ...
لكنْ ... إنْ كانت الأمورُ هكذا، فمن أين أتتني الرعشةُ؟
ولماذا وجدتُـني أكاد أهذي: دثِّـريني ... دثِّـريني؟

❖ ❖ ❖

سوف تهبط ذئاب سيرجيي من أعالي أغصانها إذا ما جَنَّ الليلُ.
ولسوف تبرقُ عيونها في الليل السيبيريّ البهيم.
ولسوف:
' تقضقضُ عُصلاً في أصِرّتها الردى
كقضقضةِ المقرورِ أرهقَـه البردُ '

❖ سوف أحاول أن أنقل هذه الدراسة إلى العربية قريباً.

لندن ١٢/٧/٢٠٠٤

أبو غُرَيب ' تحتَ ضوءٍ فروُيديّ

' المادة المقدَّمة إلى القاريء هي مقتطفٌ أساسٌ من دراسةٍ هامة كتبتها جاكلين روز Jacqueline Rose عن فرويد وصعود الصهيونية، منشورةٍ في عدد تموز ٢٠٠٤ من (مجلة لندن للكتاب) London Review of Books معروفٌ أن فرويد كان ضد الصهيونية لأسبابٍ عدةٍ منها علاقة الفكرة ذاتها بالحرب. تستهدي الكاتبة بالمنهج الفرويدي حين الإشارةُ إلى أبو غُرَيب واحتلال العراق.'

مع سقوط بغداد، وما صاحبه من سلب ونهب، عادت الدعوى القديمة، العتيقة قروناً، عن ' الشعب '، تعلن عن نفسها صريحةً. هذهِ الدعوى ترى أن الناس، الناس المجتمعين، غير قادرين على كبح جماح أنفسهم.

وفي الحالة العراقية، يبرز أيضاً ادِّعاءان آخران.

الأول، أن الناس الذين تحرروا للتوّ من نير الدكتاتورية هم بحاجة إلى مراقَبة؛ لقد وُضِعتْ تجاوزات الناس على عاتق صدام حسين في ذات الوقت الذي فقد فيه السيطرة على الناس؛ أي أن هذه التجاوزات ليست من مسؤولية جيوش الاحتلال، مثلاً. الإدعاء الثاني هو أن الشعب العراقي نَزّاعٌ إلى مثل هذا السلوك، لأنه خارج العملية التمدينية للغرب.

هكذا تسمح لنا صيغة دونالد رامسفيلد المراوِغة: ' الأمرُ يحْدُث '، بالتفكير، للحظة، في أن أموراً كهذه قد تحدث لأي أحد، لنا افتراضاً، أو له هو. إن ما تتضمّنه الصيغةُ المذكورةُ، في العمق، هو شكلٌ تمييزيٌّ (بالمعنى العنصري) للحكم على الأمور.

بين الدكتاتورية والبربرية، يظل العراق تحت الإدانة: ومن أسباب ذلك، بلا شكٍّ، أن الديمقراطية ينبغي أن تستورَد، وأنها لا يمكن أن يُعهَدَ بها إلى العراقيين

أنفسهم، حتى وإن كانت الصور الآتية من أبو غُرَيب تقضي بألاّ فروقَ لصالحنا، بيننا وبينهم.

من أشد الأشياء الصارخة التي جاء بها فرويد في ' **سيكولوجيا الجمع و في تحليل الذات** ' العام ١٩٢١، كان التحول من صورة **الجموع** المحدودة بالغوغاء المنفلتة، إلى الكنيسة والجيش، حيث تُصنَع الهويّاتُ الجمعية الأكثر حميّةً وقداسةً.

إن المصطلح الفرويدي (بالألمانية طبعاً) هو die Massen "، وهو مصطلحٌ ملتبسٌ بين جماعة وجماهير. ولربما كانت الترجمة الأقرب إلى روح النص هي ' المجموعية '، ذلك لأن سؤال فرويد، عبر نصوصه، منذ ١٩١٤ ولاحقاً، يتعامل مع ما يجعل الأفراد

يربطون أنفسهم في كيانات تضمُّ أكثر من شخصٍ واحدٍ. لكن مصطلح ' المجموعية ' يبتعد عن المشكلة، لأنه يتجنب محو الحدود الملتبس والمرتبك بين الناس والجماعات. أو، لنقلْ بين النهّابين والجيش. أو، بين العراقيين الهائجين في الشارع والجنود الأميركيين

والبريطانيين في سجون بغداد الذين يطيعون الأوامرَ الشريرة الصادرة من آمريهم الأعلى رتبةً.

تقول لِيندي إنجلند (المجندة صاحبة الصورة الشهيرة في معسكر تعذيب أبو غرَيب): ' نحن لا نشعرُ بأننا كنا نفعل أموراً كان يُفترَضُ ألاّ نفعلَها '. لكن حقيقة أن بالإمكان تتبّع الأوامر حتى أعلى مصادرها لم تمنع أن تمسي لِيندي إنجلند شاةَ الفداء في الولايات المتحدة وإنجلترا على حدٍّ سواء.

من الصعب الحفاظ على الأخلاقية بحبل انقياد.

في الحالة العراقية، القضية أفدحُ؛ لأن الإنتهاكات لم تكن فعلَ فردٍ أو اثنين يسهُلُ كرهُهُما، بل كانت فعلَ مجموعة يفترَضُ فيها أنها تجسِّدُ مفخرتَنا القومية. أحياناً ينتاب المرءَ شعورٌ بأن الجُرمَ لم يكن الفعل نفسه، بل كشف الفعل. سوف يكون احتقار ليندي إنجلند أقلَّ لو كان الأمر متعلقاً بما اقترفته هي وزملاؤها، لكن الموضوع هو أنها حطّمت حالة الرضا بالقيم الغربية حين أتاحت للعالم أن يرى ما جرى في أبو غرَيب.

المجرم الوحيد يمكن استبعاده، لكن لا يمكن استبعاد سياسة حكومة، منتخبة ديموقراطياً، ومن هنا فهي تمثل، أيّ واحدٍ منا، وكلَّ واحدٍ منا. نحن لا يمكن أن نلقي جرائمنا على عاتق دكتاتور.

الناس يمكن أن يكونوا قساةً، ومؤسساتنا يمكن أن تكون شريرةً.

لكن معرفة هذا، لن تقدم أو تؤخر في المدى البعيد. بل يمكن لها أن تزيد الأمرَ سوءاً.

يرى فرويد أن الناس يلجأون إلى التطرف حين يكون حبُّ الذات لديهم مهدَّداً.

فبدلاً من أن يكونوا متواضعين، يميلون إلى الإندفاع في دفاعٍ عن النفس، نرجسيٍّ. ونحن سنكون في دائرة شريرةٍ لو كان حقاً أن الناس لا يعرفون حدوداً لما يفعلونه حفاظاً على إيمانهم بأنفسهم.

❖ ❖ ❖

كتب فرويد يقول:

ثم اندلعت الحرب التي كنا رفضنا أن نصدقَها، وجاءت – بالخيبة ... لقد أهمَلت كل الحدود المعروفة في القانون الدولي، التي التزمت بها الدول وقت السلام. لقد أهملت حقوق الجرحى والخدمات الطبية، والتمييز بين المدنيين من السكان والعسكريين.

لقد داست على كل ما اعترضَ طريقها، كأنْ ليس من مستقبلٍ ... لقد قطعت كل الروابط المشتركة بين الشعوب المتحاربة،

مهددةً بميراث مرارة يجعل إحياءَ تلك الروابط مستحيلاً لأمد طويل.

ولربما كان أكثر أهميةً ما يفعله هذا السلوكُ في العلاقة بين المُواطنِ والدولة.

وبالضبط، لأن الدولة ممثلةُ الشعبَ، وبالضبط لأننا ديموقراطية، صارت خيبة الأمل شديدةً إلى هذا الحدّ.

ما يتهاوى الآن، هو الإيمانُ بفضيلة المؤسسات التمثيلية وفضلها. لقد شرعَ الناسُ، المواطنون، يفكرون بأن الدول قد تجسِّد الشرورَ ذاتَها التي طالما اتُّخِذَتْ مبرراً للدخول في حروبٍ ضد دولٍ – تسمّى الآنَ شموليةً، أو شريرةً، أو فاشلةً.

ويمضي فرويد قائلاً: الشعوبُ، إلى هذا الحدّ، أو ذاك، ممثَّلةٌ بالدول التي أسّسوها، وتلك الدول ممثَّلةٌ بالحكومات التي تتولّى شأنها.

أما اليومَ، فإن المواطنَ مواجَهٌ بـ 'الرعب' حسب تعبير فرويد، رعبِ أن الدولةَ منعتْ على الفرد ممارسةَ الخطأ، لا بسبب الرغبة في إزالته، وإنما بسبب الرغبة في احتكاره، شأنه شأن الملح والتبغ.

فرويد يستعمل هنا كلمة " der Schrecken "، أي الرعب، Horror or Terror، في تصنيفه الحربَ وخيبةَ الناس.

الدولةُ المحارِبةُ لا تخرق فقط القانونَ المتعلقَ بالعدوّ، وإنما تخرقُ أيضاً المبادئَ التي تنظم علاقتها مع مواطنيها.

يكتب فرويد قائلاً:

الدولة المحارِبةُ، تمنح نفسَها فِعلَ كلِ سوء، كلَّ عملِ عنفٍ يُشينُ الفردَ.

لا غرابةَ، إذاً، أن تهرعَ الدولةُ، بعد افتضاحٍ ما جرى في ' أبو غرَيب '، إلى إلقاء التبعة على المواطنين، باعتبار أن ما جرى كان

' عاراً فرديّاً '. الأدهى من هذا، أن الدول تستخدم السرية والرقابةَ لتسلبَ مواطنيها الدفاعاتِ الحاسمة التي قد يحتاجونها للتعامل مع واقع الحرب. كثيراً ما قيل لنا إن الحقيقة هي الضحية الأولى للحرب. ونحن أميَلُ إلى فهم ذلك في نطاق الرقابة على المعلومات، لكن فرويد يثير نقطة أخرى. إخماد قدرة المواطنين على الحكم هو هدفٌ رئيسٌ من أهداف الحرب لدى الدولة الحديثة.

أعتقدُ أن هذه إحدى لحظات فرويد الأشدّ تألّقاً. بالطبع يمكن للمرء قراءة تلك المقالات باعتبارها، جزئياً، استجابةً منه لخيبة الأمل حين وجد بلده تلتزم الجانبَ الخطأ في الحرب العالمية الأولى:

' نحن نعيش آملين في أن صفحات التاريخ غير المنحاز ستبرهن أن تلك الأمّة التي نكتب بلغتها، والتي يحارب أعزّاؤنا في سبيل انتصارها، كانت بالضبط الأقلَّ تعدياً على قوانين التمدن. لكن من يجرؤ أن ينصِّب نفسه قاضياً في قضيته ذاتها؟ '

لكن في هذه المرثيّة دفاعاً شرساً عن الناس إزاءَ احتكار الدولة الديموقراطية وإساءة استخدام العنف. الأمر لا يقتصر على أن الدولة تطلب من مواطنيها شكلاً من الفضيلة تفتقده هي علانيةً، أو أنها تقمع الخصالَ النقدية لدى المواطنين حين هم بحاجةٍ أشدّ إلى حرية ممارستها، أو أنها خانت عهدَ الثقة بينها وبين مواطنيها في وقتٍ تطلب فيه من هؤلاء باسم الوطنية مزيداً من التضحيات.

كل هذا سيّءٌ، لكن الأسوأ هو إصرارُ الدولة على أن أخسَّ حربٍ هي فضيلةٌ.

التضحية الكبرى التي تطلبها الدولةُ من الناس الآن هي التخلي عن حقهم في ألاّ يصدّقوها.

مراراً قيل لنا في الأسابيع الأخيرة، ربما لتلطيف مشاعرنا، إن ما فعلناه في أبو غُرَيب ليس شيئاً مقارنةً بالإعدامات وصنوف التعذيب أيامَ صدام حسين. كأن صدام حسين صار ' البوصلة الأخلاقية للغرب ' بتعبير أهداف سويف.

الإذلالُ مُرَكّبٌ مركزيٌّ من مركّبات التعذيب.

ومثل ما أشار معلّقون كثيرون، كان الإذلال، في أبو غريب، مركّزاً على حساسيات المسلِم المتّصلة بالعورة والكبرياء.

تكمن خلف هذا الإذلال سياسةٌ دقيقةٌ في التعذيب السايكولوجي.

ورد في كتاب ' تعليمات التدريب ' الذي أصدرته وكالة المخابرات المركزية CIA ، العام ١٩٦٣، للهندوراس، الآتي:

' الغاية من التقنيات القسرية هي الوصول إلى انكفاءٍ سايكولوجي ... والإنكفاءُ هو في الأساس فقدانٌ للإستقلالية '.

يكاد يكون هذا، هو السيناريو الذي وضعه العالم في التحليل النفسي، كريستوفر بولاس، في مقاله المنشور العام ١٩٩٥ بعنوان ' بِنْية الشر '، وهو يصف ' الموت النفسيّ ' أو ' التطفيل الراديكالي ' Radical Infantilisation ومؤداه أن القاتل المتسلسل The serial killer يفرض على ضحيته جواً ' فيه الثقةُ منهارةٌ تماماً، والجنونُ قائمٌ بسبب النفي المفاجيء للواقع؛ آنذاك يمارس الضحيةُ نفياً لبِنى الشخصية البالغة، والتحاقاً بزمنٍ هو نوعٌ معيّنٌ من الوضع الطفوليّ. وربما اعتمدَ في وجوده نفسه على نزوة الجنون الحبيس '.

الجنون الحبيس، تنطبق على أبو غرَيب.

أمرٌ هامٌّ في الحالَيْنِ أن المَعْنيّ يعادُ إلى حالة التبعية الطفولية، وفي الوقت نفسه يفقد كل نقاط المرجعية التي تسمح له بأن يجد نفسه حتى وهو في هذا العالم الإنكفائي الطفولي.

المفتاح الذي قدّمته الـ CIA في تعليماتها هو ' فقدان الإستقلالية '.

وهكذا، بدلاً من السموّ بالعالَم إلى مَراقي التمدن والحضارة، يبدو أن القوى الحاكمة في القرن الجديد تجهد قدر طاقتها، في محاولة أن تردّ مواطنيها وأعداءَها، على حدٍّ سواءٍ، أطفالاً قاصرين.

لندن ٢٠٠٤/٧/١٤

يومياتٌ عراقيةٌ (٢)

كتابة: باترك كوكبورن Patrick Cockburn

من المُغري النظر إلى تسليم السلطة من الولايات المتحدة إلى الحكومة العراقية الإنتقالية في الثامن والعشرين من حزيران، باعتباره كذبةً فاضحةً. القلائل الذين حضروا مراسيم تسليم السيادة قانونياً كان عليهم المرور عبر أربع نقاط تفتيش أميركية. رئيس الوزراء الجديد إياد علاّوي، اشتغل سنينَ في خدمة الـMI6 (البريطاني) والـCIA، وهو باقٍ في السلطة بسبب ١٣٨ ألف جنديّ أميركي. وزراء الحكومة الجديدة يسكنون داراتٍ فاخرةً داخل منطقة آمنة. والكثير منهم قضى معظم حياته خارج العراق.

مثول صدام حسين وزمرة جلاّديه أمام القضاء يتّسِمُ باصطناعٍ مماثلٍ – لم تخفف منه الرقابة الأميركية التي حذفت مشاهد صدام حسين مغلولاً مع أصحابه الأحد عشر. حاول الرقباءُ حذف ادّعاء صدام حسين بأن ' بوش هو المجرم الحقيقي ' فأخفقوا لسبب بسيط هو أنهم يجهلون كيف تعمل الأجهزة الصوتية. لم ينكر الأميركيون حقيقة أنهم يديرون المحاكمة، وأن المشاهِدين المقصودين ليسوا عراقيين. المراسلون الأجانب الوحيدون الذين سُمِح لهم بالدخول ومتابعة جلسة الإستماع كانوا أميركيين، كما أن موعد الجلسة رُتِّبَ ليكون مع موعد تلفزيون الفطور الأميركي. لو استطاع جورج بوش التظاهرَ لمدة أربعة شهور بأن العراق كان تحت السيطرة فلسوف يعاد انتخابه. وإن ملأت الكوارثُ العراقيةُ الصفحات الأولى فقد يخسر. في نيسان قُتِلَ ١٢٥ جندياً: البيت الأبيض يريد أن يُظهِر للناخبين أن الخسائر البشرية في طريقها إلى انخفاض.

تعيين علاّوي نفسه هو بحد ذاته دليلٌ على مدى تحوُّلِ الموازين ضد الولايات المتحدة. قبل اثني عشر شهراً كان نائب الملِك، بول بريمر، يتحدث بحبورٍ عن

الإستمرار في الاحتلال عامين مقبلين. كان أول ما فعله حين مجيئه إلى العراق حلّ الجيش والأمن. فُككَتْ آلةُ الدولة. وبدا أن الحكم الإمبريالي المباشر هو الأنسب للولايات المتحدة. وأُرسلَ الجمهوريون الشبّان ليحكموا العراق شأنهم شأن النبلاء البريطانيين الشبّان الذين أُرسِلوا لينهبوا الهند في القرن الثامن عشر. تقدمَ شابٌّ جمهوريٌ يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنةً، إلى البيت الأبيض، يطلب العمل هناك، فأُرسِلَ بدلاً من ذلك إلى العراق ليفتحَ بورصة بغداد. ظلت البورصة مغلقةً. وفي بداية الأمر لم يكن لمنظمة مروَّضة مثل مجلس الحكم سوى دورٍ استشاري.

داخل المنطقة الخضراء، الجيب الأميركي ذي الحراسة المشددة، في قلب بغداد، كان بريمر والضباط الأميركيون منقطعين عمّا كان يجري على الأرض. كان الجنرالون الأميركيون في إيجازاتهم الصحافية يتحدثون عن انخفاض العمليات العدائية. صرتُ أتساءلُ كيف؟ كان هناك بين ١٥ إلى ١٦ هجوماً ضد الجنود الأميركيين يومياً، وبدا لي أنني كنت أشهدُ رُبعَ هذه الهجمات في الأقل وأنا أجوب بغداد. ثم أخبرني الجنود الأميركيون الميدانيون أنهم لم يعودوا يبلغون عن الهجمات إن لم يكن فيها خسائر في الأرواح. إنها مضايقاتٌ مكتبية، والآمرون يريدون أن يسمعوا أن المقاومة تتلاشى.

في تشرين ثاني كان من المستحيل إخفاء الأخبار السيئة. كنتُ في موقف السيارات المترب في الفلوجة، غربيّ بغداد، حين سمعنا أن طائرة هليكوبتر ضخمة من طراز شينوك قد أُسقِطتْ. انطلقنا عابرينَ جسرَ حديد عتيقاً على الفرات لنشاهد الحطام. وفي طريقنا رأينا سيارةً محترقة كانت أصيبت بصاروخ؛ المقاولون الأميركيون داخلها كانوا قُتلوا. في الجانب البعيد من الضفة كان المزارعون يتداولون بأيديهم قطعاً معدنية معوجّة من حطام الهليكوبتر: ستة عشر جندياً قُتِلوا. بعد تلك الحادثة بزمن قليل بدأ البيت الأبيض يخطط لتخفيف الحكم الإمبريالي الكامل، وإقامة حكومة مؤقتة.

لقد خلق الأميركيون لأنفسهم مشكلاتٍ غير ضرورية. السياسة العراقية تدور حول العلائق بين الطوائف الرئيسة الثلاث: المسلمين السنّة العرب، الشيعة العرب، والأكراد. بريمر بحلّه الجيشَ واضطهاده أعضاء حزب البعث أبعَدَ السنّة الذين يشكلون عشرين بالمائة من السكان. كان يمكن للأميركيين الإستغناء عن تأييد

السنّـة لـو كـانوا مستعدين لمنح الشيعة الذين يشكلون ستين بالمائة مـن السكّـان، السلطة. أمّا الأكراد (٢٠٪ من السكان) فهم في الركن الأميركي منذ الآن.

لكن الولايات المتحدة، لا تريد، حقّاً، أن يشاركها أحدٌ السلطة.

بريمـر، وسلطة التحـالف المؤقتـة، لـم يكـن يبـدو أنـهم يـرون قوتـهم السياسـية تتضاءل شهراً بعد شهرٍ.

في نيسان اتخذت الولايات المتحدة قرارَين مدمِّـرَين قادا في آنٍ إلى مواجهاتٍ مع السنّـة والشيعة.

أربعة مقاولين أميركيين للأمن الشخصي كانوا قُتِلوا، وأُحرِقتْ جثثهم، وعُلِّقت من جسرٍ في الفلوجة. مشاة البحرية طوّقوا البلدة وحاصروها سريعاً. قُتِلَ ستمائة من أهـالي البلدة. وفي وقتٍ غير ملائمٍ تماماً قـرر بريمـر ملاحقـة مقتدى الصـدر، رجل الدين الشابّ الراديكالي الذي استُشهِدَ أبوه زمن صدام حسين، سنة ١٩٩٩. مغامرتا بريمر الإثنتان كانتا خائبتين. مشاة البحرية لم يجرؤوا على اقتحام الفلوجة خوفاً من انتفاضة سنّـيةٍ عامّـة. الصدر تراجعَ إلىالمدينتين الشيعيتين المقدستين، الكوفة والنجف، لكـن الولايـات المتحـدة لـم تستطع إرسـال دباباتـها إلـى العتبـات الشيعية المقدسـة. وفي الفلوجـة والنجـف، كلتيـهما، اضطـرَّ الجنـود الأميركيون إلـى الإنسحاب.

كانت السلطة تتسرّب من بين أيدي الولايات المتحدة قبل تسليمها، اسميّـاً، إلـى علاّوي.

بعد عامٍ من إعلان بوش انتهاء العمليات الرئيسة، صـار للمتمردين عاصمتـهم في الفلوجة.. في نيسان وقعتْ في كمينٍ نُصِبَ لسيارات صهاريج البترول الأميركية عنـد أبـو غرَيـب. لـم يُـرِد القـادة العسـكريون الأمـيركيون الإعترافَ بأنـهم فقـدوا السيطرة على الطريق فظلوا يرسلون قوافلهم عليه. في أوائل حزيران صار الطريق المؤدي إلى المطار، القاعدة الأميركية الرئيسة في بغداد، غير آمنٍ.

أربعـة حـراس أمـنٍ كانوا يسكنون طابقين أعلى مني في فنـدق الحمـرا، قُتِـلوا، وهم متجهون إلى المطار، بنيران رجالٍ مسلحين بالرشاشـات وقـواذف القنـابل. غالبـاً ما كنت أسافر مع دان ويليامز من الواشـنطن بوسـت، الـذي كـاد يُقتَـلُ علـى الطريـق بين الفلوجة وأبو غرَيب، حين هـاجمَ سيارتَـه، مسلّحون في سيارة أخرى، بصليـات

كلاشينكوفات قريبة. ولم ينقذه إلا كون سيارته مصفّحةً، ذات زجاجٍ ضد الرصاص، واستمرار السيارة في الإنطلاق بالرغم من تعطل إطارَي عجلتيها الخلفيتين.

الإنتحاريون، والسيارات المفخخة، والهجمات بالصواريخ، شلّتْ بغداد. القواعد الأميركية صارت تُحمى بتحصينات أكثر ظهوراً. جسر ١٤ تموز على نهر دجلة المؤدي إلى المنطقة الخضراء أُغلِقَ بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة، وعُلِّقت لوحةٌ تقول: لا تدخلْ، وإلاّ أُطلِقَ عليكَ الرصاص.

الجنود الأميركيون في بغداد مغرَمون بإطلاق النار، وحريصون على أن يعرف العراقيون ذلك.

على امتداد المدينة، الشوارع تغلَق، لتعزل أحياناً أحياءَ كاملةً، بالكتل الكونكريتية المقصود بها حماية المباني التي تؤوي جنوداً أميركيين، وأجانبَ، وشرطة عراقيين، وموظفين عراقيين.

قبل عشرين عاماً، اعتدتُ أن أغشى المطاعمَ المفتوحة على امتداد شارع أبو نواس، وأتناول ' السمك المسقوف '، سمك نهر دجلة

المشويّ على نار الأعواد. المطاعم تضررت كثيراً، أيام الحملة الإيمانية لصدام حسين، التي حظرت تناول الكحول في الأماكن العامة. بعد سقوط صدام كان أصحاب المطاعم يأملون في عودة الزبائن. شارع أبو نواس، هذه الأيام، مهجورٌ حتى في عز النهار،

ومستخدَمٌ عادةً من قِبَل السيارات العسكرية. لا يمكن دخول الشارع إلا من مدخلٍ واحد، وهناك نقطة تفتيش تتولى حماية فندقَي فلسطين وشيراتون، الغاصَّين، كليهما، بالأجانب العارفين أن أبو نواس خطرٌ جداً عليهم.

تحدثتُ مع شهاب العبيدي، صاحب مطعم ' شط العرب ' على ضفة نهر دجلة. سمكٌ أسودُ يسبح في بُركةٍ مزيّنةٍ بالكاشي الأزرق (النهر ملوّثٌ الآن، والأسماك مصدرها المزارع). قال شهاب إن العمل ليس جيداً. ثلاثة أرباع الزبائن اعتادوا القدوم في المساء، أمّا الآن، فعليه أن يغلق في الساعة السادسة عصراً، لأن الليل غير آمنٍ. مرةً ظل المطعم مفتوحاً لأن مائدة كانت عامرةً بأناسٍ يستمتعون بوقتهم، ويقول شهاب: ' وعندما قدمتُ لهم قائمة الحساب، ضحكوا، وأخرجوا

مسدساتهم، وشرعوا يطلقون النار نحو السقف ومن خلال النوافذ '، وأشارَ إلى ثقوب رصاصٍ عدة.

الأجانب في بغداد والمدن الأخرى، جميعاً، يسكنون المنطقة الخضراء، أو مناطق خضراء أخرى مماثلة. الكتل الكونكريتية والأسلاك الشائكة والحراس، تملأ كل مكان، وفي كل اتجاه. وأنا لم أعد أحمل آلة تصوير في بغداد، لأن أي شخص يلتقط صوراً فوتوغرافية هو موضع شكٍّ في أنه يقوم بعمل استطلاعٍ من أجل عملية هجومية. أحد أعضاء فريقٍ سينمائي فرنسي حديث الوصول، متوقفٍ في اختناق مروريٍّ، التقط صوراً لحاجزٍ كونكريتي ضخمٍ يحمي الشارع المؤدي إلى فندق بغداد الذي هو، كما يعتقد العراقيون، مقر الـCIA. الحراس العراقيون اعتقلوا أعضاءَ الفريق فوراً، وأبقوهم خلف القضبان ليلتين.

فندق بغداد قريبٌ من شارع صدّام، أحد شرايين المدينة الرئيسة.

قبل أسابيع قليلة، ضُيِّقَ الشارع من أربعة مسارب إلى مسربين اثنين في القسم القريب من الفندق. والآن، هناك اختناقٌ مروريّ دائم، كما أن ثلاثين دكاناً في محيط الفندق مهددةٌ بالإغلاق. قال نديم (ناظم؟) الحسيني، وهو جالسٌ خارج دكانه الفارغ: 'شُغلي كله انتهى تماماً. في البداية انتهى ٣٠٪ إلى ٤٠٪ حين أقاموا الحاجز الكونكريتي، و انتهى ١٠٠٪ حين أغلقوا الشارع '

لِصقَ المكان، كان الزبائن الدائمون في مقهى زهير طعمة (لستُ متأكداً من دقّة الإسم _ المترجِم)، لا يزالون يأتون ليدخنوا الأرجيلة ويلعبوا الدومنة. يقول الرجل: ' أنا، مثل الأميركيين، لا أريد أن يقتلني تفجيرٌ. لكن الحل الحقيقي، هو، ببساطة، أن يرحل الأميركيون الذين يسكنون الفندق '.

لا الإنتحاريون، ولا الجيش الأميركي، معْنيّونَ كثيراً بعدد العراقيين الذين يُقتَلون. مَداخل المنطقة الخضراء لا تقدم أي حماية للعراقيين المصطفّين للحصول على عمل، أو لتدقيق هويّاتهم. وهكذا، غالباً ما يكونون في دائرة التفجيرات.

في السابع عشر من أيّار، قتَلَ انتحاريٌّ، رئيسَ مجلس الحكم (مجلس المحكومين، بتعبيري – المترجِم)، بينما كانت قافلة سياراته تنتظر دخول المنطقة

الخضراء. أخبرَني وزيرٌ عراقيٌّ أن السيد سليم كان يمكن له أن يتفادى القتل لو أن الجنود الأميركيين في البوابة لم يؤخروا دخول الموكب بدعوى أن وثائق معينةً لم تكن مستكملةً. ثمّتَ نظريةٌ عراقيةٌ للمؤامرة ترى أن الإنتحاريين الأجانب

والولايات المتحدة يعملون معاً لمنع العراقِ استعادةَ استقلاله.

الإنتحاريون، أضرّوا، نوعاً ما، بالمقاومة.

العراقيون متلهفون إلى عودة أمنٍ.

الموسرون ينتابهم خوفٌ عميمٌ من الإختطاف.

وخلال العام الماضي صار الإختطاف تجارةً محليةً، مألوفةً، حتى لقد أضيفَ مصطلحٌ جديدٌ إلى قاموس اللصوص العراقيين؛ فالضحيةُ المختطَف صار اسمه: **الطِلِي** (يعني الخروف بالدارجة العراقية مع استخفاف معيّنٍ – المترجِم)

زرتُ قاسم سبتي، وهو رسامٌ ونحّاتٌ يملك معرضه الخاصّ، لأستفسر منه عن معرضٍ مزمعٍ له عن التعذيب في أبو غرَيب.

لكن أول ما تحدّث عنه كان عن الإختطاف. قال: " كثيرٌ من أقاربي اختُطِفوا. وأخشى أن أكون أنا التالي ". أشار إلى صاحبة معرضٍ آخر كانت دفعت للتوّ مبلغ مائة ألف دولار لاستعادة ابنها. رجل أعمالٍ يعيش في الأردن دفع ستين ألف دولار كي يستردّ صهره. الأطباء هدفٌ مفضّلٌ. عملياتٌ جراحيةٌ تؤجّل لأن الجرّاحينَ فرّوا من البلاد. مالك مطعم شط العرب المتداعي اختفى

هارباً إلى سوريا بعد أن اختُطِفَ ابنه. سألتُ الرائد فاروق محمد، مساعد آمر قوّة الاختطاف، عن أفضل السبل لتفادي الاختطاف، فقال ضاحكاً بين زملائه الضباط: " سافِرْ إلى الخارج! ".

الإحساس بالتهديد ليس من نصيب الميسورين فقط. زُمَـرٌ من اللصوص تصعد وتنزل في حافلات شارع الرشيد بوسط المدينة وتسلب الركاب تحت تهديد السلاح أو السلاح الأبيض. علي عبد الجبار سائق حافلة، سُلِبَ ثلاثاً. قال: " في آخر مرة دخل اللصوص لأن الأبواب يجب أن تُفتَح بسبب الحرّ الشديد. اثنان منهم انتصبا للحراسة في الخلف بينما تحرك الإثنان الآخران في الحافلة مفتشين حقائب الناس ومستولين على النقود والحليّ ". عبد الجبّار لم يجرؤ على أن يلتفتْ: اعتقدَ أن اللصوص سوف يقتلونه لو عرفوا أنه تعرّف عليهم. لم يذهب أحدٌ إلى الشرطة. " لم

يناقش الركابُ الأمر حتى بين أنفسهم، لأن هذا جزءٌ من الحياة اليومية في بغداد.
معظمهم ظنوا أنه متفقٌ مع العصابة.

الكوارثُ والنتائج

بعد كوارث العام الماضي صار الأميركيون يعرفون أنهم لا يستطيعون احتلال العراق، حتى للمدى القصير، بدون دعمٍ من حلفاء محليين. المشكلة هي أن معظم العراقيين يريدون من علاوي والحكومة الإنتقالية الخلاص من الإنتحاريين والخاطفين – وكذلك من الاحتلال الأميركي. لكن الولايات المتحدة لم تُبْدِ أي إشارةٍ إلى أنها تخلّت عن خطّتها في إبقاء العراق دولةً دائرةً في فلكها.

سيكون لهذه الدولة جيشٌ ضعيفٌ، مكرّسٌ بالكامل ضد التمرّد. لن يكون للعراق دبابات، أو طيران، أو صواريخ، أو مدفعية،

ولسوف يشبه أحد بلدان أميركا اللاتينية في الستينيات، بجيش وشرطة تتحكم فيهما واشنطن.

كانت هذه هي الرسالة التي جاء بها بول وولفوفيتز حين ظهر فجأةً في بغداد، شهر حزيران، برفقة كيفن تبِّتْ، نائب السكرتير الدائم في وزارة الدفاع– تماماً، قُبَيلَ تسليم السلطة.

الولايات المتحدة سوف تسمح للعراق بالتسلُّح، شريطةَ أن يكون ذلك ضد شعبه.

كانت الزيارة تتّسمُ بالتكتُّم.

تجنّب وولفوفيتز وحاشيته الأبنيةَ العالية.

حين زار المدينة قبل تسعة أشهرٍ أقامَ في فندق الرشيد، وهو مبنىً عالٍ يحتلّ السماء. أفسدَ المقاومون على وولفوفيتز نومه بإطلاقهم عدة صواريخ على الطوابق العليا، فقتلوا عقيداً أميركياً، وجعلوا وولفوفيتز يهرول هابطاً السلّمَ إلى زاويةٍ آمنة. (بالرغم من هذا كتب مزوِّرون أميركيون يرافقونه أن أوضاع الاحتلال تتحسّن، وأن قوى المقاومة تتراجع).

إنْ كان علاّوي يريد البقاء فعليه أن يقْنِعَ العراقيين بأنه ليس دُمْيةً أميركيةً.
كما أن عليه أيضاً أن يقْنع الولايات المتحدة بالإنسحاب خلال سنة، بالرغم من أنه، في الوقت الحاضر على الأقل، معتمدٌ اعتماداً كاملاً على الجيش الأميركي.
الصعوبة التي سيواجهها في الحالَينِ اتّضحتْ أوائل هذا الشهر (تموز) حين أعلن

الناطقُ باسمه أن المقاوِمين الذين حاربوا الأميركيين قبل نقل السلطة يسري عليهم العفو العام لأن ما فعلوه يندرج تحت إطار المقاومة المشروعة.

عضوٌ كرديٌّ في الحكومة، معروفٌ بعلائقه الأميركية الوثيقة، وجدَ الأمرَ شنيعاً.

في الوقت نفسه، يتفاوض علاّوي لإصدار عفوٍ عن الصدر (مقتدى)، الزعيم الشيعي، الذي كانت الولايات المتحدة تحاول قبل أسابيع قليلة، القبضَ عليه أو قتله.

الصراع على العراق، هو في بدايته فقط.

الشيعة يريدون انتخاباتٍ وسلطةً حقيقيةً.

السنّة يريدون خروجَ الولايات المتحدة، ولن يرضوا بالتهميش.

الأكراد يريدون حكماً ذاتياً أوسعَ مما يمكن للعراقيين العرب تقديمه: واقعُ الأمر أنهم يريدون وضعاً أقربَ إلى الإستقلال.

الإسلاميون يرون أن الولايات المتحدة قابلةٌ لأن تُهزَم في العراق، مثل الإتحاد السوفييتي في أفغانستان.

والمقاوِمون الوطنيون لن يتوقفوا عن قتل الجنود الأميركيين.

لكن الأهمّ من ذلك كله، هو أن الولايات المتحدة ليست مقتنعةً حتى الآن بأنها خسرت مقامرتَها الكبرى في السيطرة على العراق، البلد الذي صيّرتْه اختباراً لقوّتها باعتبارها السيد الإمبريالي الأوحد في العالم.

❖ كتب باترِك كوكبورن المادة بتاريخ ٢٠٠٤/٧/٥، ونُشِرت في مجلة لندن للكتاب

London Review of Books - 22 July 2004

حُكْمُ النَّوكى والحمقى

في العـراق الفطيسـةِ، الآنَ، حكـمُ النّـوكى والحمقـى، (التعبـير عنـوانُ رسـالةٍ للجاحظ)، هؤلاء الضباعِ، النوكى، رجالاً! ونساءً!

الكلُّ عابرٌ جنسَـه :Travesties

النسوةُ، في الإدارة والسفارة، مسترجلاتٌ. (الأمثلةُ صارخةٌ ...لكنني أعفُّ عن ذكرهنَّ)

والزِّلـم، من إياد علاّوي والغلام السعودي الياور، إلى أيهم السامرائي الأصفر ... مستخنثون. (الأمثلةُ صارخةٌ أيضاً)

ألم يكن من أولويات آية الله كنعان مكية في اجتماعات الهيلتون ميتروبوليتان بلندن، النص دستورياً على حقوق اللوطيين؟

العجيب في الأمر أن الأميركيين المتباهين برجولة رعاة البقر، نصّبوا على أرض السواد هذا الجمعَ من النوكى والحمقى، هؤلاء النسوةَ المسترجلات، والزِّلِـم المستخنَثين.

لكنّ للأمر تفسيراً ما:

يقالُ ... ليس أظلمَ من مَنْيَكٍ إذا حكمَ.

ألم تبلغكم تهديداتُ مَنْيَك الداخلية، والآخر الذي في الدفاع؟

وربما أرادَ الأميركيون أن يقولوا لنا:

لا ولايةَ لمن لا وليَّ له.

وما دام الأميركيون هم أولياء الله، فإن من حقهم الشرعيّ أن ينَصّبوا عابري جنسهم The travesties حكّاماً.

حكمُ المماليكِ، وهم خصيانٌ في الغالب، كان من أقسى عهود التسلط على الناس في منطقتنا.

واليوم، حكمُ عابري جنسهم The travesties ...

والحقُّ أن عابري جنسهم، كتعبيرٍ، لم أقيِّده بالأصل الجنسيّ، فالعابرون كثارٌ، ومَن قلبوا ستراتِهم أكثر ...

ويقال في اليمن: الحمدُ لله ... الرجال حبالى والنساءُ حبالى!

حمداً لله وشكراً!

لندن ٦/٨/٢٠٠٤

بحثاً عن فردوس القِيَمِ المفقود

مساءَ الرابع من آب هذا، كنتُ على موعد طالَ انتظارُه:

اللقاء مع دانييل بارينباوم، عازف البيانو القدير، وقائد الأوركسترا، وصديق إدوارد سعيد، وشريكه في أكثر من مشروع وعمل، من بينها ' متوازيات ومتفارقات '، والفرقة الموسيقية المختلطة – ' الديوان الشرقي / الغربي '، الإسم المأخوذ كما هو واضحٌ من الشاعر الألماني غوته.

كنتُ استمعتُ إلى بارينباوم يقود اوركسترا برلين الفلهارمونية في تأدية أعمالٍ لفاغنر وليست وموتسارت وغلينكا ودفورجاك، كما تابعتُ محاولتَه الذهاب إلى رام الله لتقديم برنامج موسيقي، وإخفاق المحاولة بسبب إقدام السلطات الإسرائيلية على منعه من التوجه إلى هناك، بدعوى الخطر الذي قد يتهدده.

هذا المساء، سيكون الرجل في ' الباربيكان ' مع فرقته المختلطة من إسرائيليين وعرب، ليقودها في أداء عملين موسيقيين ليسا هيِّنَينِ: الكونشرتو الثالث لبيتهوفن، والسمفونية السادسة لتشايكوفسكي.

هذا الحفل الموسيقي في العاصمة البريطانية كان ضمن الأنشطة المقامة إحياءً لذكرى إدوارد سعيد الراحل منذ عام.

ذهبتُ إلى هناك ولا يزال مقالٌ أخيرٌ للرجل يدور في خاطري.

❖ ❖ ❖

كان إدوارد سعيد يتحدث عمّا سمّاه أدورنو، **الأسلوب الأخير**، **Late style**، وهو تعبيرٌ عن الطرائق الأخيرة التي يلجأُ إليها المبدعون حينَ يلحق بأحدهم الهرمُ أو المرض، أو كلاهما؛ وإذ يتتبّع سعيد خصائص هذا الأسلوب الأخير لدى موسيقيين وكتّاب وشعراء، يركّزُ على بيتهوفن، ولامبيدوزا (مؤلف الفهد)، وكافافي في الإسكندريّ.

المرحلة الثالثة من مسيرة بيتهوفن الإبداعية تضمُّ أعمالاً من بينها سوناتات البيانو الخمس الأخيرة، السمفونية التاسعة، الأربعيات الوترية الستّ الأخيرة، ويرى أدورنو أن هذه المرحلة تشكل حدثاً بارزاً في تاريخ الثقافة الحديث. إنها اللحظة التي يفارق فيها الفنانُ المتمكن من أداته، التواصلَ مع النظام الإجتماعي القائم الذي هو جزءٌ منه، ويحقّقُ علاقةً متناقضةً واغترابيةً معه. أعمال بيتهوفن الأخيرة هي شكلٌ من المنفى، بعيداً عن محيطه.

❖ ❖ ❖

' الفهد '، العمل الفريد، الذي طُبِع بعد عامٍ من رحيل مؤلفه، تدور أحداثُه خلال حملة غاريبالدي لتوحيد إيطاليا التي تشكل الإنهيار النهائي لنظام الأرستقراطية القديم، حتى أمسى البطل، أميرُ سالينا العجوز، ' وحيداً، رجلاً تحطمت سفينته، يتشبث بطوفٍ تتقاذفه الأمواجُ المتلاطمة من كل صوب'. الإنحلال الإجتماعي، إخفاق الثورة، الجنوب العقيم غير المتبدل، كل هذا متبدٍّ في كل صفحة من ' الفهد'، لكن الغائب هو أي حلٍ ممكن للجنوب، كذلك الذي ارتآه غرامشي في مقالة له، العامَ ١٩٢٦، ويتضمن تضافر جهود بروليتاريا الشمال وفلاّحي الجنوب، المضطهَدين جميعاً، من أجل التغيير المنشود.

الرواية غير معْنيّةٍ بشيء من هذا، والأمير في مرضه الأخير، طريح الفراش في فندقٍ بائسٍ بـ' باليرمو ' حاضرة صقلية. لن يتغير شيءٌ. إن أهالي صقلية لا يريدون أي تحسُّنٍ في أوضاعهم، لسبب بسيط هو أنهم يرون أنفسهم في غاية الكمال! أتظن أنك، يا سيد شيفالي، أول من حاول دفع الصقليين إلى مجرى التاريخ الشامل؟ صقلية تريد أن تظل نائمةً بالرغم من هتافاتهم ...

❖ ❖ ❖

المُعادِل الشعري لمؤلف ' الفهد ' لامبيدوزا، هو، في رأي إدوارد سعيد، الشاعر اليوناني الإسكندري كونستانتين كافافي.

معروفٌ أن شعر كافافي لم يصدر في هيأة كتاب إلا بعد رحيله، في العام ١٩٣٣، وقد كان أوصى بالحفاظ على مائة وأربعٍ وخمسين من قصائده.

من قصائد كافافي المبكرة، قصيدة ' المدينة ' الشهيرة، والتي يحفظها محبّو كافافي، وهي حوار بين صديقَين، أحدهما (ربما كان حاكماً) يندب حظه العاثر، كسجين مدينةٍ مصرية على البحر:

كيف يمكن لي أن أدع ذهني يتعفن في هذا المكان؟
حيثما ولّيتُ وجهي
رأيتُ الأطلالَ السود لحياتي، هنا،
حيث أمضيتُ سنينَ عدّةً
أضعتُها، وحطّمتُها تماماً.

المتكلم الثاني يجيبه بعبارات باردة التحديد، ضيقة المجال، غير منحازة، شأنها شأن منهج كافافي في الرواقي:

لن تجد بلاداً أخرى
لن تجد شاطئاً آخر.
هذه المدينةُ ستتبعك.
ستُطوِّفُ في الشوارع ذاتها،
وتهرمُ في الجِوار نفسه،
وتشيب في هذه المنازل نفسها.
سوف تنتهي دائماً إلى هذه المدينة.
فلا تأمَلَنَّ في فرارٍ:
لا سفنَ لك
ولا سبيل.
ومثل ما خرّبتَ حياتك هنا
في هذه الزاوية الصغيرة،
فهي خرابٌ أنّى حللتَ.

قصائد أمثال ' إيثاكا ' و ' الإله يخذل أنطونيو ' تؤشر لأهمية اللحظة العابرة، اللحظة الملتبسة، اللحظة التي لا تكاد تبين، لكنها اللحظة التي تكتنز الجوهر الإنساني والشِّعرَ في آن.

يلحظ المرءُ في قصائد كافافي في المتأخرة (شواهد أسلوبيته المتأخرة)، تلك القدرة المذهلة على إثارة الخيبة والبهجة معاً، بدون حل التناقض البيِّن بينهما.

إن ما يحفظهما متوترتينِ، كقوّتين متساويتين، مشدودتينِ إلى اتجاهين متضادّين، هو، بلا شكٍ، الموضوعية الناضجة للفنان، المتخلية عن الإدعاء وكل ما هو فضلةٌ.

ثمّتَ ثقةٌ متواضعةٌ، تتوافرُ هنا، مَصدراها: العُـمرُ والمنفى.

❖ ❖ ❖

فردوسُ القِيَم المفقود ... سيظل مفقوداً

لكننا سنظل نلمحه، مثل خطفة البرق، عبر الفن وحده.

لندن ٨/٨/٢٠٠٤

أجنحةٌ أميركيةٌ متحركةٌ وبعثيٌّ سافلٌ

المجزرة الجارية الآن، ضد الشعب العراقي، وانتفاضته، تعيد حتى إلى الذاكرة المرهَقة، مثل ذاكرتي، ما جرى في ١٩٩٢، حين أجازَ الأميركيون في خيمة سفوان، استخدامَ عصابةِ صدام حسين الطائراتِ ذوات الأجنحة المتحركة (الهليكوبترات)، لقمع الإنتفاضة الشعبية.

طائراتٌ ذواتُ أجنحةٍ متحركةٍ (كانت روسيّةً آنذاك) تغيرُ على منتفضين ذوي سلاحٍ خفيفٍ،

والقائدُ:

بعثيٌّ سافلٌ اسمه صدّام حسين.

اليوم ...

طائراتٌ ذواتُ أجنحةٍ متحركةٍ (أباشي وشينوك، إلى آخر قبائل الهنود الحمر) تغيرُ على منتفضينَ في النجف والجنوب ذوي سلاحٍ خفيفٍ

والقائدُ:

بعثيٌّ سافلٌ اسمه إياد علاّوي.

❖ ❖ ❖

لن يغفر أحدٌ ...

لندن ٢٠٠٤/٨/١١

الجاحظُ ... صديقي

قد لا يعلم كثيرون أنني قرأتُ الجاحظَ كاملاً، كاملاً غير منقوصٍ، كما يقال ...

إنه ابن مدينتي.

لكنّ لهادي العلوي صلةً بالأمر.

كنتُ أُبعِدتُ من وزارة الإعلام (أي من المبنى الرئيس المطل على ساحة التحرير آنذاك) إلى المركز الفولكلوري المُطِلّ على جِرار النحّات محمد غني حكمت ... والمقابلِ ' منزلَ المسرّات ' وهو فندق الراقصات اللواتي يأتين ملاهيَ بغداد عابرات.

كان المركزُ الفولكلوري واحةً في العراق المحتدم بشعارات البعث والأدب في خدمة الثورة وعصبية المقال.

هنا، ننشر كل ما لا يتّصلُ بالإحتدام:

الأمثال والحكايات والأساطير والحرف اليدوية والأغاني الشعبية ... إلخ.

في يومٍ غيرِ رائقٍ، أُبعِدَ هادي العلوي من مطبعة الحكومة، حيث كان يتولّى التصحيح اللغوي للجريدة الرسمية العراقية التي لاتستكمل القوانين قانونيتَها إلاّ بعد النشر فيها.

هادي العلوي جاء إلى المركز الفولكلوري.

وفي أحد الأيام اقترحَ أن نؤلف مُعجَماً عن الموروث الشعبي في مؤلفات الجاحظ!

الفكرة مغرية لكن تنفيذها في غاية التعقيد، لأسبابٍ منها غزارة مؤلفات الجاحظ، واقتصار العاملين في المشروع على اثنين هما: هادي العلوي وأنا.

اشتغلنا أشهراً، حتى اكتمل الكتاب، المعنون ' الموروث الشعبي في آثار الجاحظ – معجمٌ مفصّل '.

حين طُبِع الكتاب، من جانب وزارة الإعلام، خُصصتْ مكافأةٌ للمؤلفين. قال هادي العلوي: لن نأخذ مكافأةً لأننا ألّفنا الكتاب في أوقات الدوام ...

لكنّ المبلغ يجب أن يُصرَف، حسب العادة.

وهكذا وُزِّعَ المبلغ على من لم يعمل في تأليف الكتاب من منتسبي المركز الفولكلوري ... فولكلور!

❖ ❖ ❖

قلتُ إن الجاحظ صديقي؛ وأنا أزوره بين حين وآخر، لا مجاملةً، بل استزادةً واستمتاعاً.

والبارحة كنتُ أمضي مع كتاب "الحيوان" ...

قال الجاحظُ:

وحدّثني بعض أصحابنا عن سُكّر الشطرنجي، وكان أحمقَ القاصّين، وأحذقَهم بلعب الشطرنج، وسألتُه عن خرقٍ كان في خرمة أنفه، فقلتُ له: ما كان هذا الخرق؟

فذكرَ أنه خرج إلى جبلٍ يتكسّب بالشطرنج، فقدمَ البلدةَ وليس معه إلاّ درهمٌ واحدٌ، وليس يدري أينجحُ أم يُخفِق، ويجد صاحبَه الذي اعتمدَه أم لا يجده، فوردَ على حَوّاءٍ وبين يديه جُوَنٌ عظامٌ فيها حيّاتٌ جليلةٌ ...

فقال له سكّر: خذْ مني هذا الدرهم، وارقني رُقيةً لا تضرّني معها حيّةٌ ابداً. قال: فإني أفعلُ، فاخترْ أيّتَهُنَّ شئتَ. فأشار إلى واحدةٍ ممّا تعضُّ للأكل دون السمّ، فقال: دعْ هذه، فإن هذه إنْ قبضتْ على لحمكَ لم تفارقْكَ حتى تقطعكَ.

قال: فإني لا أريدُ غيرَها، وظنَّ أنه إنما زواها عنه لفضيلةٍ فيها، قالَ: أمّا إذْ أبيتَ إلاّ هذه فاخترْ موضعاً من جسدكَ حتى أرسلَها عليه، فاختارَ أنفَه، فناشدَه وخوّفَه، فأبى إلاّ ذلك أو يردَّ عليه درهمَه، فأخذها الحوّاءُ وطواها على يده، كي لا يدعها تنكزُ فتقطع أنفه من أصله ثم أرسلَها عليه، فلمّا أنشبتْ أحدَ نابَيها في شقِّ أنفه صرخَ عليه صرخةً جمعتْ عليه أهلَ تلك البلدة، ثم غُشِيَ عليه، فأُخِذَ الحوّاءُ فوُضِعَ في السجن، وقتلوا تلك الحيّات

وتركوه حتى أفاقَ كأنه أجَنُّ الخَلْقِ، فتطوّعوا بحمله فحملوه مع المُكاري، وردّوه إلى البصرةِ.

❖ ❖ ❖

واقعُ الحالِ، أن سكّر الشطرنجي ليس فريدَ عصرهِ.
وإنْ جاءنا اليومَ رأى من أمرنا عجباً ...
كم من أنفٍ خُـرِمَ!

لندن ٢٠٠٤/٨/٢٤

حَضارِمةٌ في الأرخَبيل

' إحياءً لذكرى كيفن يونغ '

لم أُكَتِّمْ يوماً إعجاباً أكنُّهُ لـ' كيفن يونـغ ' Gavin Young ١٩٢٨ –٢٠٠١، بل لقد حضرتُ قدّاساً أُقيمَ لراحة نفسه بعد رحيله عنا في العام ٢٠٠١، كما قدّمتُ التعازي لأخته، وأسهمتُ في ندوةٍ أقيمت هنا، في العاصمة البريطانية، إحياءً لذكراه.

كان كيفن يونغ من المهتمين مبكراً بالمشهد العراقي، وله في هذا كتابان:

نهرانِ توأمان، كنزان توأمان Twin Rivers , Twin Treasures

العودة إلى الأهوار Return to the Marshes

لكني الآن بعيدٌ تماماً عن اهتمامات يونغ العراقية واهتماماتي. بل بعيدٌ البعدَ كله جغرافياً وثقافياً عن الشرق الأوسط وأهله، فأنا أرحلُ خفيفاً وعميقاً مع كيفن يونغ، عبر مضائق جنوبيّ شرقيّ آسيا والأرخبيلات، في تتبُّعٍ مخْلصٍ لروائيّ وبحّارٍ أحببتهُ أنا أيضاً هو جوزيف كونراد ١٨٥٧ – ١٩٢٤ (تُرجِمَ إلى العربية عملان له فقط هما ' لورد جِمْ ' و ' قلب الظلام ') ...

وكما تتبّعَ يونغ، روبرت لويس ستيفنسون وجاك لندن وغوغان وسواهم في الكاريبي، عبر كتابه ' مراكب بطيئة إلى الوطن '، نراه هنا يتتبّع شخصاً واحداً حسبُ هو جوزيف كونراد عبر كتابه (أي يونغ): بحثاً عن كونراد، الصادر في العام ١٩٩١.

❖ ❖ ❖

لكنّ، ما شأنُ الحضارمة هنا؟

قبل عشرين عاماً حين زرتُ **مُكَلا حضرموت**، لم أجد في مياه المكلا (ربّما مُصادَفةً)، سفينةً، أيَّ سفينة، خشباً كانت أو حديداً ...

لكن جوزيف كونراد، الشاب، تولّى للمرة الأولى في حياته رتبة ضابطٍ أوّل في سفينة هي ' الفيدار ' The Vidar وكان يملكها **السيد محسن بن صالح الجفري** وهو تاجرٌ ومالك سفنٍ اتخذَ سنغافورة مقراً. اشتغل كونراد على الفيدار في أربع رحلات

إلى بيراو بين ١٨٨٧-١٨٨٨.

يُذكَرُ آل السقّاف أيضاً في منطقة المضائق بين سنغافورة وبورنيو: التوسُّعِ في الإسلام والتجارة.

❖ ❖ ❖

يقول جوزيف كونراد في ' رسائل إلى مارغاريت بارادوفسكا ':

انتِ تعتقدينَ أن الشرارة الإلهية هي في داخلكِ. أنت في هذا ستكونينَ مثل الآخرين. هل ستختلفينَ عنهم في إيمانٍ يؤججُ تلك الشرارةَ ناراً متّقدةً؟

لِمَ أنتِ خائفةٌ؟ وممَّ؟ من الوحدةِ أو الموت؟ أيّ خوفٍ غريبٍ!

إنهما الأمرانِ الوحيدانِ اللذانِ يجعلانِ الحياةَ تُطاقُ.

❖ ❖ ❖

والآن ... أين حضارمةُ الأرخبيل؟

تعيّنَ على كيفن يونغ الذهاب إلى بورنيو (كاليمانتان الأندونيسية حالياً) ليلتقي أحفاد الجفري.

❖ ❖ ❖

للبحرِ أنت تعودُ مرتبكا
والعُمرُ
تنشرهُ وتطويه
لو كنتَ تعرفُ كلَّ ما فيهِ
لمشيتَ فوقَ مياههِ، ملِكا
....
....
....
خشبُ السفينةِ لم يعُدْ بيديكَ كالصلصالِ.
لونُ البحرِ أكثرُ وحشةً ممّا ظننتَ. وهذهِ
الآفاقُ تعرفها وتنكرُها: الرياحُ تهبُّ،

والأسماكُ تسبقها؟ ووردات ابنِ ماجدٍ
الكشيفةُ هل نسيتَ نداءَها؟ كانت تشيرُ
تشيرُ.. والأسماكُ قبل الريح ....
لونُ الماءِ قبل الريح، والأخشابُ تنذرُ
بالعواصفِ. طائرٌ يأتي ... أتعرفهُ؟
وأهلُ البحر؟ كنتَ تحسُّ في أحداقهم
يوماً سبيلكَ، تهجسُ اللفتاتِ حين تشِفُّ
او تقسو، وتقرأُ في ملابسهم خطوطَ القلبِ ...
أنتَ الآنَ منفردٌ بغرفتكَ الصغيرةِ،
ربما أومأتَ للأمواجِ منكسراً ... ستبلغُ حضرموتَ
تعودُ، لكنْ لستَ مثلَ النهرِ حين يعودُ نحوَ
المنبعِ السرّيّ. أنت الآنَ تبلغُ حضرموتَ
مُقَرَّحَ الجفنَينِ، تبلغها كليلَ العينِ والرئتينِ،
تبلغُها ثقيلَ الخَطوِ ... لا امرأةٌ محنّاةُ اليدَينِ،
صغيرةُ القدَمينِ تثملُ بانتظاركَ، لا حفيدٌ
سوف يحملُ عنكَ صندوقَ المسافرِ...
ما الذي عادت به سنواتُكَ الستّونَ؟
أنتَ تقولُ: مملكةً بنيتُ، ونخلةً أنبَتُّ،
وامرأةً عشقتُ. تقولُ: أحفاداً تركتُ هناكَ ...
وهْماً كانت السنواتُ:
وحدَك قابعٌ في غرفةٍ خشبيةٍ،
والبرقُ يصبغُ بالبنفسجِ لحظةَ جفنَيكَ،
يصبغُ بالبنفسجِ ما تَبَقّى من جدائلِكَ الجميلةْ.

(من قصيدتي ' الأحفاد ')

❖ ❖ ❖

قلتُ كان علينا أن نقطعَ الأرخبيلَ إلى بورنيو ...
آلُ الجفري كانوا في بولانغان.
وكان عليّ حتى أبلغ بولانغان أن أطير إلى باللِكْ بابان، وهي بلدةٌ بترولية تحت ساماريندا، ومن هناك أستقلُّ باخرةً اسمُها **كيرَنسي**

إلى جزيرة تاراكان.

قال لي شابٌّ باسمٌ: إلى أين أنت ماضٍ؟

قلتُ: إلى مكانٍ يدعَى تانجونغ سِيلور (وهي بلدةٌ من بلدات البولانغان). قال إنه من هناك، ذاهبٌ إلى هناك في إجازة. أشرتُ إلى أنني أريدُ أن ألتقيَ أناساً من آل الجفري. ضحكَ ضحكةً عاليةً قائلاً: أعرفُ كثيرين من آل الجفري في تانجونغ سيلور، أعرفهم جميعاً.

السفينة التي ستأخذنا إلى بولانغان لم تكن كبيرة، وليس فيها متّسعٌ، فالمقاعد لا تكفي لأكثر من سبعة مسافرين. وكان هناك شابٌّ متمددٌ، بطوله، غير عابيء بالآخرين. الشابّ الباسمُ ربّتَ على ركبة المتمدد قائلاً: هذا السيد (وأشارَ إليّ) يبحث عن آل الجفري، إنه كاتبٌ، مؤرِّخٌ.

انتبه الشابّ المتمدد فور سماعه هذا، وقدّمَ نفسه باعتباره من آل الجفري ا تصافحنا.

كان أول من لقيتُه من آل الجفري، شابّاً طويل القامةِ، شاحبَ الوجه، وسيعَ العينينِ. أنفُه أطولُ وأكثرُ استقامةً من أنوف الملايا المألوفة؛ إنه أنفٌ عربي باختصار. الشابٌّ مهندَم اللباسِ بصورةٍ غير عاديّة في نهرِ ذي أبخرةٍ على خط الإستواء. قميص ورديّ ذو كمَّينِ طويلينِ، سروالٌ غامق الزرقة، حذاءٌ صبيغٌ ناتيء المقدمة ...

كان يدخن بشراهة.

سألتُه: أتعرف سيحان الجفريّ؟

ابتسمَ: إنه عمّي!

❖ ❖ ❖

بعد هذا الشابّ، المفرِط في أناقته وتدخينه من آل الجفري، زارني فردٌ آخر من العائلة في منزلي عند إيدي. إنه **محسن** (مُكْسِنْ باللهجة الأندونيسية)، شابٌّ مكتنزٌ، ذو انجليزيةٍ متواضعة، وصوتٍ ودودٍ ناعمٍ، والمفاجأةُ أنه وصلني في سيارته الجيب التويوتا الجديدة. فهمتُ في ما بعدُ، أن محسن هو أنجح رجل أعمالٍ في آل الجفري.

جاء محسن ليأخذني إلى **عرب كامبونغ** حيث يجتمع آلُ الجفري ليشربوا معي الشاي ويتحدثوا عن السيد عبد الله الكبير.

سلسلة مبانٍ خشب قديمة على امتداد ضفة النهر. معظمها ذو طابقَين، مع أعمدة تسند الشرفاتِ العليا. من المستحيل تقدير عُمر المنازل، بعضُها كان أنيقاً، وبعضها يستخدَم الآنَ مستودعاً. وحيث ينتهي الطريق تتصب علامةٌ تقول بأن الـمُضيّ أكثر يعني السقوط في الماء. استدارةٌ حادّةٌ إلى اليسار أخذتنا إلى بناجل Bungalows متواضعة مماثلة.

رجلٌ طويل القامة، مكتنزٌ، مبتسمٌ، يقف عند الفراندة، على رأسه طاقيةٌ بيضاء، ويلتفّ بـ "وِزْرة" مخططة بالأبيض والأحمر.

قال محسن وهو يقدِّمه: حاجي الهود.

صافحني الرجل بقوّة.

على الحوائط، داخلَ منزل الحاج، تتبدّى صور للكعبة ومكّة، ولرجالٍ ذوي عمائم يركبون جِمالاً بين النخيل، و يغمرهم ضوءُ فضةٍ من القمر.

سرعان ما انضمّ إلينا آخرون من آل الجفري، خالعينَ نعالَهم عند الباب، ومُعَدِّلينَ وِزراتِهم قبل أن يتخذوا مجلسهم حولي على الأريكة والكراسي.

كانوا حوالي اثني عشر، تتراوح أعمارُهم بين الثلاثين والسبعين.

أوّلُهم كان سيحان، يعتمر طاقيةً بيضاء كبيرة، وهو ذو وجهٍ شاحبٍ، وأذنينِ كبيرتين، ووجه كئيب.

إنه مؤرخ العائلة، والأكبرُ سنّاً. وهو والد محسن، وحفيد السيد عبد الله.

كان ودوداً، مثل الجميع، لكني لم أره يبتسم إلاّ نادراً.

إلى جانبه كان صالح الجفري، وهو أصغر سنّاً من سيحان، لكنه أكبرُ من هود وأطولُ قامةً.

لم أستطع أن أعرف أسماء الآخرين، لكني أتذكر من بينهم حسن الجفري وأبوبكر.

رحّبوا جميعاً بي، لكن ليس كترحيب هود، ومحسن بصورة خاصة.

أخبرني سيحان أن حوالي مائتي عربي يعيشون في بيراو وبولونغان، لكنّ القليل منهم يتكلم العربية. كلهم يتكلم الباهاسا الأندونيسية، فاللغة العربية لا تدرَّس في المدارس.

أمّا عن جَدِّهم الشهير، السيد عبد الله، ابن السيد محسن الكبير، الذي سكنَ ٣٦ ساحة رافلز بسنغافورة، فهم يعرفون الكثير.

سألني أحدهم إن كان هناك شخصٌ ألمانيٌّ في تانجونغ رديب، زمن عبد الله، أخبرتُهم عن أولميير والكابتن لنجارد، وكيف استطاعَ السيد عبد الله إخراجهما من البيراو، بفضل بُعْدِ نظر أبيه، حين اشترى بواخرَ.

قرأتُ لهم من دليل سنغافورة والمضائق لسنة ١٨٨٣:

"سيد محسن بن صالح، تاجر ومالك سفن، ٣٦ ساحة رافلز، مع فروع له في براو وبولونجان، ووكالات في ساماران وسورابايا وبالي وماكاسّار وبولو لوت وسايغون وبينانغ وغالّ وكاريكال وعدن وجدّة والسويس.

❖ ❖ ❖

قرأت لهم، بطيئاً، مع أفضل ما يستطيع أيدي من ترجمةٍ، نعي السيد محسن، المنشور في جريدة 'صحافة سنغافورة الحرة'

Singapore Free Press بتاريخ ٢٢ مايس ١٨٩٤:

اليومَ غابَ وجهٌ آخرُ من الوجوه القديمة لسنغافورة، مع السيد محسن بن صالح الجفري، التاجر العربي، الذي امتلك لعشرين أو ثلاثين عاماً، تجارةً واسعةً، وعدة بواخر هنا. جاء أولاً إلى سنغافورة حوالي ١٨٤٠، باعتباره نوخذة، أو قبطان سفينة تجارية عربية، وبعد أن ادّخر قليلاً من الدولارات فتحَ دكاناً صغيراً في الشارع العربي. ومع الوقت جمع ثروةً واشترى بواخرَ، وصار غنيّاً. لكن أعماله التجارية لم تزدهر أكثر، بسبب تبدّل الوقت، وكون الأساليب التي كانت تستخدَم قبل عشرين أو ثلاثين عاماً لم تعُد صالحةً مع التغيرات التي حدثت بعد فتح قناة السويس، والبواخر السريعة، وما رافقَ ذلك من تأثيرٍ على البلدان المحيطة بسنغافورة. وفي ١٨٩١ أُجبِرَ على تسليم إدارة شؤونه إلى هيئة دائنين، وفي ذات الوقت انطفأ بصرُهُ

الذي كان يضمحلُّ منذ حينٍ. كان مقرّه في المبنى المجاور البنكَ الشرقي الذي هُدِمَ قبيلَ زمنٍ قريبٍ. ربما لم يكن هناك تاجرٌ محليٌّ

أكثر شهرةً في سنغافورة، أيام زمانٍ، من السيد محسن، لكنه في السنوات الأخيرة، وبسبب حظه العاثر، لم يعد يذكره إلاّ قدامى المقيمين. اشتدَّ عليه المرضُ لعدة أسابيع، وكان موته متوقّعاً. جرى التشييع في الثانية عصرَ اليوم، وكان هناك

جمعٌ كبير. العرب المعروفون جميعاً، والمقيمون الأوربيون القدامى، كانوا حاضرين. كان في حوالي الثمانين من العمر.

❖ ❖ ❖

خيّمَ الصمتُ.

آلُ الجفري كانوا يتفكّرون في هذا كله.

وفي الصمت المُطْبِقِ قال صالح:

السيد عبد الله مدفونٌ هنا ...

لندن ٢٩/٨/٢٠٠٤

أجوبة إلى ' أخبار الأدب '

لا يملك المرءُ أن يستبدل بحياته، حياةً أخرى؛ هكذا يحاول قدرَ الإمكان أن تكون حياته ذات جدوى، لنفسه، ولمن حوله.

لكنّ الجدوى المرتجاة لن تأتي إنْ لم يكن للمتعة نصيبٌ، بل نصيبٌ وافرٌ.

أنا أستمتع بحياتي، وأعتني بالمطعم والمشرب والملبس. أسعدُ بالمرأة، وأُسعِدُها إنْ اقتربتْ من فهمي.

حياتي، أعني حياتي اليومية، ملأى. والطبيعةُ تمنحني قوّةً داخليةً. أنا لا أشكو من وهَنٍ أو علّة.

لكنّ سؤالاً يظلّ يلحُّ عليّ باستمرار، ومنذ أمَد:

أليست إقامةُ البشر على هذه الأرضِ ضرباً من اللامعنى؟

فهمتُ من المرحوم، شقيقي، يعقوبْ، الأكبر سنّاً، وكان يرعاني بعد فقدِ الأبِ مبكّراً، فهمتُ منه أن اسمي كان في الأصل: **محمد سعدي يوسف**، لكن التعليمات المستحدثة آنذاك حول تسجيل الناس منعت الأسماءَ المركّبة، فصار اسمي **سعدي يوسف**.

قرأتُ سعدي الشيرازي في وقتٍ مبكرٍ جداً، قصائده التي كتبها باللغة العربية، مقلِّداً المتنبي، وقصائده المترجمةَ عن الفارسية وهي الأجمل، قرأت حافظ الشيرازي أيضاً، وأُعجِبتُ بالشاعرين، حتى قصدتُ مدينة شيراز، حيث ضريحهما يتوسط المدينة، محفوفاً بالورد ... بستان الورد!

قبل نصف قرن كان هذا.

وفي شيراز نبيذٌ أحمر مائلٌ إلى الحلاوة، ذكره أوسكار وايلد في عمله ' بيت رمّان '.

ابنتي الصغرى سمّيتُها **شيراز**.

إنها: شيراز سعدي!

• لم تكن أبو الخصيب مدينةً. ولم تصبح مدينةً حتى الآن، بسبب قربها من ساحات المعارك غير المجدية، واقتصار التنمية والتطوير حتى في الحدود الدنيا التي عرفناها، على العاصمة وتكريت.

لكن البلدة كانت ذات أهميةٍ سياسية وفكرية، كانت مركزاً لحركة الإجتهاد حتى لقد زارها جمال الدين الأفغاني. كما كانت من معاقل اليسار.

وفي أبو الخصيب جمال الطبيعة: غابات النخل والجداول التي تتخللها. الماء حاضرٌ، يحمل الأعناب والسمك إلى عتبات البيوت. بين حينٍ وآخر أرى صوراً لما حلَّ بالنخل، كيف تقصّفَ وتراجَعَ، وصار أعجازاً خاويةً، فأحزن حقاً لأن صورةً من الطفولةِ مُزِّقتْ بهذه القسوة البالغة.

أسرتي كانت في منتهى التسامح. أي أنها لم تفرضْ على أي فردٍ فيها اختياراً. كنا نقرأ ما نشاء، ونتصرّف بحرية.

الطبيعة كانت رافدي الأول.

قراءاتي الأولى كانت في المسجد، وفي التكيّة النقشبندية بأبي الخصيب.

هناك اطّلعت على رسائل إخوان الصفا.

• أبونا جميعاً، وحاملُ لوائنا إلى النار (كما يقال) هو امرؤ القيس.

وكما هي العادةُ في بدء المسيرة، نبتديءُ بامريء القيس، وهكذا فعلتُ. اكتشفتُ أن الرجل جميلٌ، مغامرٌ، ميسَّرٌ حتى في

اللغة. تعلّمتُ عروضَ الشّعر العربي من ' ميزان الذهب ' الشهير لأحمد الهاشمي، وطبّقته على ديوان امريء القيس.

كانت المتعة والمنفعة بلا حدود!

ومتزامناً مع امريء القيس كان المتنبي العظيم.

وفجأةً أطلَّ علي محمود طه ...

وجاء إلياس أبو شبكة مع ' أفاعي الفردوس '

ثمّ جاء ديوان ' أين المفرّ؟ لمحمود حسن اسماعيل، ' أنيقاً بالأصفر والأسود من شركة فنّ الطباعة:

القيتَني بين شِباكِ العذابْ

وقلتَ لي: غَنِّ ...

وفي أيامٍ لاحقةٍ جاء بدر شاكر السياب. إنه ابنُ ابي الخصيب، ونحن من قريتين متجاورتين: هو من جيكور التي خلّدها، وأنا من بقيع المتّصلة بجيكور، وبين أسرتَينا معرفةٌ ونسبٌ.

كان بدر مرموقاً بقصائده المبكرة التي كانت تلقى في التظاهرات.

الحقُّ أن بدراً اللاحقَ كان الأعمقَ تأثيراً فيَّ.

وأنا حتى اليوم، أرى أنه قدّمَ أسئلةً في القصيدة لم يُجَبْ عنها بعدُ.

سيظل بدرٌ معلّماً لي.

من المفيد أن أذكر أنني كنت أمتلك طبعةً من الأعمال الكاملة لشكسبير باللغة الإنجليزية منذ أواخر الأربعينيات.

ليس في الفنّ تجاوزٌ. في الفنّ إضافةُ جهد. الفنّ لا يُتجاوَزُ. الفنُّ يُخدَمُ. ومهما فعلتَ فلن تبلغ من الفن إلاّ التخومَ. لنتواضعْ إذاً!

ماذا فعلتُ؟

لقد فكّرتُ، حقاً، في تناولٍ خاصٍ، شخصيّ، فرديّ ... وهذا حقٌّ لكل فنان.

قلتُ مع نفسي: هذه الخارطة الشعرية العربية عمرها أربعة عشر قرناً، ولسوف أضيع فيها إن لم أجد لي سبيلاً خاصّاً.

أين وجدتُ ضالّتي؟

في عموم الشعر العربي، لم يكن للفرد العادي نصيبٌ من التصّ الشعري. كانت القصيدة للمجموع. الفرد غائبٌ أو مغيَّبٌ.

إذاً هي فرصتي!

لأتحدّثْ عن الإنسان البسيط في حياته اليومية ...

لأتابع المنسيَّ، والمهملَ، والمسكوتَ عنه ...

لأكنْ بسيطاً. لتكن لغتي متساوقةً مع هذا المبدأ.

كانت نازك الملائكة الأكثر بحثاً في الشكل الشعريّ.

عبد الوهاب البياتي ركب الموجةَ متأخراً. ولم يكن ذا جهدٍ مرموقٍ في تطوير الشكل الشعريّ.

نازك ظلّت المؤهّلةَ لذلك بعد الرحيل المبكر والفاجع لبدر، لكنّ إقامتها في الكويت أضرّتْ بها، وجعلتها تنكفيء وتتخلّى

عن ثوريّتها التي استلهمناها جميعاً.

التقيتُ بها مرةً في بغداد، قادمةً من الكويت، كنا في أحد فنادق الإستضافة، وكانت محجّبةً، بينما كنتُ أحملُ في يدي كأساً. تخليتُ عن الكأس احتراماً لها.

قلتُ لها: يا سيدتي نازك ... أنتِ علّمتِنا انتهاكَ المحرّمات (أقصدُ في فن الشعر). ردّتْ عليَّ:

أستغفرُ الله!

عليّ الإشارةُ أيضاً إلى التأثير المبكر للشعر الأميركيّ عبر والت ويتمان في ' أوراق العشب '، وإلى عموم فن القصة الأميركي في التشكل النهائي للنصّ الشعري لديّ.

أنا أعتبرُ القصة القصيرة الأميركية الأنموذجَ الأعلى ليس في فنّ القَصّ فقط.

هناك أمرٌ جديرٌ بالتنبيه إليه وهو: احترام الواقع والوقائع في النص الشعري.

أنا تعلّمتُ هذا الإحترامَ وطبّقتُهُ (بقسوةٍ أحياناً) مستفيداً من القصة الأميركية القصيرة.

قد يُعتبَرُ هذا المورِدُ إشارةً إلى تداخلٍ في الفنون الأدبية (فنون القول)، وهو تمهيدٌ إلى ما سيجري من تداخلٍ لاحقٍ بين النص الشعريّ لديّ، وبين فنونٍ أخرى ليست من فنون القول، كالرسم والموسيقى والسينما ...

لكنّ هذا حديثٌ آخرُ ...

- العدد الأول من مجلة ' شعر ' حمل في صفحته الأولى قصيدةً لي، وكنتُ شاعراً مجهولاً تماماً، لا أعرف أحداً، ولا يعرفني أحدٌ، لكنهم، أعني يوسف الخال تحديداً، نشروا قصيدتي، ومُنِع العددُ بسببها من دخول العراق ...

دورُ مجلة ' شعر ' كان تحديثياً وأساسياً.

لِمَ جرى ما جرى؟ الإتهامات والإتهامات المضادّة ...

حين نراجعُ اليومَ، ما حدثَ أمسِ، نأسى لأنّ المنافسات المحدودة أُعطِيَتْ صفةً عاليةً من المبدأ والمنطلَق ...

العروبة وأعداء العروبة.. إلخ.

لم يكن الأمر هكذا، بإطلاقٍ ...

- تجربة السجن!

بدأت زمن الجمهورية الأولى، أعني زمن عبد الكريم قاسم ... شاركتُ في تظاهراتٍ لإيقاف القتال في كردستان، وكان الشعار الذي صاغه الحزب الشيوعي هو: السلمُ في كردستان، يا شعب طَفِّي النيران!

ثم جاء البعثيون في ١٩٦٣، وقدّموني إلى محكمة عسكرية، وحُكِمَ عليّ بالسجن. تنقلتُ في سجونٍ عدّة، سجن البصرة، سجن نقرة السلمان الصحراوي على الحدود العراقية السعودية، عند بادية السماوة التي قُتِلَ فيها أبو الطيّب المتنبي، ثم إلى سجن بعقوبة. أُطلِقَ سراحي مصادفةً، ليلةَ انقلاب عبد السلام عارف على البعثيين في ١٩٦٤. كان حسين مردان الشاعر الصديق، صديقاً لعلي صالح السعدي، نائب رئيس الوزراء، والشخصية البارزة في الحكم، وفي التراتبية الحزبية البعثية، وسأله علي صالح السعدي إن كان هناك شعراء لا يزالون سجناء.

ذكر حسين مردان اسمي، فصدرت برقيةٌ فورية بإطلاق سراحي. وردت البرقية إلى سجن بعقوبة مساءً. استفسرت مني إدارةُ السجن إن كنتُ أريد الإنتظار حتى الصباح لآخذ ملابسي وبعض المال المودَع، قلتُ: أذهبُ الآن!

وهكذا خرجت من السجن بالبيجامة إلى بغداد حيث اتّصلتُ بأقاربي ليتسلّموني من مديرية أمن بغداد.

لو تأخرتُ يوماً لبقيت في السجن عشر سنين ...

ملحوظة: حين توفي علي صالح السعدي، مغضوباً عليه، زمن صدام حسين، حضرتُ مجلس العزاء، امتناناً له.

كان نصُّ البرقية كما أتذكره الآن، بالرغم من كل لعنة السنين:

يطلَق فوراً سراح الشاعر التقدمي سعدي يوسف...

أنا مَدينٌ للسجن!

لقد تعلّمتُ في السجن أموراً كثيرةً، منها الإعتمادُ على النفس، والإكتفاءُ بالقليل، واحترام خصوصية الآخر، وممارسة أفعالٍ قد تبدو غير مناسبةٍ كأن ترقع نعلك بنفسكَ أو ترفو جوريكَ وسوى ذلك ...

يقال إن المرءَ يُعرَف على حقيقته في السجن وفي الترحُّلِ.

في السجنِ ... تنظرُ إلى الداخل، داخلكَ.

وفي الترحُّلِ تنظرُ إلى الخارج، خارجكَ.

وأنت في الحالَين حاضرٌ.

في أكثر من مكانٍ وقارةٍ، أكون مع قاسم حدّاد، الشاعر، والسجين السابق، مثلي ...

أشكو له هذا الأمرَ أو ذاكَ ...

الغرفة في الفندق غير مناسبة، أو الإستقبال في المطار لم يكن في موعده، أو أن الطعام ليس شهيّاً ... إلخ.

جواب قاسم الدائم الذي لم يتبدّل مع السنين:

لكنْ ... أحسنُ من السجن!

تماماً، يا قاسم، تماماً ... أحسنُ من السجن!

هل أحِنُّ إلى السجن؟

- شيوعيٌّ في سنٍّ مبكّرة!

حقاً ... كنت في الخامسة عشرة حين انضممتُ إلى الحزب الشيوعي العراقي. الدوافعُ: الفقر والمغامرة.

ليست لي تجربة في العمل السياسي. اعتنقتُ الشيوعيةَ منطلَقاً في الحياة، تحوَّلَ مع الزمن والممارسة إلى منطلَقٍ في الفن، أي أن نظرتي إلى قضايا فنية صِرفٍ مثل الصورة وتناول التاريخ والخصيصة اللغوية والإتصال تستمدُّ الكثيرَ من الفكر الماركسي.

التزامُ الشاعر هو التزامٌ أخلاقيّ. وكما قال أفلاطون: الأخلاق قبل السياسة.

تجربتي مع الحزب الشيوعي العراقي؟

عاديّةٌ، بمعنى أنني لم أخُضْ في إشكالات تنظيمية أو فكرية لأنني لم أكن عضواً بالمعنى التنظيمي الدقيق إلاّ فترةً قصيرةً جداً.

ولستُ مَعْنيّاً الآنَ كثيراً بمتابعة الجدل القائم حول ما يفعله الحزب الشيوعي في العراق هذه الأيام.

وعلى أي حال، سأظلُّ الشيوعيَّ الأخيرَ في عالَمٍ يزداد قسوةً.

- مشروعاتٌ مؤجّلة ...

قد كنتُ شرعتُ في الخطوات الأولى لعملٍ قد يكون أكثر أعمالي طموحاً. أوديسّة شخصية؟ ربما. ولقد أعددتُ الخطة العامة للعمل:

تقع الأوديسة في ٥٠٠ صفحة

تضمّ الأوديسـة ١٠ كتب
كل كتاب يبلغ خمسين صفحة
الصفحات الخمسون تقسَم إلى خمسة أقسام
في كل قسمٍ عشـر صفحات
في الصفحة الواحدة ثلاثون بيتاً
عدد أبيات القسم الواحد ٣٠٠ بيت
٣٠٠x ٥ = ١٥٠٠ بيت في كل كتاب
١٥٠٠x ١٠ = ١٥٠٠٠ بيت (عدد أبيات الأوديسة)

ومثـالاً لمسـعاي الـذي هـو في دور التخطيـط، أقـدمُ تصـوري للكتـاب الأول في خمس وقفات: النهر والقرية، البحر، العاصفة، شاطيء الهند، المعركة والأسْـر.

أسباب التوقّف

منذ حوالي العامين بدأت طبول الحرب تدقُّ، إيذاناً بـاحتلال العـراق، ثـم جـاء الاحتلال، مع كوابيسـه وآلامـه. كنت أعيش أكثر فترات حياتي توتُّـراً. كتبتُ كثيراً، بل كثيراً جداً، أتابعُ الأحداثَ، حتى شـرعت أعصابي تنهار ...

الآنَ ...

سـأفتحُ خطّـتي، وسـأشرع أكتبُ.

لقد اعتذرتُ عن عدم تلبية دعوات كثيرةٍ إلى الذهاب هنا وهنـاك، لأنني أريـد البدء بالعمل.

سوف أكتب أسطورتي الشخصية!

لندن ٢٢/ ٩ / ٢٠٠٤

آثارُ أقدامٍ على الموج والعشب

في أوائل أيلول ٢٠٠٤ هذا، ذهبتُ رفقةَ صديقةٍ لي، إلى الطرف القصيّ من كورنوال Cornwall جنوبيّ غربيّ انجلترا، مع وهمِ النزول إلى الماء، وقد حدثَ ذلك، فعلاً، لكن لخمس دقائقَ فقط. كان الماء بارداً حتى لتحسّ أنك في مَغْطَسِ ثلجٍ ...

واقعُ الحالِ أن مقصدي الأساسَ كان الإقتراب من المكان الذي وُلِدَ فيه أوستِنْ ويليامز Austin Williams (لورد جِمْ) في رواية جوزيف كونراد الشهيرة.

ذهبتُ إلى سانت آيفز Saint Ives غيرِ البعيدةِ عن بورثليفن Porthleven، مرفأ الصيد الصغير، مسقط رأس لورد جِم، ذي الشاطيء المنفتح شأن شاطيء سانت آيفيز، مثل حدوة حصانٍ.

وهنا أيضاً، في فلموث Falmouth ، هبط جوزيف كونراد، العامَ ١٨٨٢، ليمضي تسعة شهورٍ، تُرَمَّمُ فيها السفينة ' فلسطين ' كي تتمكن من البقاء وبلوغ مضيق بانغكا في الشرق البعيد، حيث ستنفجرُ.

أوستن ويليامز (لورد جِمْ) لم يعُد إلى بورثليفن، بعد فضيحته البحرية، حين هجرَ، وهو القبطان، السفينةَ جَدّةِ التي كانت تقلُّ حجّاجاً من مسلمي الأرخبيلات.

كان لا يريد العودةَ إلى مسقط رأسه مجللاً بالعار.

فلقد كان أبوه، القسيسُ الصارمُ، بانتظاره، متجهماً أكثر من عادته ...

❖ ❖ ❖

وفي أواسط أيلول، وتحديداً في الثامن عشر منه، اتّجهتُ، مع الصديقة إيّاها، إلى الجهة المعاكسة، من جنوبيّ انجلترا، إلى كَنْتَ Kent ، نحو كانتربري ذات الكاثدرائية الشهيرة، المَحَجّ.

لـم نُطِـل مكثـاً في كـانتربري، إذ كـانت غايتنـا قريـة بيشوبسـبورن Bishopsbourne، حيث أمضى جوزيف كونـراد سـنواته الأخيرة، مقيمـاً بمـنزل أوزوالد Oswald's اللصيق بكنيسة القرية.

من الطريق الرئيس، تظهر علامة بيشوبسبورن، فتنطلق السيارة بطيئةً، في دربٍ ضيّقٍ، لتكون بعد دقائقَ، حسبُ، عند الكنيسة.

نهبط من السيارة، ونتجه إلى الكنيسة، إلى مقبرتها.

فجأةً يبرزُ رجلٌ باسمُ الأسارير، يبدو أنه هبطَ القريةَ معنا ...

- أتبحثانِ عن جوزيف كونراد؟
- نعم.
- وصلتُما. هاهي ذي الكنيسة، وأمامكما منزل أوزوالد ...
- والقبر؟
- جوزيف كونراد لم يُدفَن في هذه المقبرة. إنه كاثوليكيّ.
- أين دُفِـنَ، إذاً؟
- في مقبرة القديس توما الكاثوليكية بكانتربري ...

أعلينا، إذاً، العودةُ إلى كانتربري؟

قال الرجل (وهو مؤرخُ المنطقة): بإمكانكما التجول في القرية. بعض منازلها من القرن الخامس عشر.

ربع ساعةٍ كان كافياً للتجوال. ليس من أثرٍ يدلُّ على كونراد. المركز الإجتماعي للقرية يحمل لوحة: قاعة كونراد

Conrad Hall ولا شـيء سوى ذلك.

ذهبنا إلى الحانة، وكانت توشك على الإغلاق.

قلنا لصاحب الحانة إننا جئنا نسأل عن كونراد، وجدْنا أنه لم يدفَن هنا، فهو كاثوليكيّ.

حين انصرفنا كان روّاد الحانة يقهقهون: كاثوليكيّ في بيشوبسبورن!

منزل أوزوالد، حيث أقامَ كونراد كان منزلاً واسعاً، ذا حديقةٍ واسعةٍ جداً، ومداخنَ معتبَرةٍ.

ليس من جرسٍ على الباب.

وهناك لوحةٌ ذاتَ حروفٍ صغيرةٍ تقول: **الدخول على مسؤولية من يدخل.**

ولوحةٌ ثانية تكاد تَخْفَى: **احذَر الكلاب.**
دُرنا حول المنزل، علّنا نحظى برؤية أحد ساكنيه ...
لا أحد!

❖ ❖ ❖

في مقبرة القديس توما الكاثوليكية بكانتربري، كان قبر كونراد بلا صليب. شاهدة قبر ضخمة من الحجر الأبيض، منقوش عليها بالأسود العريض:

جوزيف تيدور كونراد
كورزينيوفسكي
وُلِدَ في الثالث من كانون أول ١٨٥٧
توفِّيَ في الثالث من آب ١٩٢٤

ثم تلي ذلك كتابةٌ تقول:
رقادٌ بعد عناء، مرفأٌ بعد بحارٍ هائجة
طمأنينةٌ بعد حرب، موتٌ مُسَرٌّ بعد حياة.

لندن ٢٠٠٤/٩/٢٢

مُلْحَقونَ بالقوّات EMBEDDED

البارحة، الثامن من تشرين أول، الساعة السابعة، كنت في مسرح ' شاطيء النهر ' Riverside Theater ، بمنطقة هامرسميث اللندنية، التي لا أبلغها، عادةً، إلاّ حين تبديل القطارات تحت الأرض ... أو لزيارة المسرح الغنائي Lyric Theater؛ لكني قصدتُ هامرسميث، وبالتحديد مسرح ' شاطيء النهر '، كي أحضر عرضاً لمسرحية ' ملحَقون بالقوّات EMBEDDED' تقدمه الفرقة المسرحية الأميركية، عُصبةُ الممثلين، .The Actors Gang الفرقة، مهتمة بما يمكن أن يسمّى المسرحَ السياسي، وهذه المسرحية التي كتبها وأخرجها تِمْ روبنز Tim Robbins، تتناول شأن الصحافيين الأميركيين الذين أُلحِقوا بالقوّات تأميناً لسلامتهم، ولسلامة تقاريرهم الصحافية من وجهة نظر الضبّاط الميدانيين.

حظيتْ هذه المسرحية باهتمامٍ، وقُدِّمتْ في أماكن عدّة من شرقيّ الولايات المتحدة، ولسوف تؤدي جولةً على الجامعات الأميركية، حيث المَرْبَعُ الطلاّبي الأميركي The American Campus الشهير براديكاليّته الدائمة في الفنّ والشِّعرِ والسياسة. كما قدّمَ التلفزيون البريطاني لقاءً حيوياً مع المخرج شاهدتُه مصادفةً.

تعود المسرحية إلى الجذور (الغائرة أحياناً) لتأصيلِ موقفها من الحرب والاحتلال الاستعماري للعراق، ويَرِدُ في هذا السياق اسمُ **لِيو شتراوس Leo Strauss** (وهو ليس كلود ليفي شتراوس!).

تذكر مجلة هاربر Harper's Magazine في عددها الصادر في حزيران ٢٠٠٤ ما يأتي:

في الخمسينيات، وداخل جامعة شيكاغو، كان الآتي مصادفةً ليكونَ أباً لِما هو الأسوأ في السياسة الأميركية، يدرِّس افلاطون ومونتسكيو وسبينوزا وميكيافيللي وهوبز. كان له حواريّون، وكان للحواريين واجبان: الجُثُوّ عند قدمَي المعلِّم، ونشر

كلمة حكمته. ولقد أبدعَ الشتراوسيون في عملهم. إذ أن ليو شتراوس هوالكاتب الأكثرُ ذيوعاً في المناقشات المهتمة بالفلسفة.

مارَسَ شتراوس تدريسَ أعمال الآخرين، وليس لديه، هو، سوى تعاليقَ، واتجاه أصابَ بالعدوى الشبّانَ المتحلِّقين حوله.

حواريّوه، بدورهم، لحِقَتْ عدواهُم، بصورةٍ منهجيةٍ، بحكومة أقوى أمّةٍ على وجه الأرض، وأفسدتْها.

لقد بدأوا ذلك منذ ربع قرنٍ، أي منذ الأيام الأولى لرونالد ريغان، وبخاصة في وزارة الدفاع.

ومن كبرى الخدمات التي قدّمَها شتراوس وحواريّوه إلى نظام بوش، فلسفة الكذب النبيل، وتعني أن الأكاذيب ليست ضرورةً مؤسفةً في الحياة السياسية، بل انها وسائلُ للسياسة الحكيمة، فُضلى، ونبيلةٌ.

لقد وُصِفَ الشتراوسيون الذين قدّموا النصيحة (بغزو العراق) إلى إدارة بوش بأنهم قبَلانيون.

والحقُّ أن نصيحتهم هذه تجعل من الأفضل وصفهم بأنهم سفينة حمقى.

بول وولفوفيتز، وريتشارد بيرل يتصدّران القائمةَ.

أعودُ إلى العمل المسرحيّ –

بالإمكان القول إن الجهد المسرحيّ مقسَّمٌ بصورةٍ منضبطة، تكاد تكون متساويةً، على ثلاثة مَحاور.

- الصحافيون وعوائلهم.
- الضباط الأميركيون الميدانيون في العراق المحتلّ.
- المفكِّرون الشتراوسيون The Think-tanks

هكذا نتابعُ الصحافيين يودعون عوائلهم، ثم نتبع رسائلهم إلى العوائل المتضمنة انطباعاتهم الحقيقية، وهي ليست الرسائل الموجهة للنشر في وسائل الإعلام.

ونتابع الضباط الميدانيين وكيف يُخضِعون الصحافيين لأوامرهم ونواهيهم، معتبرين إياهم جنوداً في وحدة عسكرية خالصة.

خاضعين للتأديب والتعنيف لدى أي زلّةِ لسان. إخفاءُ الحقائق مهمّتهم.

وتأتي حكاية المجنّـدة التي أنقذها طبيبٌ عراقيٌّ في مستشفى الناصرية، وكيف اختُـلقتْ أسطورة إنقاذها على أيدي وحدةٍ من المَغاوير الأميركيين.

نرى المجنّـدة، في المستشفى، يحيط بها أبَـواها، ليقنعاها بأن تؤكد الأسطورةَ، لقاءَ مبالغ تدفَـع.

إنهما يرددان الأسطورةَ، لكنها تقول لهما: لكني، أنا، كنتُ هناك. أنا رأيتُ ...

المفكرون الشتراوسيون، تتقدمهم كوندوليزا رايس بشعرها الفاحم المتصلّـب.

إنهم يناقشون أعجبَ الآراء وأكـثرَها إضحاكاً، بجديّـةٍ تدفع إلى مزيدٍ من السخرية.

❖ ❖ ❖

الديكور متقشفٌ، وتَمَّ تعويض هذا التقشُّفِ بالجهد في الإضاءة، وفي المؤثرات الصوتية أيضاً (شيءٌ من المبالغة هنا).

الأزياء عادية، محددة بالملبس العسكريّ في الغالب، باستثناء المفكرين الذين استعملوا أقنعةً كالمسرح الياباني.

❖ ❖ ❖

لم تستطع المسرحية الإلمامَ بالمشكلة العراقية إلماماً متوازناً، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ في العمل الفني، وقد أشار إلى هذا الأمر المخرجُ في المناقشة التي تلت العَرضَ حين قال إن العمل يقدمُ أسئلةً ومنطلقاتٍ كي يمضي المُشاهِدُ بها إلى أبعدَ. وأوضَحَ أن الحاكمينَ منذ شكسبير، هم هم، والشعب هو هو، والولايات المتحدة ليست استثناءً. نحن الآنَ في منطلَقِ حركةٍ شعبية واسعة ضد الإستعمار.

أحد المشاركين في النقاش الذي تلا العرضَ اقترحَ على الفرقة تقديمَ عروضٍ للمسرحية في بغداد، وقد أيّدتُ الاقتراح، متمنياً ألاّ تُلحَقَ الفرقة المسرحية بالقوّات (قوات الاحتلال) ...

سُئلتُ في النقاش نفسه عن الأصولية في العراق.

قلتُ إن المجتمع العراقي، كما عرفتُه، مجتمعٌ متسامحٌ، وإن الأصولية اختراعٌ أميركيٌّ استُخدِمَ في الحرب الباردة، وفي الحرب الساخنة بأفغانستان.

الأصولية ليست ظاهرةً عراقيةً.

إنها أميركيةٌ ... وبامتيازٍ، كما يقول الفرنسيون.

لندن ٩/١٠/ ٢٠٠٤

محمد علي اسماعيل: الزمنُ مضطرَباً ...

ما كان لي أن أحتفي، هذا الإحتفاءَ، بِمَ؟ لولا رسالةٌ مباغِتةٌ من: قاسم محمد علي اسماعيل.

كنتُ عرفتُ قبل شهرين أو نحوِ ذلك، أن ' قاسم ' ذو علاقة بصحيفة ' الأخبار ' في البصرة، وقد أثارَ الأمرُ لديَّ إحساساً بالمفارَقة، فما تفاداه الأبُ، حَيطةً، تورَّطَ فيه الإبنُ جهاراً نهاراً!

أشكرُ قاسماً، لأنه دفَعَ إلى عتبتي، صندوقاً هو نصفُ قرنٍ من الزمان !

❖ ❖ ❖

في ١٩٥٤، في أغلب الظنّ، نُسِّبتُ إلى التدريس في متوسطة أبي الخصيب، (صارت ثانويةً في ما بَعدُ)، وكان **محمد علي اسماعيل** مدرِّساً فيها.

قيلَ لي، قبل أن آتيَ المكانَ إن الرجل صديقٌ لبدر شاكر السياب، وإنه فُصِلَ معه، وإنه - إضافةً إلى هذا كله - يكتب شعراً جيداً ...

وألتقي محمد علي اسماعيل:

ابتسامةٌ محايدةٌ لا تكاد تغيب.

صوتٌ أقربُ إلى الهمس المُوَقَّع.

ودفءٌ تتحسسه، لكنك لا يمكن أن تمضي معه طويلاً ...

أهي التَقِيّةُ؟

تسأله، فلا يكاد يجيب. إنه يومِيءُ على استحياءٍ.

ثَمّتَ إحساسٌ بالعدالة، والعدل، والإعتدال لدى محمد علي اسماعيل:

شاعرٌ تكتّمَ على ما كَتبَ.

مدرِّسٌ أعطى الدرسَ حقّه، ولم يمضِ أبعدَ ...

' خاروصٌ ' مؤتمَنٌ على حقوق الناس.

وأخيراً ...

إمامٌ في جامعٍ بالفلّوجةِ، قبل أن يُتَوَفّى (لم يكن الأميركيون استعمروا بلدَنا بعدُ).

أكان محمد علي اسماعيل، بعد طول طوافٍ، يسندُ ظَهره إلى الحائط نفسه الذي اختاره الرصاصُ؟

أُمُّكَ، يا قاسم، هي ابنة الحاج عمر النائب، الرجل المجتهد الذي قرأتُ في مسجده رسائل إخوان الصفاء ...

وأبوك هو محمد علي اسماعيل ...

شجرةٌ مباركةٌ!

لندن ١٤/١٠/٢٠٠٤

' الحوار المتمدّن ': رئةُ الحريةِ ورايتُها

كنتُ قبل أيامٍ في جولة ثقافية بالمملكة المتحدة، مطوِّفاً في مدن وبلدات عدّة، أُلقي قصائدي باللغة الإنجليزية، وأُجيبُ إنْ سُئلتُ عن شأنٍ ثقافيّ أو سياسيٍّ يخصّ العراق.

في بلدة ساوث وولد Southwold حيث أقامَ جورج أورويل حتى العام ١٩٥٠، سألني رجلٌ بعد انتهاء القراءة:

' أنتَ قرأتَ بالإنجليزية شِعرَكَ مترجَماً ... لِمَ لم تكتب نصوصكَ بالإنجليزية رأساً؟ '

أجبتُه: سؤالك وجيهٌ. قد أكتب نصوصي مستقبلاً باللغة الإنجليزية، إلاّ الشِعر إذْ أن أمره مختلفٌ.

❖ ❖ ❖

واقعُ الحال أنني منذ زمن، أكتبُ باللغة العربية، لكنني لا أقرأُ فيها.

أردتُ القولَ إنني أفضِّلُ قراءة الكتب بالإنجليزية أو الفرنسية، لا بالعربية (مستثنياً التراثَ وكُتبَ ثلاثةِ أصدقاء أو أربعة)، والسبب في هذا جَلِيٌّ لديّ في الأقلّ:

ليس لديّ وقتٌ كثيرٌ؛ وما توافَرَ من وقتٍ لا أريد أن أبدده في قراءة نصوصٍ راهنة باللغة العربية، الأفضل أن أقرأ كتباً صدرت في ظروفٍ كفلتْ، عبر التطور التاريخي، حريةَ التعبير التي لا يمكن أن يتكوّنَ نَصٌّ حقيقيٌّ خارجَها. هذه الكتب لن تكون باللغة العربية ...

إن منطقتنا كانت، وظلّت، منذ عقود، ساكنةً ضمن حالة إقصاء عن حركة التاريخ واندفاعه إلى أمام. أمّا الناسُ فقد هُمِّشوا بعد تكبيلهم بأغلالٍ شتّى، كلُّها واقعٌ في دائرة العَوَزِ الواسعة.

العَوَزُ الأعظمُ هو في الحرية.

صحيحٌ أن حرية الإبداع قد تكون مكتسَبةً بعد نضالٍ شاقٍّ من لَدُنِ المبدِع، لكن الحالات تظل فرديةً، أي أنها ليست الظروفَ الملائمة لإنشاء ثقافةٍ طبيعيةٍ وتطويرها على نطاق أُمّةٍ أو بلد.

علينا أن نناضل من أجل خلق ظروفٍ أفضل لممارسة حريتنا في التعبير والإبداع.

علينا ألاّ نستسلمَ لما أملاه ويمليه الحكّامُ وصنائعُهم في الصحافة المتاحة المموّلة جيداً، المراقَبة جيداً أيضاً.

هنا يأتي ' الحوار المتمدن '، هذا الموقع الذي أعتبرُهُ رئةً للحرية، ورايةً ...

في هذا الموقع سنظل نكتب ونقرأ، أحراراً، بلغاتنا الوطنية.

لندن ١/١٢/ ٢٠٠٤

الحصانُ والجَنيْبَةُ
Horse and barge

يتعيّنُ عليَّ إيضاحُ أنّ الجنيبةَ (الدُّوبة بالدارجة العراقية) هي واسطة نقلٍ نهرية مسطّحة من الحديد، وقد اتخذت اسمها لكونها تنتقل جنبَ الضفة، وفي العراق كان الرجال الكادحون، وهم على الضفة، يسحبونها موثقينَ إلى الجنيبةِ بحبالٍ، قبل أن تأتي المحرّكاتُ مع الحرب العالمية الثانية. في إنجلترا العتيقة قامت الخيل مقامَ البشر في جَرِّ الجنائب على امتداد شبكة القنوات العظمى The union canal.

أعتقدُ أن عبد الكريم قاسم كان أرادَ أن تكون (قناة الجيش) بدايةً لما يشبه القنواتِ العظمى. (**كان في دورةٍ بريطانيّةٍ، بلندن، للضبّاط الأقدَمين العراقيين، والتقى محمد مهدي الجواهري**)

النصّ يهتمّ بحانة كبرى على القناة اللندنية، تحمل اسمَ ' الحصان والجنيبة '، Horse and barge، اعتدتُ ارتيادها، وهي ليست ذات خصوصية معيّنة، بل أنها أقربُ إلى الرثاثة، إنْ أردتَ الحقَّ، لكنها ذاتُ حديقةٍ كريمةِ الإتّساعِ تُذكّرني بالبارات الصيفية في بغداد، قبل حملة صدّام حسينٍ الإيمانية، وهذا التاريخ الأميركيّ العجيب الذي جعلَنا أقربَ إلى مكةَ من واشنطن.

وثمّتَ جنائبُ ضيّقةٌ تُتّخَذُ مساكنَ دائمةً.

سكَنةُ الجنائب الضيّقة Narrow boats يؤمّون المكانَ لأنه ملتصقٌ بمرسىً لهم يُدعى بالإنجليزية الفصيحة غيرِ المعتبِزةِ كثيراً لدى السكَنة: Marina ، وهؤلاء يشكلون شريحةً اجتماعيةً حقاً. هذه الشريحة تُعتبَرُ خارجَ السائد عموماً في الطبع والمَلبس واللهجة..

وللمناسبة، بمقدورنا، بعد هذا الشرحِ كله، أن نقرأ قراءةً واقعيّةً قولةَ سان جون بيرس: ضيِّقةٌ هي المراكبُ، ضيّقٌ سريرُنا.

وعلى أيّ حالٍ، سوفَ أبتاعُ جنيبةً ضيِّقةً، ولسوف تكون ذاتَ سريرٍ ضيِّقٍ حُكماً!

لكنّ، في هذا المطر الدائم، المطر غير المرئيّ، المطر الذي يشبهُ زجاج المطارات...

أقولُ: في مثل هذا المطر، يكون الكلام عن الماء والقنوات والمراكب الضيِّقة، سخيفاً تماماً؛ لِمَ لا أتكلّمُ عن مزارع تربية الخنازير مثلاً؟

كنتُ أتابعُها من نافذة القطار المنطلق من لندن إلى أدنبرة في الشمال. وفي العودة لم أرَ المزارعَ. سألتُ رفيقَ الرِّحلةِ: أين ذهبت الخنازيرُ؟ قال: لا أدري، لكن من الممكن جداً أنهم أكلوها! حسناً ... تقصدُ أن البشر أكلوا كل تلك الخنازير؟ خذ الكوسج (سمك القرش) ... كم إنساناً تأكلُ الكواسجُ كلَّ عامٍ؟ ثلاثةً؟ أربعةً؟ قُلْ خمسةً. وهناك سينما وفَكٌّ مفترسٌ ... إلخ. حسناً ... اذهبْ إلى المَسْمكة. لا تذهبْ بعيداً جداً؛ اذهبْ إلى سوق الأسماك في 'مَسْقَط' فقط. ألا ترى الكواسجَ الصغيرةَ؟

Baby sharks ? ... لكن أسماك القرش ليس لديها سينما، أي أن الكواسج لم تنجب مخرجين مثل مخرج الفكّ المفترس ... لكي نرى فكَّ الإنسان والتهامَ الفريسة.

فيكتور هيجو في 'كادحو البحر' وصفَ أخطبوطاً هائلاً، وصراعَ الإنسانِ للتخلّصِ منه. اذهبْ إلى بيروس، مرفأ أثينا ... اذهبْ إلى المطاعم في تلك البلاد، وعلى انتشار اليونان الكبرى في إيجة والمتوسط ... هل بمقدورك أن تحصي عديدَ الأخطبوطات التي يلتهمها اليونانيون كلَّ يومٍ؟ لِنَعُدْ إلى المراكب الضيِّقة! أمسِ في 'الحصان والجنيبة' ... لا، لا، لا، الآنَ في الساعة الثالثة عشرة والدقيقة العشرين تماماً، يومَ الخامس عشر من كانون أوّل ٢٠٠٤، نظرتُ من نافذة المطبخ (المضبّبة قليلاً)، إلى الحديقة المشتركة، و البَرِّيةِ الوحشية بعدَها، والبحيرة المتلألئة في البُعد القريب ... على الأرضية الخضراء، كان ما خلّفه الخريفُ المنقضي من ورقٍ بُنِّيٍّ، يتحركُ كالزرازير. البطُّ المهاجرُ عبَرَ منذ الصباح غير الباكرِ. تذكّرتُ قصيدةً لبدرٍ (السياب) لا يتذكّرها أحدٌ: صيحاتُ البطِّ الوحشيّ. كانت أيضاً طيورٌ سودٌ متوسطة الحجم. هي ليست الطيورَ السودَ

الصغيرةَ. ليست الغربانَ. قالت لي صديقتي إنها تُدعى ...Starling لم تقُلْ ذلكَ اليومَ. قالت ذلك منذ أيّامٍ. كنا في مطعمٍ _ حانة، على ضفة النهر العظيم تماماً (أقصدُ نهرَ التيمس). كنتُ أرى الجسورَ، الواحدَ يتلو الآخرَ.. قيلَ إن بغداد ستسقطُ بعد الجسرِ السابع! لماذا؟ ليس في بغداد سحرٌ ولا ساحرٌ ... بغداد مدينةٌ (؟) متربِّعةٌ على مَزبلتها مثل دجاجة غبيّة. الأتراكُ فقط حاولوا أن يصنعوا منها عاصمةً، مثل ما حاولوا مع دمشقَ ... الأميركيون ليسوا بُناة حواضرَ. الأميركيون هادمو حواضرَ. وعلى امتداد قارّتهم لن تجدَ حتى مدينةً واحدةً ذاتَ معنى متّصلٍ. لنَعُدْ إلى المراكب الضيِّقة! أَمسِ، مساءً، في ' الحصان والجَنيبة '، وتماماً عند البارِ، رأيتُ شخصاً لم أكن أتوقّعُ أن أراه، شخصاً طالَما مررتُ به، وهو في جنيبته، على القناة؛ أحيِّيه فلا يجيب. أبتسمُ لِمَرآهُ فلا يردُّ. هل أتذكّرُ الفرزدق؟

مررتُ بهم على سككِ البريد	فما رَدَّ السلامَ شيوخُ قوم
ولا سِيْما الذي كانت عليه	قطيفةُ أُرجوانٍ في القُعود

في هذا الشاهد من شرح ابن عقيل، يحكي الفرزدقُ عن كلابٍ مرَّ بهم. حيّاهم فلم يردّوا ... إنهم شيوخُ القوم! على أيِّ حالٍ؛ هذا الذي لم يكن ليردَّ، رأيته جليسي. أنا أيضاً أحبُّ الجلوسَ إلى البارِ، لا على كرسيٍّ

عند طاولة ... قلتُ له: أنا أراكَ دائماً. أجابَ: أنا أراكَ دائماً أيضاً. قلتُ له: وأراكَ ساهماً دوماً! أجابَ: وأراكَ ساهماً دوماً ... قلتُ: عجيبٌ! قالَ: عجيبٌ!

سيكون المساءُ ثقيلاً، مثقلاً. أُفكِّرُ في شراء جَنيبةٍ. سيكون لي سريرٌ ضيِّقٌ فيها،

كذلك الذي ذكَرَه سان جون بيرس. وسأُوصي المرأةَ التي أُحبُّ بأن تقتصد في تناول الطعام ...

لندن ١٥/١٢/٢٠٠٤

تحويلُ المَجرى

حين يكون التاريخ الشعريّ لأمّةٍ أربعةَ عشرَ قرناً (تاريخ الشعر العربي)، فإنّ إعادة النظر الراديكالية الشاملة تغدو مستبعَدةً بصورة ما.

وفي أمّةٍ تُقارِبُنا، في هذا السياق، مثل اليابان، ظلّت الأشكال الموروثة كالهايكو فعّالةً حتى اليوم،

ولم تستطع محاولات التحديث المستمرة أن تكون ذاتَ يدٍ عُليا.

من هنا، نقدِّرُ ضخامةَ فعلِ التحويل الذي أنجزه بدرٌ.

هل كان لتلاوين المقترَح الشعري العربي المعاصر أن تتّخذَ هذا الغنى الذي نشهده اليومَ لولا فعلُ الساحرِ الذي حوّلَ المجرى إلى الأبد؟

ليس بالإمكان مقارنة حركة التحديث في الشعر العربي، بالتحديث في الشعر الأميركي أو حتى الفرنسي، فهذان لا يتوافرُ لديهما الزمنُ الشعري الممتدُّ لدينا، أساساً، كما أن ديناميكية الحياة الثقافية في أميركا وفرنسا، على سبيل المثال، تجعلُ التجريبَ والتغييرَ ممكنينِ، ولازمينِ أحياناً؛ بينما سكونيةُ المجتمع العربي تقف عائقاً فعلياً أمام أي تغييرٍ، في الثقافة والسياسة.

إذاً، كان يتعيّنُ على بدر شاكر السياب، أن يكون راديكالياً على جبهتينِ: السياسة والثقافة، كي يتحققَ على يديه، تحويلُ المَجرى.

مستحيلٌ أن تكون محافظاً في الفن، وراديكالياً في السياسة، في آنٍ.

ومستحيلٌ أن تكون محافظاً في السياسة، وراديكالياً في الفن، في آنٍ.

لقد تعرَّضَ بدرٌ للسجن والنفي ...

لكنه أطلقَ الشرارةَ التي اندفعتْ مَشاعلَ!

لندن ٢٠٠٤/١٢/١٦

عربةٌ ذاتُ ثلاثةِ جيادٍ

قد كنتُ أوردتُ في كلمة سابقة نُشرتْ لمناسبة مرور ثلاثة أعوامٍ على انطلاقة "الحوار المتمدن"، أنني أكتبُ باللغة العربية، لكني لا أقرأُ فيها، وبَيّنتُ أسبابي الخاصة، غيرَ القابلةِ لإغراء التعميم من جانبي.

والحَقُّ أنني أشعرُ منذ اتخذتُ القرارَ بأنني أزدادُ غِنىً روحياً (طبعاً)، وغبطةً بما حولي ومَن حولي من أهل الأدب والفن.

للمبدعِ الحقُّ في أن يصون نفسَه وفضاءَه المحيطَ من كل تدخُّلٍ خارجيٍّ غيرِ مُعينٍ في المسعى الإبداعي. بلوغُ تخومِ الفنّ يحتاجُ إلى أكثرَ من حياةٍ واحدةٍ ملأى، فكيفَ إذاً إنْ كانت هذه الحياةُ المتاحةُ

مبدَّدةً في ما لا يعينُ ولا ينفعُ؟

حين تصون نفسَكَ وفضاءكَ تجد أنك في جنةٍ دانية القطوف، وتشعرُ بشهيّةٍ نادرةٍ لالتهام كل تلك الثمار العجيبة ...

أنت – مثلاً – لن تكتفي بقراءة كتابٍ واحدٍ في الوقت الواحدِ.

قد تسألني: ألا تحدِّثني قليلاً عمّا أنت قارِيءٌ؟

❖ ❖ ❖

أنا أقرأُ الآنَ في ثلاثة كتب:

١- ماندولين النقيب كوريلّي (رواية) لويس دي بيرنيير Captain Corelli's Mandolin – Louis de Bernieres

٢- أرضُنا (رواية) كارلوس فوينتس Terra Nostra – Carlos Fuentis

٣- في قلب البحر (سرد) ناثانييل فِلْبْرِك – In the Heart of the Sea Nathaniel Philbrick

❖ ❖ ❖

أمس، أتممتُ قراءةَ 'ماندولين النقيب كوريلّي'، ربما لأنّها رواية، وربما لأنها أُخرِجتْ شريطاً في السينما معروفاً.

أحداث الرواية تدور في جزيرة من الجزر اليونانية احتلّها الإيطاليون في الحرب العالمية الثانية، والألمان كذلك، ثم حرّرَها الحلفاءُ بمساعدةٍ من السكّان المحليين. آلةُ الماندولين الموسيقية تواكِبُ شخصيةَ ضابطٍ إيطاليّ برتبة نقيب كان مع قوّة الاحتلال الإيطالية، وأحبَّ شابّةً يونانية هي بيلاجيا، ابنةُ طبيب الجزيرة ...

القصة طويلة، تتمتّع بقاعدةٍ راسخة من البحث في جوانب الحياة الإجتماعية والسياسية في اليونان وإيطاليا، كما تغتني بتفاصيلَ

عن الحرب تمنحها طابعاً وثائقياً ما.

أحببتُ في الرواية جانب البحث الشاقّ، والروحَ الرومانسية التي تشِفُّ بالرغم من كل تعقيدات الواقع الذي كهربتْه الحربُ.

لكني لم أُحببْ الموقفَ شبْهَ المُسْبَق، موقفَ العداء، إزاءَ الشيوعيين اليونانيين ودورِهم في تحرير بلادهم. أحياناً يتّخذُ هذا الموقفُ شكلاً غيرَ مبرَّرٍ، في السياق، أو في المقتضيات الفنية البسيطة. وأتَمَثّلُ هنا مشهدَ النصيرِ الشيوعي العائد إلى الجزيرة، حيث يضعه الكاتبُ في موضعٍ كاريكاتيريّ، موضعٍ يحاولُ فيه النصيرُ اغتصابَ خطيبته، بيلاجيا، صديقة النقيب الإيطاليّ بل يجعل بيلاجيا تطلق النارَ على خطيبها!

وثمّتَ تعميماتٌ سخيفةٌ عن موقف الحزب الشيوعي اليوناني.

نالت الرواية سنة ١٩٩٥ جائزة كتّاب الكومونويلث لأفضل كتابٍ.

عدد الصفحات: أربعمائة وخمسون من القَطع المتوسط.

❖ ❖ ❖

لا مقارنةَ، بإطلاقٍ، بين 'ماندولين النقيب كوريلّي'، وهذا العمل الهائل لكارلوس فوينتِس، كاتب المكسيك العظيم.

إنّ Terra Nostra لا يمكن أن يحيطَ بها تعبيرُ كتابٍ. صفحاتُها التسعمائة هي دليلٌ في العمقِ، إلى كل ما هو مستغلَقٌ.

أقولُ كل ما هو مستغلَقٌ بدون أن أترددَ لحظةً!

هذا العملُ باختصارٍ غيرِ لائقٍ، يدور حول فيليب الثاني، ملك إسبانيا، باني الأسكوريال، وزوج الإنجليزية إليزابث التيودوريّة وشاهِدُ اكتشافِ العالم الجديد.

لكنّ البانوراما الخطيرة التي يشكّلها الكتاب تمتدٌّ إلى جميع الأسئلة التي راودت الإنسانَ على هذه البسيطة، وما وراء هذه البسيطة.

أقول: جميع الأسئلة، بلا أيّ تراجُعٍ أو إعادةِ نظرٍ في التعبير.

كارلوس فوينتس يضع الحضارة الغربية موضعَ تساؤلٍ قاسٍ، تساؤلٍ لا يرحم، ربما لأن الأمرَ يستحقٌّ هذا.

إنْ لم يكشف الكاتبُ الحقيقيُّ عوراتِ قومه، فمن سيكشفها يا تُرى؟

في رحلتي عبر الصفحات التسعمائة، بلغتُ، اليومَ، صباحاً، الساعة العاشرة، الصفحة الستمائة والخمسين!

أقدِّمُ هنا ترجمةً أمينةً لموردٍ من الرواية:

القصْبة في الإسكندرية

وَدَّعَ لودوفيكو فقيهَ الكنيس، ورحلَ بعيداً، بعيداً جداً، مع الأطفال الثلاثة.

قد كان قرأ في النصوص بطُلَيطلة، مخطوطةً يتحدث فيها بليني عن قومٍ بلا نساء، بلا حُبٍّ، وبلا نقود – مجتمعٍ بأسرِه،

لا يولَدُ فيه أحدٌ إطلاقاً.

هؤلاء القوم يسكنون قريةً على ضفاف البحر الميت، هاربينَ من المدن الكبرى، بُغْيةَ أن يعيشوا حياتهم البسيطة، الصامتة، المتقشفة.

هناك، رغبَ لودوفيكو، في أن يترعرعَ الأطفالُ الثلاثةُ الذين بعُهدته، حتى يغدوا رجالاً.

أبحروا من بَلَنسِيةَ، في سفينةٍ مسيحيةٍ، بَلَّغَتهمُ، في إحدى الليالي، ميناءَ الإسكندرية.

وسرعان ما تاهوا في الأزقّة المتلوية لتلك المدينة. أرملُ الآلهةِ والناس، بأسمال الشحّاذ، وبالرغم من قوّته، وهو يجهدُ في حملِ أطفاله الثلاثة بين ذراعَيه، لفتَ انتباهَ الناسِ إليه. لكنه استُقبِلَ بحفاوةٍ. تحدّثَ باللغة العربية، ودفعَ مأواهُ ومَطْعمَه؛ والأولادُ الثلاثةُ كانوا وديعينَ.

لقد وجدوا مأواهم في بُرجٍ للحمامِ على سَطيحة يمكنُ للودوفيكو أن يرى منها، النهرَ ذا الأذرعةِ المائة، يُفرغُ أمواهَهُ في البحرِ غيرِ المَرئيّ.

في إحدى الليالي، وبسبب من الحرارة، كان ينامُ على حَجَرِ السطحِ الذي أبْهَقَتْهُ الشمسُ، وحَلَمَ بأنه ينحدرُ في قاربٍ صغيرٍ، مجدِّفاً نحو منبع النيل. لم يكن ثمّتَ إلاّ ثلاثُ نجومٍ. لا نورَ سواها، والصمتُ العميمُ يُطْبِقُ على أرض مصرَ.

في تجذيفه، صار يقتربُ من النجوم الثلاثِ، المنعكسةِ في الماء، حتى أمستْ في متناوَلِ يده.

غمسَ يده في النهرِ، واصطادَ نجمةً.

للوهلة الأولى، ارتجفت النجمةُ. ثمّ تكلّمتْ.

نطقتْ: شمسٌ.

طلعت الشمس.

قالت: قمحٌ.

واكتست الضفافُ بالسنابل.

قالت: مدينةٌ.

فانتصبت مُرتَبَعَةٌ بيضاءُ من رمال الصحراء.

قالت: أطفالٌ.

فظهرَ ثلاثة شخوصٍ، شابّانِ وفتاةٌ.

سبحوا نحو القارب، واقتادوه إلى ضفة النهر.

قال أحدُ الفتَيَينِ: "هذا أخي، وتلك أختي".

في اليوم الأول، بذرَ المتكلّمُ الأولُ الأرضَ، وجنى غَلَّتَها، وحوَّلَ مياهَ النهرِ لتروي الصحراء، وصبَّ طابوقاً من حمأِ الشاطيء، وشادَ منزلاً، مهيِّئاً بذلكَ معاشاً ومأوىً لأخيه وأختـه.

تلك الليلة، امتناناً، اتّخذتْه أختُهُ زوجاً، وناما معاً في ذلك المنزل. الأخ الآخر نام في هواء الليل، لكن رقاده كان قصيراً. نهضَ، ومشى عند النهر، يقِظاً، مستاءً، لا يكاد يخفي غضبه وحسدَه.

فجرَ اليومِ التالي، دخلَ الأخُ الحسودُ المنزلَ، حيث يرقد الزوجانِ، وقتلَ أخاه النائم، ثم سحبَ جثّته إلى النهر وألقاها في الماء. بكت الأختُ الزوجةُ، وسارت على الضفة الموحلة باحثةً عن جسد أخيها وزوجها. الأخُ القاتلُ قال للودوفيكو. أنت تنام

على السطح. أغلِقْ شفتيكَ، وإنْ فضحتَ أمري قتلتُكَ أنت أيضاً في الحُلم. لن تفيقَ أبداً.

ومضى سائراً في الصحراء، عارياً حسيراً.

ذهب لودوفيكو يبحث عن المرأة. بعد بُرهةٍ رآها عند الأسَلِ الذي أمسكَ بجسدِ أخيها الميت. ضغطت المرأةُ شفتيها على شَفتَي الميت، فأحيَتْهُ بأنفاسها، ناقلةً الحياةَ من فمها إلى فمه. ثم قالت: الشفاه حياةٌ. الفمُ ذاكرةٌ. الكلمة خلقت كل شيءٍ.

وعاد الميتُ إلى الحياة، لكنه كان الميتَ الحيَّ، لا الرجلَ الذي كان من قبلُ.

حين عاد إلى الحياة قال: أنا الأمس، وأنا أعرفُ الغدَ. مثلي، سيحيا أبنائي موتَهم، وسيموتون حياتَهم. لن نكون ثلاثةً البتةَ. سنكون وحيدينَ في العالَم، مكتفين بأنفسنا، لا أبَ ينجِبُنا، ولا أُمَّ تسمِّينا.

وعمرت الأرض بالناس.

في اليوم الثالث للحلم، وجد لودوفيكو نفسه يمشي بين أخلاط الناس في مدينة الإسكندرية. العمائم مفوّفة الألوان، والوجوه المنقَّبة، والعباءات الخافقة، والأقدام الحافية، والأيدي المتلصصة ... لا أحدَ انتبَهَ إليه، لكنه أحسَّ بأنه مهدَّدٌ بالعجلة والأصوات الخشنة والصيحات المُعْوِلة.

عند العتبة الحجر لباب أبيضَ تعرَّفَ القاتلَ. كان يجلسُ متربعاً إزاءَ بَسْطة مترنِّحة، يكتبُ بلا توقُّفٍ، كأنه محكومٌ عليه بالكتابة، وكأنّ عيشَه معتمدٌ على ما يخطّه من حروفٍ عربيةٍ على أوراق البرديّ. وكأنه بالكتابة يؤجِّلُ لعنتَه.

اقتربَ لودوفيكو من الكاتب. لم يتعرَّفْه. كان الذباب يحطُّ على وجه المجرم، وهو يذبُّ بيدٍ واحدة، دونَ أن تَطرُفَ عيناه. مرَّرَ لودوفيكو يده أمام عيني الكاتب، فلم تَطْرُفا. وقرأ لودوفيكو على كتف الكاتب الأعمى:

' في إحدى الليالي قتلتُ أخي. انتبهوا. اقرأوا وافهَموا. سأخبركم لِمَ حدثَ ذلك، وكيف، ومتى، والأسباب؛ ما تراءى لي آنذاكَ، واليوم الذي أتذكّرُ، وما الذي أخشاه غداً. انتبهوا. قفوا. ألا تثيرُ حكايتي فضولَكم؟ '

رأى لودوفيكو في الحلم أن الأخ القتيلَ وزوجته الأخت ينامان تلك الليلة في القبر. استيقظتْ وقالت: بمقدورنا أن نغادر الآن.

الآنَ ستعرفُ مصيرَ أولئك الذين يعيشون خارجَ القبر.

أجابَ القتيلُ: نعم. لكنْ سـراً. لا تدعي أحداً يرانا.

تملّـصا مـن أكفانهما الملتفّـة طِـباقاً، كأنهما ينزعـانِ جـلدَهما. نفضـت المرأةُ رداءَها ذا الألوانِ الألف فبزغَ النهارُ مـن طيّـاته، وهبطَ الليلُ، شعَّ النورُ، واستطالَ الظلُّ، الرداءُ اندلعَ لهباً منهمراً على جسـدها كالماءِ، ومع ملمسـه يموت الأحياءُ، والموتى يُبْعَـثون. وطوالِ هذا الوقت كان الزوجانِ يسيران في الطرقات نفسها من الإسكندرية نحو الأفواه التي لا تُعَدُّ ولا تحصى للنهر العظيم.

أخيراً رآهما.

الأخُ القاتلُ يتمددُ ميتاً في زقاقٍ مهجور، وجهُـه ملطّـخٌ بالحبْـرِ المراقِ، ويدُه تطْبِقُ على قلمه، والمخطوطاتُ الورقُ متناثرةٌ حول جسده، بيضاء، عذراء، لا حرف عليها ولا كلمة.

أبحرَ الزوجان في أعالي النهر، في زورقٍ نـورانـيّ. الرجلُ يسمّـي الأشياءَ سـرّاً، ماءً، رملاً، قمحاً، حجراً، بيتاً؛

والمرأةُ تسألُ المياهَ: لماذا استسلَمَ أخونا إلى إغراءِ الكتابة عن جريمته هو؟

أفاقَ على أصابعَ تفركُ أصابعـه. كانت امـرأةٌ تتمدد إلى جانبه، غير محددة العُمرِ. وجهها مغطّى وجسمُـها باستثناء فُرْجـةٍ على شفتيها. الفُرجةُ تتبعُ مَعالـمَ شفتيها. كان الفمُ مختوماً بألوانٍ عدّة... نطقتْ قائلةً للودوفيكو: اهربْ سريعاً إلى المكان الذي سأخبرك عنه. هنالكَ غضَارةُ عيشكَ. هنا سيكون أطفالُكَ في خطرٍ لو اكتُشفت العلامة التي يحملونها.

ستنطبقُ عليهم نبوءةٌ مقدّسـةٌ. سيُفصَلونَ عنكَ، وسيظلّونَ أسـرى، ينتظـرون بلوغَهم الرحولةَ فقط لكي يؤدّوا، ثانيةً، صراعَ الأخَوَينِ اللدودَينِ ...

سألها لودوفيكو: وما هذه النبوءةُ؟

لكنّ المرأةَ التفّتْ بغلالتها الملوّنة – مثل شفتيها – واختفتْ في العتمـةِ.

❖ ❖ ❖

علاقـتي بهـرمان ملفيـل ومؤلّـفه " موبـي دِك " قديمـةٌ جـداً. حـاولتُ قراءتـه بالإنجليزية، قبل أن ينقله د. إحسـان عباس إلى اللغـة العربيـة، مسجّـلاً مأثُـرةً في الترجمة حافظتْ على بهاء معجزة الكتاب. أحياناً أقول مع نفسي إن هذه الترجمة هي أسمى ما فعله أستاذُنا إحسان عبّـاس في مجهوده العلميّ.

على أي حالٍ ...

قبل فترة، كنتُ أقرأُ، ربما للمرة الثالثة، رواية غابرييل غارسيا ماركيز ' الجنرال في متاهته '، لأكتشف أن ملفيل التقى صديقة سيمون بوليفار التي هجرت موطنها، بعد وفاة بوليفار، لتسكن منتبَذاً في مرفأٍ صغيرٍ من مرافئ صيد الحيتان. في هذا المرفأ الصغير جاء ملفيل يزور السيدة.

لقد اشتغل ملفيل أشغالاً مختلفة ذات علاقة بصيد الحيتان، ولسنواتٍ طويلةٍ، كي يتمكن من تدوين معجزته، في سرعةٍ عجيبة.

كتاب ناثانيل فلبرك ' في قلب البحر ' ذو علاقةٍ بـ' موبي دِك '.

إن فلبرِك هو مدير معهدإيجان للدراسات البحرية بجزيرة نانتاكيت.

وكانت الجزيرة من أهم مراكز صيد الحيتان في القرن التاسع عشر.

في تشرين ثاني ١٨٢٠ أغرقَ حوتٌ هائجٌ سفينة صيد الحيتان ' إيسِّكْسْ Essex' في الباسيفيك.

كانت السفينة هذه من نانتاكيت عند شاطيء نيو إنجلند _ وكانت الجزيرة لأكثر من قرنٍ عاصمةَ العالم لصيد الحيتان، يومَها كان الباسفيك في مركز الشرق الأوسط الآن حيث احتياطيّ زيت العالم. لقد كانت الحيتان هي مصدر الزيت الذي ينير الشوارع ويُشحِّم مكائن العصر الصناعي.

القصة الواقعية لغرق السفينة إيسّكْسْ ألهمت هيرمان ملفيل معجزته الفنية.

أردتُ القول إن العمل الفني مهما كان غرائبياً فإن أساسه يظل واقعياً، وليس علينا إلا اكتشاف الجذور.

ملحوظة: كتاب ' في قلب البحر ' يقع في ثلثمائة صفحة واثنتين.

لندن ٢٠٠٤/١٢/٢١

أبـو إبَـر ... أبـو طـُبَـر

حين كان أبو طُبَـر في بغداد

كان أبو إبَر في لندن ...

قصـة البـائس أبـو طُبَـر التـي لفـّقـهـا البعثيـون لتفتيـش كـل مسـكنٍ ببغـداد، معروفةٌ الآنَ أكثر ممّا يلزم.

لكنّ قصة أبو إبَـر مختلفةٌ نوعاًما.

أبو طُبَـر كان يقتل بوسيلةٍ من أدوات الإنسانِ الأوّل، وهي الطُبَـر.

أمّـا أبو إبَـر فكان يقتل بوسيلةٍ مستحدثةٍ هي إبرةُ الطبيب.

ثمّ أن المدينة التي كان أبو طُبر يمارس فيها عمله، هي مدينةٌ مفتوحةٌ لكل مجرمٍ وغازٍ ومغامرٍ ...

أمّـا أبو إبَـر فكان يمارس عملـه (القتـل) في عاصمـةٍ عريقـةٍ، هـي أعظـمُ عاصمة أوربية: لندن ...

الآنَ، علـيَّ القـولُ ببسـاطةٍ: إن أبـو إبَـر، الطبيب القـاتل، هـو إيـاد عـلاّوي تحديداً.

معروفٌ أن المجرم إياد علاّوي ارتبطَ منذ وقتٍ مبكّرٍ جداً بجهاز " حنين الصدّامي"، جهاز القتل والتعذيب والإختطاف،

وقد كوفـيءَ على إخلاصه، بأن قُبِلَ طالباً في كلية الطبّ العراقية، وهو الغبيّ، غيرُ المؤهَّلِ، وبأنْ زُحِّـفَ من سنة

إلى أخرى، حتى خُـرِّجَ طبيباً ...

لم يتعلّـم الغبيُّ هذا، من الطبِّ، إلاّ أمراً واحداً:

كيف يزرق الإبَـر ...

❖ ❖ ❖

وتمضي الأعوامُ ...

ويُفْـرَزُ إياد علاّوي مسؤولاً عن محطة لندن لجهاز " حنين ".

والحقُّ أن محطة لندن لم تكن مسؤولةً عن الـجُزر البريطانيـة فقـط، بـل أن أذرعها تمتدُّ لتطال أوربا بأسْـرِها.

أمّـا مسؤولية إياد علاّوي في محطـة " حنين " فكانت الأمـرَ الوحيدَ ذا العلاقةِ بالطبِّ، طبّ الجريمة: زَرْق الإبَـر!

كـان الـمعارِضون يُسـتدرَجون إلـى السـفارة العراقيـة، أو الخطـوط الجويـة العراقية، وغالباً ما كان هؤلاء شبّـاناً، بحجة الحوار أو تجديد وثيقة ...

وفي القبـو، قبوِ المبنـى، يظـهرُ، بغتـةً: إيـاد عـلاّوي، الطبيـبُ القـاتل، مُشْـهِـراً إبرتَـه.

في الغالب تكون الإبرةُ للتخدير:

يوضَـعُ المرءُ الضحيّـةُ في صندوقٍ، تنقله إحدى سيارات السفارة، ويرسَـلُ إلى بغدادَ، على طائرة الخطوط الجوية العراقية، بريداً دبلوماسيّاً!

في بغداد يتمُّ " التعاملُ " مع البريد: التعذيب، فالقتل...

المحاكم البريطانية حكمتْ على تشابمان، الطبيب القاتل، بالسجن مدى الحياة.

أمّـا إياد عـلاّوي، الـذي تنطبـق عليـه القوانـين البريطانيـةُ، فمـا يـزال مطلَـقَ السـراحِ ...

إلى حينٍ؟

لندن ٣٠/١٢/٢٠٠٤

بابانِ لِبيتِ اللهِ

في الثاني من كانون ثاني ٢٠٠٥، كنتُ أغادرُ، مع صديقتي، مرفأ بورتسموث الهائل، و الجميل أيضاً إذا قارنتَه بساوثهامبتِن، متجهَين إلى سالزبري Salisbury، بلدة الكاثدرائية الشهيرة التي بُنِيتْ أوائلَ القرن الثالث عشر (الميلادي طبعاً).

كان زلزال البحر الآسيويّ يضع مِيْسَمَه على كل شيء هنا: التلفزيون، حديث المقاهي والمشارب، الصحف، الإذاعة ...

إحدى قنوات التلفزيون كانت بثّتْ في ساعات الصباح الأولى، نبأً موجَزاً يفيدُ بأن رئيس أساقفة كانتربري لم يعُد يؤمنُ بالله بعد التسونامي!

أخبرتُ صديقتي الخبرَ.

كنا أمضينا ساعةً أو نحوَها في متحف بورتسموث، وعرفتُ أن تشارلز ديكنز مولودٌ هنا، وأن أيام اللورد نيلسون الأخيرة كانت هنا أيضاً، كما عرفنا أن بورتسموث كانت أربعاً من البلدات يوماً ما ... إلخ.

دخلنا مخزناً فيه صحفٌ. اشترينا نسخةً من الصنداي تلغراف، إذ أن حديث رئيس أساقفة كانتربري كان منشوراً فيها!

الدكتور روانْ ويليَمْزْ Dr Rowan Williams رئيس أساقفة كانتربري قال:

المسألة هي ... كيف بمقدورك أن تؤمنَ بإلهٍ يسمحُ بمعاناةٍ على هذا النطاق؟

مضيفاً أن الصلاة لا تقدم حلولاً سحريةً!

قبل هذا الكلام بشهورٍ، أعلنَ رئيسُ الأساقفةِ رأيه صريحاً، ضد الحرب في العراق، قائلاً إن الله سيحاسبُ من اختارَها سبيلاً.

❖ ❖ ❖

بلغْنا سالزبري عصراً.

تركنا السيارةَ في مرآبٍ قريبٍ من الجادّة العامّة، واتّجهنا إلى الكاثدرائية.

غريبٌ كيف تتماثلُ المدنُ والبلْداتُ!

مدن الجامعات تتماثل. مدن الكاثدرائيات تتماثل أيضاً. هنا في سالزبري، الكثيرُ، ممّا يجمع بين البلدة وبلدةِ كاثدرائية شهيرةٍ أخرى، هي كاثدرائية كانتربري، المحجّ، ومقام الدكتور روانْ وِيليَمز الذي لم يعد يؤمن بالله ...

تدخل كاثدرائيةَ سالزبَرِي، لتدخل في صبوةٍ من صبوات الإنسان:

البناء مرهَفٌ، حتى ليبدو رقيقاً، والزجاج المُعشّقُ أبهى من أن يوصفَ وصفاً عابراً.

أهمية كاثدرائية سالزبري أنها تحتفظ بنسخةٍ من ' الماجنا كارتا ' الشهيرة، وبختْمِ الملك جون الذي أصدرَ الوثيقة، في العام ١٢١٥ الميلادي، باللغة اللاتينية، واضعاً الأساسَ للتطور الديمقراطي في المملكة المتحدة.

ثمّتَ، في الكاثدرائية، قاعةٌ مخصصةٌ للماجنا كارتا، تدعى The Chapter House، وتعتبَر الإنجازَ الأكثر اكتمالاً للعمارة القوطيّة بإنجلترا. ويعود تاريخ بنائها إلى أواسط القرن الثالث عشر، وتعتمدُ مبدأي الإنتظام الهندسي والنباتي في آن.

قُبّةُ القاعة ترتفع على ما يشبه أغصاناً تفرّعتْ، منتظمةً، من جذعٍ في منتهى الرقّة.

كل شيءٍ يَشِفُّ كأنه من زجاجٍ ... حتى الرخام يشِفُّ.

إن روح الماجنا كارتا تتبدّى هنا، كأنها في انبثاقها الأول.

الماجنا كارتا، بابٌ في كاثدرائية سالزبري.

❖ ❖ ❖

قبورٌ لا تتعدى العشرة تحيط بالمُصَلّى حيث المصاطبُ.

هذه القبور لا تشكّلُ نقيضاً، فهي تكاد تَخفى.

أحد هذه القبور استلفتَ انتباهي.

كان لفارسٍ شابٍّ، مُدَّرِعٍ، بكامل سلاحه، هكذا يقول تمثالُهُ المتمددُ فوق الضريح.

وأقرأُ:

وليم لونغسيبي الأصغر Williem Longsepee The Younger

ابنُ إيرل سالزبَري Son of The Earl of Salisbury

قادَ الفرسانَ الإنجليز، في الحملة الصليبية السابعة، في الهجوم على المنصورة بمصر.

التصويتُ وعواقبُهُ

يصعبُ على المرء اعتبار ما جرى في الثلاثين من كانون ثاني ٢٠٠٥ انتخاباً، لأسباب معروفة جداً. ما جرى كان عملية تصويت ميكانيكية، تؤشرُ إلى الماضي أكثرَ ممّا تؤشرُ إلى الحاضر. والحقُّ أنها تتعامل مع صدّام حسين، وحقائقه، لا مع ما استجدَّ بعدَه.

التحالفُ الشماليّ (أقصدُ زعماءَه) دفعَ بالمشاعر الشعبية الغَرَزِية إلى أقصاها: الإنتقام من العرب.

(الأمرُ مبرّرٌ سايكولوجياً وبراغماتياً)

لكنه غير مبررٍ سياسياً، بمعنى المسؤولية التاريخية.

والتحالف الجنوبي (أقصدُ زعماءَه) دفعَ بالمشاعر الشعبية الغرَزية إلى أقصاها: الإنتقام من عهد السنّة.

(هنا أيضاً يكون الأمر مبرراً سايكولوجياً وبراغماتياً)

لكنه غير مبررٍ سياسياً.

هكذا وجد العراق نفسه مصوغاً صياغةً عجيبةً.

إنها حالة فقدان التوازن الوطني.

زعماء التحالف الشمالي، ضحّوا بفرصة كردستان المستقلة، خضوعاً لسايكولوجية الإنتقام من العرب.

ارتضوا البديلَ تغييراً في خرقة قماشٍ تسمّى العلَم، ومنصبٍ ' سياديّ '، كأن العراق ليس بلداً محتلاً إلى أبد الآبدين ...

وزعماء التحالف الجنوبي ضحّوا بفرصة أن يكونوا الأملَ، فرصة الموقف الوطني المطالب بإنهاء الاحتلال، خضوعاً لآمال وأعمال المرتزقة من أمثال أحمد الكلب وعادل عبد المهدي وآل الحكيم ...

التحالف الشمالي، والتحالف الجنوبي، وضعا العراق في مهبّ الريح.

أليس هذا ما أراده الاحتلال؟

لندن ٢٠٠٥/٢/١٤

جلال الطالباني إلى المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي

تردّدَ أن جهاتٍ عراقيةً ذات علاقة بأحداث بشت آشان ١٩٨٣، وبخاصة روابط الأنصار الشيوعيين، والمهتمين بحقوق الإنسان، تعتزمُ إقامة الدعوى على جلال الطالباني أمام المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي، متّهَماً بالقتل الجمعيّ لعشراتٍ من النصيرات والأنصار الشيوعيين العرب الذين كانوا يقاتلون نظامَ صدّام حسين، وتحاول تلك الجهات إثباتَ أن أوامر القتل التي أصدرَها جلال الطالباني ضد الأنصار الشيوعيين كانت بالتنسيق مع صدّام حسين بل بطلَبٍ مباشرٍ من هذا الأخير الذي أوضحَ لجلال الطالباني أن للأكراد أن يفعلوا ما يشاؤون في مناطقهم، أمّا العرب الشيوعيون فينبغي التخلّص منهم.

الحقُّ أنني لم أُفاجأْ بالأمر.

بل أنني مؤيدٌ له، وبخاصّة بعد أن تمادى الطالباني في احتقار الناس والتاريخ القريب جداً.

إنْ كان الخيار استقرَّ على رئيسٍ كرديٍّ، وهو أمرٌ ليس عجيباً، فَلِمَ اختار الأميركيون متّهماً بالقتل الجمعيّ؟

لقد نصّبوا القاتل المحترف إياد علاّوي رئيسَ وزراء ...

والآنَ يحاولون تنصيبَ متّهمٍ بالقتل الجمعيّ، لمعارضينَ، شيوعيين.

لِمَ لا يختار الناسُ شخصيةً كرديةً لم تلطّخ يداها بالدم الرقراق للشيوعيين؟

لِمَ لا يكون شيركو بيكه س، أو عبد الله باشيو، مثلاً؟

لندن ٢٠٠٥/٢/١٧

وسقطَ قتيلاً بطلاً في العام ١٢٥٠
دُفِنَ في عكّا.

❖ ❖ ❖

إنه الباب الثاني للكاثدرائية!
أيُّ البابَينِ هو الأوسعُ في عالمنا المضطرب هذا؟

لندن ٢٠٠٥/١/٤

الأتْباعُ يختصمونَ

اللصوصُ يختصمون ...

الأتْباعُ يتهارَشون:

يقولُ أحمد الكلب للشعلان:

أنتَ هرَّبتَ خمسمائة مليون دولار من المال العامّ إلى بيروت.

ويقول الشعلان المشعول الصفحة، لأحمد الكلب:

أنت زرتَ إسرائيل ثلاث مرّاتٍ ... إلخ.

المسألة ليست في هذا التفصيل أو ذاك.

المسألة أن الإثنين كانا من أخطر أتباع صدّام حسين حتى اللحظة الأخيرة.

أحمد الكلب، ظلَّ حتى غزو الكويت، من أهمِّ مورِّدي السلاح إلى النظام.

بل أنه كان وراء صفقة يورانيوم النيجر التي تمّت الإتصالاتُ بشأنها في العاصمة الفرنسية!

أحمد الكلب، يعرف أكثر من سواه، دوره في صفقة يورانيوم النيجر ...

– ربما أفادَنا عبد الرزاق الهاشمي السفير العراقي بباريس آنذاك، عن دور أحمد الكلب، أيضاً –

أمّا الشعلان، مشعول الصفحة، فقد تكفّل المكتب الإعلامي لعصابة أحمد الكلب بتوثيق خدماته

لصدّام حسين.

ماذا في الأمر؟

إنْ لم يكن العملاءُ على هذه الشاكلة، فكيف تُراهم سيكونون؟

لندن ٢٠٠٥/١/١٩

رحيلُ العاشق

آنَ قرأتُ ما كتبه علي الفوّاز، اليومَ، في موقعٍ عراقيّ للإنترنت، عن الرحيل اللائق لحسين الحسيني، أحسستُ بشيءٍ من الرضا عن هذا العالَم. مبعثُ رضاي أن هذا العالَم القاسي الناسي منحَ حسين الحسيني فرصةَ الرحيل المنتقى: هكذا في المكان العامّ، قريباً من مظانّه، اتحاد الأدباء، نادي الموسيقيين، مع الحقيبة العجيبة التي نعرفها معرفتَنا بصاحبها، لكننا لا نعرف ما فيها. لم يكن ضحية مرضٍ أو حادث مرورٍ. لقد رحلَ ماشياً كعهده.

جوّاب أزقّةٍ وصحف، مشّاءٌ، جِلْسُ ليلٍ متهيّب، حافِظُ عهدٍ وودٍّ. امرؤٌ ليس من هذا الزمان.

حسين الحسيني صديقي.

ألِفَ زيارتي في منزلي ببغداد الجديدة؛ وائتمنني على القراءة الأخيرة لديوانه الأول قبل أن يدفع به إلى المطبعة، متقبِّلاً برحابة صدرٍ ملحوظاتٍ معيّنةً حول هذا النصّ أو ذاك.

هذا الديوان الأول مسكونٌ، تصريحاً أو تلميحاً، بحبٍّ لم يكتمل، لأنه حبٌّ من طرفٍ واحدٍ:

زينب الحوراء أقول له.

يبتسم، بغير مرارةٍ، ونواصلُ القراءة.

طوال عقود المنفى الثلاثة، وفي بقاعٍ شتى من العالم الذي أضطرِبُ فيه، كانت تصلني تحياته وأنباؤه.

زينب الحوراء معه دائماً، أسكَنَها بين أضلاعه، وهي اللاهية، الغافلة عنه.

وفي حقيبته التي تناثرت في خطوة الرحيل:

مع كل تفاصيل علي الفواز، زاويةٌ أثيرةٌ، نعرفها جميعاً، هي مقامُ الشرف.

حسين الحسيني، وكما يليق باسمه، امرؤٌ شريفٌ.

لندن ٢٠٠٥/٢/٢٦

كتابُ الغصون

مصادفةٌ مَحْضٌ أن أتحدّث عن 'كتاب الغصون'، ونحن على أبواب الاحتفاء بيوم المرأة العالميّ.

الحقُّ أنني كنتُ أودّ الحديث عن الكتاب، قبل هذا اليوم، لكنّ مشاغلَ عدّةً (غالبُها تافهٌ) أجّلتْ ما اعتزمتُه.

عنوان الكتاب 'كتاب الغصون' وهو باللغة الفرنسية **Le Livre des Branches**: المؤلِّفة هي:

لويز وارن Louise Warren وهي شاعرة من ولاية الكيبك الناطقة بالفرنسية في كندا.

التقيتُ الشاعرةَ الكندية – الفرنسية، في مهرجان شعريّ، بأميركا اللاتينية، إمّا في كولومبيا أو في فنزويلا،

كان اللقاء مفاجئاً لي، فقد وجدتُها ملِمّةً بما كتبتُ، متتبعةً مفاصلَ أساسيةً من حياتي، كما أنها تتابعُ ما يجري في العراق متابعةَ الدنِف.

قالت لي يوماً، بدون أن تفصِح: أثَرُ العراق عميقٌ في تكويني.

أكانت تومىءُ إلى تجربة شخصية؟ خبرةٍ معيّنة؟

قبل أسبوعين تلقّيتُ بالبريد كتابها الأخير، موضع الحديث.

يتصدّرُ الكتابَ ثلاثةُ أبيات من قصيدةٍ لي تُرجمت إلى الفرنسية يوماً ما:

Le vent qui ne souffle pas le soir
Et le vent qui ne souffle pas le matin
M'ont confie le livre des branches
Saadi Youssef

الأصلُ العربي للأبيات:

الرياح التي لا تهبُّ العشيّةْ

والرياح التي لا تهبُّ الصباحْ

علّمتْني كتابَ الغصونْ

❖ ❖ ❖

للكتاب قصة:

الرسّام ذو الأصل الهنغاري، الكسندر هولان، المتخصص بالطبيعة والطبيعة الصامتة، تركَ للشاعرة، محترَفه

الباريسي، كي تسكن هناك، فترةَ غيابه هو في رحلةٍ معيّنة.

لويز وارن (ومُعظَمُ أشعارها حول الطبيعة والشجر)، وجدَت نفسَها كالسمكة في الماء، في محترَف هولان،

متفحصةً بعينٍ حاذقة تفاصيل المكان والأعمال؛ لم تترك تفصيلاً، من المطبخ حيث فصوص الثوم اليابسة، إلى الشرفة الصغيرة التي تطلُّ منها على العالَم، إلى لوحته عن شجرات الجوز الثلاث، إلى النبت المنزليّ، والسجّادة التي تشبه في أشكالها لوحة نساء الجزائر لدولاكروا ...

تسير لويز على أطراف أصابعها!

تكتب الشاعرة:

لُغزُ الشجرة الساخنة. إنه في سؤال الفنان،

أُحِسُّ الشجرةَ ساخنةً. كيف أجعلُ الشجرةَ ساخنةً؟

وهكذا عندما كنتُ في المُحتَرَف، تابعتُ بنظري

ثلاثَ مجموعاتٍ من أشجار الجوز؛ حمراء، بنفسجية، زرقاء.

وصرتُ أتأملُ مع نفسي، بلوغي تلك اللوحات، بالتركيز والإستغراق.

كانت سترتُه على مسند الكرسيّ: نحتاً كاملاً.

وددتُ لو استفضتُ في الإقتطاف من روضة لويز وارن.

لكني كسولٌ حين يتعلّقُ الأمرُ بالترجمة من الفرنسية إلى العربية.

وبخاصة، لغة لويز وارنِ المواربة!

لندن ٢٠٠٥/٣/٣

الفهرس

جان دمو.. إلى أين؟ ٥
كم موجع هذا الوقت، يا أمل ! ١١
قلت: أعود إلى الألوان المائية ١٣
الخونة، خدم الجنرال المتقاعد غارنر ١٧
آية الله.. كنعان مكية ١٩
الجمعة اليتيمة ٢١
التخويض في دم العراقيين ٢٣
ابتدأت معركة التحرير ٢٥
"الجنرال" الأصلع وطابوره ٢٧
أنا العراقي، كيف استعين بنفسي ٢٩
الفالاشا العراقية ودرس الخوئي ٣١
بغداد On – Off ٣٣
أوراق التين اليابسة ٣٥
عن العراق الذي لم يكن ٣٧
صواريخ القيامة ٣٩
مثقفوا الـ A.L.A العراقيون ٤٣
يوم في منتهى الغرابة ٤٥
"طريق الشعب" أسبوعية ٤٧
مائة عام من الاستعمار ٤٩
مجلس المحكومين ٥١
تحية إلى عصام الخفاجي ٥٣
كيف تبدأ الأشياء، كيف لا تنتهي ٥٥
المجلس "الإعلى" لثقافة الاحتلال ٥٧
ألا من مرآة ! ٥٩
الطريق إلى الخراب العجيب ٦١
جلال الطالباني وقع وثيقة الاستسلام ٦٣

مفاتيح الحرب الأهلية ٦٥
صدام حسين في قبضة أسياده ٦٧
علينا أن نتفادى الحرب الأهلية........................ ٦٩
خطوة في الاتجاه الصحيح ! ٧١
ساعات غيفارا الأخيرة ٧٣
جنّة الكنّاسين ٧٧
وربة وبوبيان .. وقناة بـالـنـاما ٧٩
شارع المتنبي........................ ٨١
الغياري........................ ٨٣
الطفل المعجزة........................ ٨٥
موسوعة النهب الأميركي لآسيا........................ ٨٧
جورج بوش في حضرة الطفل المعجزة........................ ٩١
بِمَ نُباهي الأمم ؟........................ ٩٣
"قوائم" بلا حدود ٩٥
امبراطورية ليست مثل الأخريات........................ ٩٧
البلد المستحيل ١٠١
أمُّ المعارك: حربُ "القبضايات" ١٠٣
عرش بنات آوى الباريسي ١٠٥
ساعات لوركا الأخيرة ١٠٩
ساعات أندريه جسيد الأخيرة........................ ١١٥
يوميات ذات مغزى........................ ١١٩
طائر النار: من باليرمو إلى كاراكاس........................ ١٢٣
أول أيار عالياً على الأسلاك........................ ١٢٩
هل تحبين ألفيس بريسلي؟........................ ١٣١
الجندب الحديدي ١٣٥
يوميات عراقية (١)........................ ١٣٧
لا تقتلوا الشهر ستاني ! ١٤٧
بين موتـاين ١٤٩
غلامٌ سعودي رئيساً لأرض السواد ١٥٣
الجرذان تغادر السفينة........................ ١٥٥

كلامٌ غير مسؤول ١٥٧
ساعات جلان جينيه الأخيرة.. ١٥٩
كم عدَن سوف ننسى ! ١٦٥
ثلاثة وجوه منتفخة غباءً.. ١٦٧
طريق الشِّهاب، وصالح بشتاوة.. ١٦٩
زيادة سيجموند فرويد ١٧٣
"أبو غريب" تحت ضوء فرويديّ ١٧٧
يوميات عراقية (٢).. ١٨٣
حُكمُ النوكي والحمقى.. ١٩١
بحثاً عن فردوس القِيم المفقود.. ١٩٣
أجنحة أميركية متحركة وبعثيٌّ سافلٌ ١٩٧
الجاحظ.. صديقي.. ١٩٩
حضارمةٌ في الأرخبيل ٢٠٣
أجوبة إلى أخبار الأدب ٢١١
آثار أقدام على الموج والعشب ٢١٩
ملحقون بالقوّات EMBEDDED.. ٢٢٣
محمد علي اسماعيل : الومن مضطرباً.. ٢٢٧
"الحوار المتمدن" رئة الحرية ورايتها ٢٢٩
الحصان والجَنيبة ٢٣١
تحويل المجرى.. ٢٣٥
عربةٌ ذات ثلاثة جياد ٢٣٧
أبو إبر.. أبو طُبَر ٢٤٥
بابان لبيتِ الله ٢٤٧
الأتباع يختصمون.. ٢٥١
التصويت وعواقبه ٢٥٣
جلالا الطالباني إلىالمحكمة الجنائية الدولية في لاهاي ٢٥٥
رحيل العائق ٢٥٧
كتاب الغصون ٢٥٩

في واقع الأمر إن أسئلة كثيرة الآن تحاصرنا- العنصرية والهوية والإنسان والقومية والإرهاب وحكايات التحرر الوطني - نحن نشعر بالقلق، حيال كل مقومات وجودنا وتاريخنا وهويتنا المستهدفة. وبلا شك إننا نتجنب إعطاء أو شرح أو وصف مقدمات تحليلية للراهني لأن ذلك سيسبب الضحك وما من مصلحة في ذلك.

إن إطلاق سلسلة «ذاكرة عراقية» والذي نتمنى أن يكتب لها الاستمرار والفعالية والحيوية والعلمية في تقديم وتوثيق الكثير من البحوث والدراسات حول تاريخ وحاضر ومستقبل العراق، والذي بالنهاية سيكون جوهر هذه السلسلة وهدفها الحقيقي، لأنه من الصعب الآن إعطاء صورة واضحة ومباشرة عما يجري وجرى من أحداث على كل المستويات.

نرجو من ذلك تحديد ملامح الحلول الكبرى للصراع بين الرؤى والبنى والثقافات المتباينة في الحياة والمثال.

الناشر

٥

يوميات الأذى

سعدي يوسف